الجمهورية الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الحاج لخضر ـ باتنة

كليّــة اللغة والأدب العربي والفنون
قسم اللغة والأدب العربي

التّقَـــابُلُ فِي القُرْآن الكَرِيـــــم
بَيْنَ الجَمَاليّة والدَّلَالِيَّة

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في"علوم اللّسان العربي"

إعداد الطـــالب:
علي زيتونة مسعود

إشراف الأستاذ الدكتور:
محمد بوعمامة

أعضاء لجنة المناقشة

الاسـم واللقـب	الرتبـــــــة	الجـــــامعة	الصفـــــة
د. عز الدين صحـراوي	أستـــاذ محاضر	جامعة الحاج لخضر. باتنة	رئيســـــــا
أ د. محمــد بوعمـــامة	أستـــاذ التعليم العالي	جامعة الحاج لخضر. باتنة	مشرفا ومقرّرا
أ د. عبد الكريـم بـورنان	أستـــاذ التعليم العالي	جامعة الحاج لخضر. باتنة	عضوا مناقشا
د. أحمد الشايب عرباوي	أستـــاذ محاضر	جامعة حمه لخضر. الوادي	عضوا مناقشا
د. إبراهيـــــم طبشـــي	أستـــاذ محاضر	جامعة قاصدي مرباح . ورقلة	عضوا مناقشا
د. عمـــــار ربيـــــح	أستـــاذ محاضر	جامعة محمد خيضر . بسكرة	عضوا مناقشا

السّنــة الجـامعيّــة:

2016 ـ2017م/1437ـ1438هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

• ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ النساء: 113 .

• ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ يوسف: 101 .

الإهداء:

إلَى رُوحِ أَبِي الشَّيْخِ امْحَمَّد ...

رَحِمَهُ اللهُ رَحْمَةً واسِعَةً، وجَزَاهُ عَنِّي خَيْرَ الجَزَاءِ ...

وَبَارَكَ لَنَا فِي خَلِيفَتِهِ السّيّد عبد الكامل.

شُكْر وعِرْفان وامْتِنان

[سُئل أحَدُهم : مَنْ أسْعدُ النَّاسِ؟ قالَ: مَنْ أسْعَدَ النّاسَ.]

• في البداية أتّقدم بالشّكر الجزيل والعرْفان الخالص والامتنان الخاصّ ...

إلى كلّ الذين شاركُوني هذا العمل المُتواضع، وساهَمُوا مَعِي في إنْجازه؛ مُساعَدةً، ونُصْحا، وتوْجيها، وتشْجيعا، وانْتِظارًا ... السّادة الأساتذة الأفاضل:

كمال بن عمر، بنسالم برّه، علاق قدور، السّعيد قرفي، مسعود طواهريّة، نور الدّين مهْري، مسْعود وقاد، محمد بن يحْي، أحمد ضَوْ، محمد الصّالح زكْري، التّجاني شعْباني، يوسف بدِيدَة، هناء سعْداني، عادل محلو، ياسين صلاح ...

• وإلى كّل مَنْ شارَكَني ولوْ بالقليل أوْ مِنْ بعيد، ولمْ يَحْضُرْني اسْمُه الآن .

• ولا أنْسى في هذا المقام أعضاءَ اللّجنة الموقّرة على تفضّلِهم بقُبُول مناقشةِ هذا العمل ، ولاشكّ أنّ ملاحظاتهم ستكون ـ إنْ شاء الله ـ قيّمةً مفيدةً .

واللهَ أسْأل أنْ يأتيهم جميعًا خَيْريْ الدّنيا والآخرة .

المقدّمـــة

القرآن الكريم كتابٌ مقدّسٌ لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الردّ؛ فهُو بحْر لا ساحل له، يمثّل البلاغةَ العالية، واللّغةَ الرّاقية؛ معانيه سامية رفيعة، وأساليبه راقية بديعة، وصوَره أنيقة، وألفاظه دقيقة، وتراكيبُه متناسقة ... فهُو نصّ لغويّ لكن الوسائل اللّغويّة الجماليّة بَلْورَته في أرقى وسائل التّعبير. وفي الوقت نفسه لم تكن هذه الجماليّة غايتَه، بل وسيلةٌ لغاية أعظم، وهي المعنى .

وقد تناول البحثَ في القرآن الكريم العلماءُ قديما وحديثا فلَمْ يُوفُوه حقّه، فهُو كنْز زاخر بمختلف اللّطائف، والبحْث فيه قطرةٌ من بحر، واللّاحقُ مستفيدٌ من السّابق ومُكملٌ له، فكان معجزة النبّي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ الكبرى والخالدة .

ومن الظّواهر الأسلوبيّة والدّلاليّة البارزة في القرآن الكريم، ومن الأوْجه الفنّية في بلاغته واللافتة للانتباه في بيانه، ظاهرةُ التّقابل. فقدْ اعتمد على التّقابل اعتمادا كبيرا، وجعَله وسيلة من وسائله الكثيرة لتوضيح المعاني، والتّأثير في النّفوس من أجل الوصول إلى أهدافه، فاحتلّ ـ بالتالي ـ مساحةً واسعة في القرآن الكريم. لا تكاد تخلو سورةٌ منه، بل هناك سُوَر اعتمدت عليه، ولا يكاد ينْعدم موضوعٌ فيه.

وَوُجدَ في القصّة القرآنية في تحرُّك شخصيّاتها، وتقابُلِ مواقفِها وصفاتها، وظهُور صراعاتِها مِنْ خلال محورَيْ الإيمان والكفر وما ينتج عنْهما من متقابلات ومتناقضات مختلفة، خاصّة أنّ لها قدرةً كبيرةً على تصْوير هذه المتقابلات والمتناقضات وكشْف الواقع عامّة.

كما وُجدَ في الأمثال التي تتقابل فيها ـ هي الأخرى ـ الشّخصياتُ والمواقفُ والحالات... بما تمثّله من إيجابيّة وسلبيّة. ومن ثمّ فقدْ ورَدَ التّقابل كثيرا ومتنوّعا ومتشعّبا، وذا بُعديْن؛ جماليّ، ودلاليّ.

من هنا جاءت دراستنا موْسومةً بـ «التّقابل في القرآن الكريم بين الجماليّة والدّلاليّة».

ومنه يمكن إيجاز دواعي اختيار الموضوع في ما يلي:

1 ــ التقابل ظاهرة أسلوبيّة ودلاليّة بارزة في القرآن الكريم لافتة للانتباه، لاعتماده عليها اعتمادا كبيرا، و جعْلِها وسيلة فنيّة أساسا للبيان والتوضيح، والتّأثير في النّفوس وإقناعها.

2 ــ محاولة معرفة سرّ الاعتماد على التقابل، وفهْم أسراره ودوره الجماليّ والدّلاليّ وتفسيره، ومنْ ثمّ الوقوف على بعض أسرار وجماليّات التّعبير القرآني عامّة.

3 ـ الكشف عن مُخْتلِفِ علاقاتِ التّقابل المتشعّبة في القرآن الكريم، وصُوَرِه المُتنوِّعة وتتبُّعِها، لتجْليَة أسْرار بنْيتِه العميقة، وبنْيةِ لغة القرآن الكريم عامّة.

4 ـ تبيين القيمة الحقيقيّة للتّقابل، ومن ثمّ البديع الذي طالما اعتبره البلاغيّون مُلحقا بلاغيّا وظاهرة شكليّة زائدة، ومجرّد مُحسّنٍ للكلام، وتناولوه تناولا شكليّا قائما على إحصاء المتقابلات، وتناولًا جزئيّا لا يتجاوز الجملة إلى السّياق العامّ للنّص، فعزلوا صُوَرَه عن هذا السّياق، ودرسوها كجُمل متقطّعة وأجزاء متباعدة .

لعلّنا نَجمَع ما تناثر من جزئيّات التّقابل، ونُكْمل ما ألْمَح إليه السّابقون من إشارات طفيفة في حديثهم عن البلاغة القرآنيّة، وفي تفسيراتهم للقرآن الكريم، كَدَوْر التّقابل في تناسب المعاني وتوضيحها... وهي إشارات اقتصرت في معظمها على الحُكم العامّ، والنّظرة غير الشّاملة، والتي لم تكن بالعمْق المطلوب، ولم تُلْغ لديْهم فكرةَ اقتصارِ البديع على التّحسين. أقُول لعلّنا نَجْمع ونُكْمل هذا، ونضيف ما بَدا لنا، في دراسة مستقلّة تطبيقيّة شاملة، تَربط صُورَه وأساليبه بعضها ببعض في إطار النّص القرآني العامّ الذي يشكّل خطابا متكاملا، وكتلة متماسكة يرتبط أوّله بآخره، وبداية السّورة منه بنهايتها في شبكة من العلاقات الصّوتيّة والتركيبيّة والدّلاليّة. فنتجاوز في هذه الدّراسة النّظرةَ الجزئيّة للبديع. ولعلّنا نستكشف بعض أسرار التّقابل البلاغيّة، فتُنير طريق فهْم بعض أسْرار القرآن الكريم عامّة. ولعلّنا ـ أيضا ـ نردّ له الاعتبار بقراءة جديدة للتّراث البلاغيّ العربي في ضوْء المناهج الحديثة، مع مراعاة خصوصيّة النّص المقدّس، ونوسّع من مفهومه، ونكشف عن القيمة الجماليّة للتّقابل، ودوره الجوهريّ في المعنى، وفي تفعيل النصّ. فنُسهِم في إثْراء مكْتبةِ الدّراساتِ القرآنيّة، بَوضْعِ لبِنَة متواضعة من لَبِنات صَرْحِها الشّامخ .

ومن الدّراسات السّابقة للتّقابل التي أمْكَننا التعرّف عليها :

ـ «التّقابل والتّماثل في القرآن الكريم دراسة أسلوبيّة» لفايز القرعان. وقد نظر فيه صاحبه إلى التّقابل من خلال العلاقات البنائيّة بين طرفيْ التّقابل، رابطا ذلك بسياقها العامّ. وقد قسّمه إلى أنماط ؛ بسيط ومعقّد ومركّب ، وكلّ نمط له صُوَرٌ مختلفة.

ـ «أسلوب التّقابل في الرّبع الأخير من القرآن» لعزّ الدّين عمراني. وهي رسالة ماجستير بجامعة باتنة، اقتصرت على الربع الأخير من القرآن الكريم، ظهر فيها تأثّرُ صاحبِها جليّا بمنْهج القرعان في الرّسالة السّابقة ...

ـ «التّقابل الجماليّ في النّص القرآني(دراسة جماليّة فكريّة وأسلوبيّة)» لحسين جمعة. حيث كان تركيزُه على الجانب الجماليّ في التقابل بناء على نظريات الجمال المختلفة، مخصّصا فصْلا لسورة « الضّحى »، لدراسة جمالياتها التاريخيّة والذّهنيّة والعاطفيّة واللّغويّة وغيرها وأسرارِها عامّة. وقد اتّسمت الدّراسة ـ عموما ـ بطابعها الفكريّ .

وهي دراسات اخْتلفت زاويا نظْرتِها عن نظرةِ دراستِنا هذه، ولم تتطرّق إلى ما تطرّقنا إليْه.

أمّا الإشكاليّة الأساس التي تتناولها هذه الدّراسة فتتمثّل في مدى الوظيفة الجماليّة والدّلاليّة التي يقوم بها التّقابل كَلَوْن بديعيّ .

وتتفرّع عن هذه الإشكاليّة التساؤلات التالية: ما سرّ اعتماد القرآن الكريم على التّقابل؟ وهلْ له دور في تحقيق الجماليّة وإنتاج الدّلالة في النّص القرآني؟ وأين تكمن جماليّاته؟ وما هي وظيفته الجوهريّة في المعنى، وفي إنتاج الدلالة؟ وهل له وظائف أخرى؛ في الإيقاع، في تحقيق شعريّة النّص، في التّماسك النّصي...؟ وما هي علاقة التّقابل ببعض الألوان البديعيّة الأخرى؟ وهل التّقابل يأتي بنمَط واحد ثابت أم له علاقات مختلفة يتجلّى فيها؟ وإذا كان له أنماط أخرى، فما هي أسرارها ؟ وهل للتقابل دور حجاجيّ في القرآن الكريم ؟.

وللإجابة عن هذه التساؤلات ، وضَعْنا خطّة متكوّنة من مدخل وثلاثة فصول:

ففي المدخل الذي كان عنوانُه « تحديد المفاهيم »، بيّنا مفاهيم المصطلحات الآتية: التّقابل، الجماليّة، الدّلاليّة وما يتعلّق بها. فالمنْهج وأعْراف البحْثِ العلْميّ يفْرضان أنْ يَجْمع المدْخل الكلمات المفتاحيّة في العُنْوان لتفكيكها وتوضيحها؛ لأنّ ذلك من شأنه أنْ يُنير الأطروحة، ويجعلنا ننطلق من مفهوم واضح ومحدّد .

وفي الفصل الأوّل الموسوم بـ « بلاغة التّقابل وأبعاده في القرآن الكريم »، تناولنا أهميّة التقابل وأبعاده المختلفة في القرآن الكريم. ولمّا كان التّقابل من وسائل التّناسب والتّماسك، تطرّقنا في العنصر الثّاني إلى التّقابل والتّماسك النّصّي. وبعدها حلّلنا سورتيْن مبنيّتيْن بناء كليّا على التقابل، وهُما «الرعد والمطفّفين»، كما حلّلنا التّقابل في سورة «ص» وقد ورَدَ في وسطها، وسورتَيْ« الزمر والدّخان »، وقدْ ورَد في آخريْهما. وهي سُوَر مبنيّة على التقابل بناء جزئيّا. وفي العنصر الأخير تطرّقنا إلى تَقابِل مِنْ نوع آخر، وهو تقابل ثلاثيّ الأطراف، فحلّلناه من خلال سورتيْن؛ أُولاهُما «محمد»، وأطرافُ التّقابل فيها هُمْ «المؤمنون والكافرون

والمنافقون»، وسورة «الواقعة »، وأطرافُ التّقابل فيها هُمْ «السّابقون وأصحاب اليمين وأصحاب الشّمال ».

أمّا الفصْل الثّاني فقَدْ كان عنوانُه «التّقابل في الأمثال والقصص في القرآن الكريم»، وقد جعلناه في ثلاثة أقسام رئيسة هي:

أوّلا: «التّقابل في الأمثال»، فبَعْد تقديم لمْحة عامّة عن المثل، ثم الأمثال في القرآن الكريم، حلّلنا مجموعةً من الأمثال المتقابلة ؛ الطويلة والسّريعة .

ثانيا: «التّقابل في القصص»، وفيه قدّمنا لمحة عامّة عن القصة وأهميّتها، وتطرّقنا إلى التّقابل في القصّة القرآنيّة عامّة، باعتبارها مُصَوِّرةً للواقع القائم على الصّراعات والتناقضات، واخترنا اثنتين منها للتّحليل، وهما قصّتا « سيّدنا يوسف ـ عليه السلام ـ وقابيل وهابيل ».

ثالثا: «التّقابل في الأمثال القصصيّة»، وقد خصّصْنا له عُنْصرا مستقلّا، لأنّه نمَطٌ قرآنيّ خاصّ جمَعَ بين المَثَل والقصّة، فحلّلنا قصةّ «الرّجلين» المتّقابلين؛ كُفْرا وإيمانا في سورة «الكهف».

والفصْل الثّالث كان موسوما بـ « التّقابل وألوان البديع في القرآن الكريم». وقد قسّمناه قسميْن، قبْلهما مدْخلٌ، بَرَّرْنَا فيه هذا التقسيم. وأوّل القسمَيْن: «التّقابل وألوان البديع الإيقاعيّة »، وفيه حلّلنا آيات التّقابل المنْدمِجة بالألوان البديعيّة ذات الطّابع الإيقاعي، وهي التّكرار، والتّوازن،والتّجانس، والفاصلة. وقدْ صُدّر هذا القسم بلمْحة عامّة عن الإيقاع، واهتمام القرآن الكريم به. وثانيهما: « التّقابل وألوان البديع الدّلاليّة»، وفيه تطرّقنا إلى اللّف والنّشر، والعكس والتبديل، والجمع والتفريق والتقسيم، والاحتباك والاكتفاء. وهي ألوانٌ تتضمّن علاقات التّقابل ،وهو أساسُها، لكنّها خرَجَتْ عن ترتيبه المألوف؛ إمّا بتغيير التّرتيب،أو بالتّقديم والتّأخير، أو بالحذْف، ومن ثمّ تجلّى التّقابلُ فيها ببِنْياتٍ مخْتلفة.

وأنْهيْنا دراستنا بخاتمة لخّصنا فيها أهمّ ما توصّلنا إليه من نتائج .

وقد اقْتضَتْ طبيعةُ الدّراسةِ تعَدُّدَ مناهِجِها؛ فاعتمدنا على المنهج الوصفيِّ؛ من خلال وصْف بنْية التّقابل ومكوّناتها في النّص القرآني، وخصائصها، وتحليلها والوقوف على جزئيّات التّعبير والتّصوير في كلّ طرف من طَرَفيْ التّقابل، ومن ثمّ الفوَارق الدّلاليّة بينهما. واستعملنا آليات المنْهجيْن الأسلوبيّ والتّداولي للْكشْف عنْ المقوّمات الجماليّة والدّلاليّة للتّقابل. ومن ثمّ تبْيين دوْرِه في تجْلية المعاني وإنتاج الدّلالات، والكشف عن أبعاده الحجاجيّة. وقد اسْتعَنّا

بالمنْهج التّاريخي في المدخل، عند حديثنا عن التّقابل وآراء القدماء والمحدثين فيه، وحديثنا عن الجمال والجماليّة، والدّلالة. ما اضطرّنا إلى تتبّع النشأةِ والتطوّرِ وإلى السّرد التّاريخي.

أمّا المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها في بنَاء لبِنَات هذه الدّراسة، فكانت كثيرة ومتنوّعة تنوّعَ الموضوع وتشعّبه، وأهمّها: كتُب التّفسير القديمة والحديثة، التي كانت لي أرضيّةً انطلقْتُ منها، فكان أهمّها: «الكشّاف» و«التحرير والتنوير» و«في ظلال القرآن»، وغيرها، وكُتُب علوم القرآن مثل:«البرهان»، والكتُب البلاغيّة القديمة والحديثة، وكتُب البلاغة القرآنيّة عامّة، مثل: أحمد أبو زيد «التّناسب البياني في القرآن »، صالح ملا عزيز «جماليّات الإشارة النّفسيّة في القرآن الكريم». والدّراسات البديعيّة الحديثة مثل: سعيد العوادي« حركيّة البديع في الخطاب الشّعري من التّحسين إلى التّكوين»، محمد عبد المطلب « بناء الأسلوب في شعر الحداثة التّكوين البديعيّ». إضافة إلى بعْضِ المعاجم القديمة، وكُتُب؛ النّصّيّة، والأسلوبيّة، والجماليّة، والدّلالة وغيرها.

أمّا عن الصّعوبات والتي لا يخلو منها أيّ عمل بشريّ، فكان أوّلها قُدُسيّة المُدَوّنة؛ فالقرآن الكريم كتابٌ مقدّس تَحَرّج من الخوْض فيه كبار العلماء، لذلك كنْت متيّقنا أنّي مقْبِلٌ على تجْرُبة محْفوفَة بالمخاطر. فكنْت أقف بدايةً ـ أحيانا ـ أمام ظاهرة التّقابل عاجزا عن التّفسير، فأبْحث في التفاسير وغيرها، لِأجِدَ بعضَ ما أنطلقُ منْه، وما أبْني عليه في إنارةِ سبيلي. ثمّ اتّساع مجال الدّراسة وتنوّعها، لكثْرة التّقابل وتشعّبه وتنوّع علاقاته في القرآن الكريم، ومهْما حاول المرْء، فإنّه لا يستطيع الإحاطةَ به وبأسراره، ليبقى معجزا في كلّ زمان ومكان .

وأخيرا أتقدّم بالشّكر الجزيل، والامتنان والتّقدير إلى الأستاذ الدكتور محمد بوعمامة الذي قبِل الإشراف على هذا العمل المتواضع، وعلى ما أفادني به من علْم وخبْرة، وما أمّدني من توجيهات وتصويبات، لِيَرَى النّورَ متناسقاً مكتمَلاً، وعلى ما غمَرني به من احترام وتقدير. فبارك الله فيه، وجعَلَه منارةً لطلبة العلْم، وجعَل كلّ ذلك في ميزان حسناته، يوْمَ لا ينفع مالٌ ولا بنُون...آمين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد،وعلى آله وصحْبه أجمعين، ورضيَ عن الصّالحين، والحمْد لله ربّ العالمين .

علي زيتونة مسعـود

الوادي: جوان 2016

مدخل: تحديد المفاهيم .

أولا: التّقــابل.

ثانيا: الجماليّة.

ثالثا: الدّلاليــّة.

أولا : التقابل .

1 ـ تعريف التقابل :

التَّقَابُلُ لغة مصدر تَقَابَلَ، وهو من مادّة (قبل). وقد ورد فيها عن الخليل(ت175هـ) قوله :" والقِبَل : الطّاقة ، تقول : لا قِبَل لهم . وفي معنى آخر هو التّلقاء ، تقول : لقَيْتُه قِبَلا أي مواجهة ... وأُصيب هذا من قِبَله ، أي من تلقائه ومن لدُنْه ، وليس من تِلقاء المُلاقاة، ولكن على معنى : من عنده . ومن الجيران مُقابِل ومُدابِر ... ومقابلة وقُبالة : ما كان مُستقبِل شيء ... وإذا ضممت شيئا إلى شيء ، تقول : قابَلْتُه به " [1].

ويقول الجوهري (ت393هـ):"المقابلة: المواجهة والتّقابل مثله"[2]. وفي(المقاييس):" لا قبَل لي به ، أي لا طاقة " [3].

ويقول ابن منظور (ت 711هـ) : " قَابَل الشّيء بالشّيء مُقابَلة و قِبالاً : عارضه . اللّيث : إذا ضممت شيئاً إلى شيء قلتَ قابَلْتُه به ومُقابَلة الكتاب بالكتاب وقِبالُه به : مُعارَضته . وتَقابل القومُ : استقبل بعضهم بعضاً ... والمُقابَلة : المُواجهة والتّقابُل مثله وهو قبالك وقُبالتك أي تجاهك ..." [4] .

ومنه فالتّقابل والمقابلة في اللّغة واحد ، ويحمل معنى المواجهة والطاقة والمعارضة والضّم . وفي هذه المعاني ما يدلّ على وجود شيئين .

أما اصطلاحا فيعرّفه السّكاكي (ت626هـ) بقوله: " هي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر، وبين ضدّيهما "[5]. والضّدّان هما " صفتان وجوديتان يتعاقبان في موضوع واحد يستحيل اجتماعهما كالسّواد والبياض."[6].

ولعلّ هذه المعاني اللّغوية تلتقي جميعا مع المعنى الاصطلاحي في كَوْن الجمع بيْن شيئين أو أكْثَر وضدّهما وضمّ أحَدِهما إلى الآخر في الكلام ، يُشَكّلان تواجُها وتَعارُضا أو

---

[1] . الخليل بن أحمد الفراهيدي ، كتاب العين ، تح مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1408 هـ / 1988 م ، 5 / 166 وما بعدها .

[2] . الجوهري ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة ، تحقيق: أحمد عبد الغفار عطّار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 4 ، 1407 هـ ، 1987م ، مادة (قبل) ، 5 / 1797 .

[3] . ابن فارس ، معجم المقاييس في اللغة ، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر ، بيروت ، د ط ، د ت، ص 873 .

[4] . ابن منظور، لسان العرب ، دار صادر، بيروت ، ط1 ، د ت ، مادة (قبل) ، 11 / 534 .

[5] . السكاكي ، مفتاح العلوم ، تحقيق وتعليق: عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 2000 ، ص533.

[6] . الجرجاني ، التعريفات ، ضبْط وتصْحيح جماعة من العلماء بإشراف النّاشر، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط1 ، 1983 م ، ص137 .

تَضادّا، أو في معنى التّضاد، أو على الأقلّ لا يلْتَقيان في الواقع، مع إمْكانِيّة ضَمِّهما في الكلام .

ولعلّ تعريف الشريف الجرجاني (ت816هـ) للمُتقابلَيْن وأنواعهما يُوَضّح ويُؤكّد ذلك، حيث يقول:" المتقابلان هما اللّذان لا يجْتَمِعان في شيء واحد من جهة واحدة ...كالأبوّة والبنوّة قد يجتمعان في موضع واحد كزيد مثلا ، لكن لا مِن جهة واحدة بل من جهتين ، فإنّ أبوّته بالقياس إلى ابنه وبنوّته بالقياس إلى أبيه ... والمتقابِلان أربعة أقسام الضدّان والمتضايفان والمتقابلان بالعدم والملكة والمتقابلان بالإيجاب والسّلب..."[1].

2 ـ التقابل بين القدماء والمحدثين :

أ ـ التقابل عند القدماء :

• أبو الفرج قدامة بن جعفر(ت337هـ) :

وهو" مِنْ أوائل مَنْ تكلّموا عن المقابلة"[2]. حيْث تنَاول الحديث عن صِحّة المقابلة، ورأى أنّ صِحّتها تُؤدّي إلى صِحّة المعَاني، وفسَادَها فَسادُ هذه المعاني. والمقابلة عنده " أنْ يصْنع الشّاعر معاني يريد التّوفيق بين بعضها وبعض ، بالموافقة أو المخالفة، فيأتي في الموافق بما يُوافق، وفي المُخالِف بما يُخالِف على الصّحة، أو يشرط شروطاً، ويُعدّد أحوالاً في أحد المعنيين، فيَجِب أنْ يأتي فيما يوافقه بمِثْل الذي شرطه وعدّده، وفيما يخالف بأضْداد ذلك، كما قال بعضهم :

وإذَا حَدِيثٌ سَاءَنِي لَمْ أكْتَئِبْ • وإذَا حَدِيثٌ سَرّنِي لَمْ آشر. (من الكامل)

فقد جعل بإزاء سرّني ساءَني ، وبإزاء الاكتئاب الأشر، وهذه المعاني في غاية التقابل"[3].

فالتّوفيق والرّبط بين المعاني والمناسبة بينها يكون بالضدّ وبغير الضدّ .

وفي موضع آخر يعرّف المتكافِئَيْن بقوله: "والذي أريد بقولي: متكافئين، في هذا الموضع: متقابلان، إما من جهة المضادّة أو السّلب والإيجاب أو غيرها من أقسام التقابل، مثل قول أبي الشغب العبسي :

حُلْوُ الشّمائِل، وَهْوَ مُرٌّ بَاسِلٌ • يَحْمِي الذَّمَارَ صَبِيحَةَ الإرْهَاقِ (من الكامل)

فقوله: حُلْو ومُرّ: تكافؤ[1].

---

[1] . الشريف الجرجاني ، التعريفات ، ص 198 .

[2] . عبد العزيز عتيق ، علم البديع ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط1 ، 2006 ، ص 58 .

[3] . قدامة بن جعفر، نقد الشعر ، مطبعة الجوائب ، قسطنطينية ، ط1 ، 1302 ، ص 47 .

فقدْ استعمل قدامة في تعريفه مصطلحَ التقابل ، وما يعتبره العلماءُ طباقا سمّاه تكافؤا.

• أبو هلال العسكري (ت395هـ) :

عقد أبو هلال الفصل الرابع من(كتاب الصناعتين) للمقابلة ، وعرّفها بقوله:"المقابلة إيراد الكلام ، ثم مقابلته بمثله في المعنى واللّفظ على جهة الموافقة أو المخالفة "[2].

وقسّمها إلى أنواع هي: المقابلة في المعنى ، والمقابلة بالألفاظ ، والمقابلة باللّفظ والمعنى. وجعل المقابلة بالضدّ وبغير الضّد ، والأولى أي بالضدّ عنده أفضل ، مثّل قول الشاعر:

وإذا حَدِيثٌ سَاءَنِي لَمْ أَكْتَئِبْ • وإذَا حَدِيثٌ سَرَّنِي لَمْ أَشِر (من الكامل)

وعلّق على البيت بقوله : "وهذا في غاية المقابلة " [3]. وذلك لتوفّر الضدّ فيه .

• ابن رشيق القيرواني (ت463هـ) :

يعرّف المقابلة بقوله: " وأصْلُها ترتيبُ الكلام على ما يجب ، فيُعْطَى أوّل الكلام ما يَليقُ به أوّلا ، وآخِرُه ما يَليق به آخرا ويأتي في الموافق بما يوافقه وفي المخَالِف بما يخالِفه . وأكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد ، فإذا جاوز الطّباق ضدّين كان مقابلة "[4].

فقد ذكر في هذا التّعريف نَوْعَين هما : المقابلة بالموافقة و بالمخالفة . وربط بين الطباق والمقابلة، حين جعَل الضدّ نقطةَ اشْتراك بيْنَهما، ورأى أنّ الطباق إذا جاوَز ضِدَّيْن كان مقابلة .

و في موضع آخر، يُشير القيرواني إلى نوع آخر يخالِف الأوّل ، وهو المقابلة الصوتية، أو المقابلة بالوزن . حيث أنّ ما يسمّيه علماءُ البلاغةِ الموازنةَ، أدْرَجَه في باب المقابلة، فيقول:" من المقابلة ما ليس مُخالِفا ولا مُوافِقا كما شرطوا إلَّا في الوزن والازدواج فقط ، فيُسَمَّى حينئذ موازنَةً"[5]. وذِكْرُ هذا النّوع في موضع مستقلّ يُوحِي بِفَصْلِه بينهما .

ومنه فالمقابلة ــ عنده ــ نَوْعان :

ــ مقابلة بالمعنى ، وتكون بالموافقة و بالمخالفة ، أيْ بالضِّدّ وبغير الضدّ .

ــ مقابلة بالوزن ، وشَرْطُها تَعَادُلُ الطَّرَفَيْن صَوْتِيًّا .

---

[1] . المرجع السابق ، ص 51 ، 52 .

[2] . أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر، تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، 2004 ، ص 337 .

[3] . المرجع نفسه ، ص 338 .

[4] . ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، 2004 ، 2 / 23 .

[5] . المرجع نفســه ، 1 / 597 .

وأكْثَرُ ما تكون المقابلة عنده بالأضْداد . أمّا أفْضَلُها ، فما أطلق عليه اسم " التقسيم"، أي ما كانت الأقسام المتقابلة فيه متوازنة عروضيًّا مُتَسَاوية من حيْث الكلمات ، وما تَوَفّرت فيه الضدّية. حيث يقول:" فكلّما توفّر حظّها مِنْهما كانتْ أفْضَلَ"[1]. وهو هنا يجمع بين نَوْعَيْ المقابلة ؛ المعنويّة والصّوتية .

• ضياء الدين بن الأثير (ت637هـ):

أطْلَقَ ابن الأثير اسمَ المقابلة على الطباق، ناظرا إلى المعنى لا إلى عدَدِ الكلمات . فَبَعْد أنْ قدّم تعريف الجمهور للطباق، علّق بقوله: " الألْيَق من حيث المعنى أنْ يُسمّى هذا النوع المقابلة ، لأنه لا يخلو الحال فيه من وجهين ، إمّا أنْ يقابَل الشيء بضدّه ، أو يقابَل بما ليس بضدّه" [2]. فالمقابلة عنده تُساوِي الطباق. وهو بهذا قد خالَفَ الكثيرَ من العلماء الذين فرّقوا بينهما ، وتكون :

ـ بالضدّ مثل : السّواد والبياض، وهي قسمان :

• مقابلة في اللفظ والمعنى مثل قوله تعالى:﴿ **فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا** ﴾ التوبة 82 .

• مقابلة في اللفظ دون المعنى مثل قول الشاعر المقنّع الكندي :

لَهُمْ جُلُّ مَالِي إنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى • وإنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أكَلِّفْهُمُ رِفْدَا . (من الطويل)

فَقَوْل الشاعر" تَتَابَعَ لِي غِنًى" بمعنى كثُر مالي، وبالتّالي فهي تُقابِلُ قوْلَه " قَلَّ مَالِي" .

ـ بغير الضدّ، مثل قَوْلِه تعالى:﴿ **أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ الفتح 29. فالرّحمة ليست ضدّ الشِدّة ، وإنّما ضدّ الشدّة اللّين ، والرّحمة من مسبّبات اللّين [3].

• ابن أبي الإصبع المصري (ت654هـ) :

عَقَدَ في كتابه (تحرير التحبير...) بَابًا عَنْوَنَه بـ (صحّة المقابلات)، يقول فيه:" صحّة المقابلات عبارة عن تَوَخّي المتكلّم ترتيب الكلام على ما ينبغي، فإذا أتى بأشياء في صدر كلامه أتى بأضدادها في عجزه على التّرتيب، بحيث يقابل الأوّل بالأوّل، والثّاني بالثاني لا يخرم من ذلك شيئاً في المخالف والموافق، ومتى أخلّ بالترتيب كان الكلام فاسدَ المقابلة، وقد تكون المقابلة

[1] . ابن رشيق ، العمدة ، 2 / 29 .

[2] . ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم وتعليق أحمد الحوفي وبدوى طبانة ، دار نهضة مصر، الفجالة ، القاهرة ، د ط ، د ت ، 3 / 144 .

[3] . ينظر : المثل السائر ، 3 / 144 .

بغير الأضداد"[1]. فأصْل المقابلة عنده تكون بالضدّ ، وقد تأتي بغير الضدّ. أمّا صحّتها فتكون بترتيب الكلام ، وفسادها بالإخلال بهذا التّرتيب .

وقد فرّق بين المقابلة والمطابقة من جانبين اثنين هما : " أن المطابقة لا تكون إلّا بالجمع بين ضدّين فذّين ، والمقابلة تكون غالبا بالجمع بين أربعة أضداد ، ضدّان في صدر الكلام، وضدّان في عجزه ... والثّاني أنّ المطابقة لا تكون إلّا بالأضداد، والمقابلة تكون بالأضداد وبغير الأضداد " [2]. وهو رأي أغلب العلماء .

وأفْضَلُ المقابلة عنده ما كانت بالضدّ ، حيث يقول : " والمقابلة بالأضداد أفضل ..."[3]. وما جمعَت متضادّات أكثر، حيث علّق مُعْجَبًا على بيت أبي دلامة بقوله : " فجَمَع بيته ما لمْ يَجْمَعْه بيتٌ قِيلَ قبله في التّقابل..."[4]. وقد أُعجِب أكثر ببَيْت المتنبيّ وهو :

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي • وَأَنْثَنِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بِي (من البسيط)

وعلّق قائلاً:" ولا أعلم في باب التّقابل أفضلَ من هذا البيت لِجَمْعِه من المقابلات ما لم يجمَعْه بيتٌ لشاعرٍ قبله ولا بعده إلى يومنا هذا "[5].

- **الخطيب القزويني (ت739هـ) :**

أدْرَجَ المطابقة والمقابلة تحت البديع المعنويّ أي المحسّنات المعنويّة، خِلافا للْمُحَسّنات اللّفظية . وهو رأْيُ الجمهور مِن علماء البلاغة. وقد أطْلَقَ على المطابقة اسْمَ التّضاد أيضا. وعرّفها بقَوْله: " المطابقة ، وتُسمّى الطّبَاق والتّضاد أيضا ، وهي الجَمْع بين المتَضادَّيْن، أي متقابلين في الجملة "[6].

وقد أدْرَجَ القزويني تحت المطابقةِ المقابلةَ ، حيث يقول:" ودخل في المطابقة ما يخصّ باسم المقابلة، وهو أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ، ثم بما يقابلها على الترتيب،

---

[1] . ابن أبي الأصبع ، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف ، الجمهورية العربية المتحدة ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، د ط ، د ت ، 2 / 179.

[2] . المرجع نفسه ، 2 / 179 .

[3] . المرجع نفسه ، 2 / 182 .

[4] . المرجع نفسه ، 2 / 179 .

[5] . المرجع نفسه ، 2 / 182 .

[6] . الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة ، حقّقه وعلّق عليه وفهرسه عبد الحميد هنداوي ، مؤسسة المختار، القاهرة، ط2 ، 2004 ، ص 288 .

والمراد بالتوافق خلاف التقابل"[1]. وهو بهذا جعل الطباقَ أساسَ المقابلة ، مُنْطلِقا مِن البَسيط باعتباره أساسا للْمُركّب .

• بدر الدين الزركشي (ت794هـ):

يُعرّف المقابلة بقوله:" وهي ذكر الشّيء مع ما يوازيه في بعض صفاته، ويخالِفُه في بعضها... وهي قريبةٌ من الطباق"[2]. وهو هنا يجعل التّوازي أسَاسًا وشرطا للتّقابل .

وقد ذَكَرَ أنواعَها وهي: نظيريّ، ونقيضيّ، وخِلافيّ . والنّوعان الثّاني والثّالث يعتمدان على التّضاد أوْ مَا في معنى التّضاد ، خِلافا للأوّل[3].

أمّا الطباق فَعَرّفَه بِقَوله: " هو أن يُجمع بين مُتَضادَّيْن مع مراعاة التقابل، كالبياض والسواد، والليل والنهار؛ وهو قسمان : لفظيّ ومعنويّ ..." [4].

ومن خلال الأمثلة القرآنيّة التي عَرَضَها في حديثه عن الطباق يظهر أنّه مَزَج بينها وبين المقابلة ، أي لم يفرّق بين أمْثِلَتِهما، رغم أنّه فرّق بينهما صراحة نظريًّا، وفَصَل بينهما ، حيث خصّص للمقابلة جزءا من كتابه وفَصَّل في مباحثها .

ويظهر الفرْقُ بين الطباق والمقابلة عنده مِن وجهين : الأوّل أنّ الطباق لا يكون إلا بين الضّدّين غالبا، والمقابلة تكون لأكثر من ذلك غالبا . والثاني لا يكون الطباق إلا بالأضداد، والمقابلة بالأضداد وغيرها...[5] .

ب ـ التقـابل عند المحدثين :

كما هو معلوم أنّ البلاغة العربية تتألّف من علوم ثلاثة هي: المعاني والبيان والبديع، وأن مباحث هذه العلوم كانت في البداية مختلطة ، قبل أن يُفصَلَ بعضُها عن بعض عند السّكاكي (ت626هـ) في كتابه " مفتاح العلوم " الذي سمّى الأنواع البديعية (بديعا) يُحسّن الكلام، وقَسَّمَها إلى قسمين ؛ لفظيّة ومعنويّة ، أي أنّه جعل (البديع) قسْما مستقلّا سُمّي بالمحسّنات البديعيّة،إلى أنْ تميّزت مباحِثُ كلِّ عِلم من علوم البلاغة هذه ، وتحدّدت معالمه، وذاع هذا التّقسيم وانتشر إلى غاية اليوم .

---

[1] . المرجع السابق ، ص293 .

[2] . الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ط1، 2004 ، 3 / 280 ، 281 .

[3] . ينظر : المرجع نفسه ، 3 / 281 .

[4] . المرجع نفسه ، 3 / 279 .

[5] . ينظر: المرجع نفسه ، 3 / 280 ، 281 .

وعرّف البلاغيون البديع ـ كما سبق ـ بقولهم:" هو عِلْمٌ يُعْرَف به وجوهُ تحسين الكلام"[1]. وهذا يعني عندهم أنّه طلاء خارجي يُضفي على الكلام حُسْنا ظاهريًّا ، و تَالٍ لِعِلْمَيْ (المعاني) و(البيان) ، أي أنّ أهميّتَه ـ إنْ كانت له أهميّة عندهم ـ تكون بعْدهما. ففي رأْي معْظمِهم هو ظاهرة شكليّة زائدة ، والزّيادة قد تعني إمكانيّة الاستغناء عنه . ومن جهة فقَدْ قسّموا المحسّنات إلى لفظيّة مثل: الجناس ، التصريع ، السجع ، الجناس... ومعنويّة مثل: الطباق والمقابلة والجمع والتفريق والتّورية... وهو تقسيم أخَذَه اللّاحق ـ عموما ـ عن السّابق، وسار عليه القدماء والمحدثون .

لكنّه رغم هذا فإنّنا نجد البعض من القدماء لمَح إلى قيمة البديع البلاغيّة، وإلى أهميّته في المعنى، كعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) الذي يرى أنّ المحسّنات البديعيّة أساس في الكلام، عندما يطلبها المعنى ويستدعيها ، فتكون ـ عنده ـ بالتّالي جزءا منه، وأساسا فيه . وفي ذلك يقول : " وعلى الجملة فإنّك لا تجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حَسنا ، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحْوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً ، ولا تجد عنه حولا "[2] .

وفي العصر الحديث سار البعض على هذا التّقسيم ، وهذه الرؤية ، فنظروا إلى المحسّنات البديعيّة على أنّها زوائد، ولم يضيفوا ـ عموما ـ شيئا ، واكتفوا بسرد تاريخ ومؤلفات البديع، وبالتّقسيمات والتّكرار دون أي جديد يذكر. بل ففي الكثير من الأحيان لا يُكلّف الباحث نفسه عناء البحث عن أمثلة جديدة من القرآن الكريم أو الشّعر العربي اللّذيْن يزخران بألوان البديع. فكثيرا ما نجد مثالا واحدا يتوارثه العلماء من جيل إلى جيل ويتقاذفونه ، وكأنّ الأمثلة في فكرته انعدمت ، واللّغة عن غيره عجزت . يقول محمد مندور:" فالتّجنيس إما عبثا لفظي ... وإمّا لعب بالمعاني ومهارة في استخدام مفردات اللّغة ... والطّباق مجرّد مقابلات بين المعاني"[3].

وبالمقابل ظهرت أصواتٌ لم تَرْضَ بهذا التقسيم وهذا الدّور الذي أُسنِد إلى البديع، ورأَتْ فيه نقْصا وتعَسُّفا كبيرين وإجحافا في حقّه ، ذلك لأنّ القول بأنّ البديع ظاهرة شكليّة أمر غير مقنِع في العصر الحديث ، وفي ظلّ تطوّر الدّراسات اللّغوية ، وأنّ تقسيمه إلى محسّنات لفظيّة ومعنويّة تقسيم شكليّ وغير منطقي ، لأنّ هناك تداخلا وتلاحُما بين اللّفظ والمعنى، ولا يمكن الفصْل بينهما . وهو ما نبّه إليْه عبد القاهر الجرجاني (ت471 هـ) في القرن الخامس الهجري

[1] . الإيضاح في علوم البلاغة ، ص 288 .

[2] . الجرجاني، أسرار البلاغة، تعليق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة ، د ط ، د ت، ص11.

[3] . محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب ، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ، د ط ، د ت ، ص 47 .

في نظريّة النظم . فالمحسّن اللّفظي يكون معنويًّا أيضا ، والعكس. يقول أحد المعاصرين عن هذا التّقسيم أنّه:" جنى على الدّرس البديعي جناية كبيرة لأنه صادر على فكرة خاطئة شوّهت العمل الأدبي حينما فَصَلَت فيه بين اللّفظ والمعنى بما لا انفِصَام بينهما"[1]. لذلك يرى ضرورة الخروج من ربقته. فاللّغة ظاهرة معقّدة لا يمكن فصل عناصرها بعضها عن بعض، والأصل أنّ " البديع اسمٌ يطلق على أساليب في التّعبير وصياغة العبارة"[2]، لا تخصّ أحدهما دون الآخر، بل يشترك فيها الاثنان . فالأدب وقَبْلَه اللّغة بنية ووظيفة ؛ " فالعمليّة اللّغويّة الأدبيّة تبدأ متدرّجة من المفرد ، وُصُولا إلى المركّب ، ثم الاتّصال بالعمل الأدبي في مجمله اعتمادا على الشّكل وتضافره مع المضمون"[3]. فَبَدَأتْ تظهر بعضُ المؤلّفاتِ تحاول التّجديد في هذا المجال، أو على الأقلّ تُشير إلى ضرورته ، رغم أنّ بعضها يحمل عنوانَ الجديد، لكنّ المضمونَ بعيدٌ عن الجديد .

فنبّهت هذه الأصوات إلى هذه النّقائص والثّغرات في دراسات البديع ، والتي منها أنّ البلاغيين القدماء تباروا في الإكثار من المحسّنات البديعيّة ، وتحدّثوا عنْها طويلا وتتبّعوا أنواعها وأنماطها في الكلام شعرا ونثرا ، وافتعلوا الكثير من فنونها ، فكَثُرَت التّقسيمات والمصطلحات وتعدّدت عندهم ، إلى حدّ التكلّف، حتى أنّها بلغَت عند بعضهم مائة واثنين وعشرين محسّنا . يقول محمد العمري : " تبارَى المؤلّفون في البديع في الاستكثار من الصّور فأوْصَلوها إلى العشرات بل المئات . وكان هذا التّوسُّع العَدَدي على حِسَاب النّسَق المنطقي والبناء الوظيفي"[4]. وبالمقابل لم نجدْ هذا التّقسيم وهذا التكلّف في (المعاني والبيان). ومن هذه النّقائص والثّغرات أيضا أنّ البديع أصبح في العصر العبّاسي ظاهرة، حيث أسرفوا في استخدامه وراحوا ينظرون إليه على أنّه غاية لا وسيلة لتذوّق الأساليب البيانيّة .

وعموما فقدْ اعتبروا (البديع) طلاء شكليّا ، ومُلحقا بلاغيّا زائدا ، تنحصر وظيفتُه في التّحسين والتّجميل ، في حين أنّ (المعاني والبيان) يُشَكّلان لُبَّ البلاغةِ ، رغم أنّه " لا يفترق

---

[1] . سعيد العوادي ، حركية البديع في الخطاب الشعري من التحسين إلى التكوين ، دار كنوز المعرفة ، عمان ، الأردن ، ط1، 2013 ، ص 42 .

[2] . طالب محمد الزوبعي ، ناصر حملاوي ، البلاغة العربية البيان والبديع ، لطلبة قسم اللغة العربية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط1 ، 1996 ، ص 140 .

[3] . محمد عبد المطلب ، بناء الأسلوب في شعر الحداثة . التكوين البديعي، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1995، ص 14 .

[4] . محمد العمري، البلاغة العربيّة أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق المغرب، الدار البيضاء، بيروت ، دط ، 1999، ص61.

البيان عن الجمال؛ فالبيان جمال والجمال بيان"[1]. ونظروا إليه نظرة جزئيّة غير شاملة التي لم تتجاوز إطار الجملة إلى النّص، ولم تَغُصْ في أعماقه وفي وظيفته الجوهريّة، ولم تُبَيّن فاعلّيتَه في النّص الأدبي وتماسكه وانسِجامه ." فالبديع ... مُكَوّن بنائيّ عُضْويّ، وقيمةٌ شعريّةٌ أساسيّة في بلاغة النّص"[2].

ومن ثمّ فقَدْ نادَى المعارضون بضرورة إعادةِ قراءةِ البديع قراءةً جديدةً تُناسِب العصر، وتُناسِب ما وَصَلت إليه العلوم عامّة من تطوّر، وما بلَغَه الفكر الإنْساني، وحاوَلوا التّجديد و نَبَّهوا إليه. من ذلك:(البديع بين البلاغة العربية واللّسانيات النّصيّة)، و(بلاغة النّص) لعبد المجيد جميل، و(البلاغة العربيّة البيان والبديع) لطالب أحمد الزوبعي وناصر حملاوي، و(حركيّة البديع في الخطاب الشعريّ من التّحسين إلى التّكوين) لسعيد العوادي وغيرها... لذلك فمِنْهم مَنْ رأى أنّ الأفْضل أنْ تُسَمّى (أساليب تعبير) ، لأنها تسْمِية لا تختلف في شيء عن أساليب البيان أو أساليب المعاني لا تُلصِق بها أيّة صِفة زائدة شَكْليّة [3]. فهي جزءٌ من التّعبير ولا يمكن الاستغناءُ عنها ، وهي فنون بلاغيّة جديرة بالتأمّل والوقوف على أسرارها، وليست محسّناتٍ يُؤْتى بها للزّينة الظّاهرة ، أو للدّلالة على القدرة اللّفظيّة [4].

ومِن ألوان البديع المقابلةُ التي عرّفها الميداني في العصر الحديث بقوله: " هي طباقٌ مُتَعَدِّدُ عَنَاصرِ الفريقَيْنِ المتقابلَيْنِ، وفيها يؤتى بمعنَيْين فأكْثر، ثُمَّ يُؤْتَى بما يُقابلُ ذلِكَ على سبيل الترتيب"[5]. وهو تعريف يَعتبِر المقابلةَ طباقًا، وهما يشتركان في التّضادّ، مع اختلافِ عددِ العناصرِ المتضادّة . ولعلّ ما يؤكّد ذلك هو أنّه في تعريفه للطباق اسْتعْمَل مصطلحَ التّقابل بين المعنيين، حيث يقول:" الطباق هو الْجَمْعُ في العبارة الواحدة بين معنَيْينِ متقابلَيْن . والتقابل بين المعاني له وجوه"[6]. ومن ثمّ فالمقَابلة والطباق عنده يشتركان في التقابل .

---

[1] . سعيد العوادي ، حركية البديع في الخطاب الشعري من التّحسين إلى التّكوين ، ص 53 .

[2] . المرجع نفســه ، ص 13 .

[3] . ينظر: أحمد مطلوب ، البلاغة العربيّة المعاني والبيان والبديع ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، بغداد، د ط ، 1980، ص28 . وطالب محمد الزوبعي ، ناصر حلاوي ، البلاغة العربيّة البيان والبديع ، ص 140 .

[4] . رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطوّر، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، مصر، د ط ، د ت ، ص304 .

[5] . الميداني، البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم ، دمشق، الدار الشاميّة ، بيروت ، ط1 ، 1996 ، 378/2.

[6] . المرجع نفســه ، 2 /377 ، 378 .

كما عُرّف التقابلُ بـ " وجود لفظتين تحمل كلّ منهما عكس المعنى الذي تحمله الأخرى"[1]. وهو ـ تقريبا ـ تعريفُ العلماءِ للطباق، كوْنه اقتَصر على التّضادّ بين اللفظتين والمعنيين، مُهْمِلا التضادّ بين الجمل والمعاني .

هذا وقد حَظِي التقابلُ باهتمام الدّراسات اللغويّة العربيّة والغربيّة الحديثة بعد تطوّر اللّسانيات والدّراسات الدّلاليّة ، خاصّة في النّصف الثّاني من القرن العشرين . ولعلّ دراسة أوجدن ogden عام 1932 وعُنْوانُها " opposition" إحدى أهَمّ المحاولات المبكّرة في هذا المجال ، ليظهر بعد ذلك دارسون اشتغلوا بوضع الأُسُس الدّلالية لظاهرة التّقابل . ولعلّ أبْرزَهم جون لاينز lyons (semantics 1977)، وبالْمَر palmer (1976علم الدلالة إطار جديد) وغيرهما [2].

وهكذا اسْتَوْعَبَتْ الدّراساتُ الحديثة التقابلَ، وفهمت حقيقةَ وجوده ، وحقيقتَه في التّعبير، وعرفت أنّ دوره جوهريّ ، وأنّه من مقوّمات التّعبير، وأساس بناء النّص . لذلك لا يمكن أنْ يكون حِلْية زائدة مقتَصِرة على الشّكل ، مستفيدةً من تطوّر الفكر البشري ، ومِن الدّراسات والمناهج الحديثة ، فالعالم ــ من وجهة نظر البنيويين ــ مجموعة من الثّنائيات المتشابكة، والمتقابلة تنعكس على شبكة العلاقات اللّغوية، فَتُحِيلها إلى مجموعة من الثّنائيات الخالصة [3]. وهي في ذلك منْطلِقَة من نظرة اللّسانيات إلى اللّغة على أنّها نظام من الاختلافات[4]. يقول طه عبد الرحمان: " أنّ أساليب البيان مثل المقابلة والطباق وغيرها، ليست اصطناعا للتّحسين والبديع ، وإنمّا أصْلا أساليب للإبلاغ والتّبليغ "[5].

وكان من نتائج ذلك أنّ الشّاعر الحديث اعتَمَد في بناء قصيدته وفي شعريتها على التقابل ، كما تصدّى له النقدُ بصورة مختلفة ، وسارَ متّجها به وجهة عمَلية ، متفهّما لطبيعته وأهميّته الخاصّة في لغة الأدب والشعر[6]، لأنّ المبدعين بنوا إبداعاتهم على أساس الحياة

---

[1] . أحمد ناصيف الجنابي ، ظاهرة التقابل في علم الدلالة ، ص 15 ، نقلا عن : سعيد جبر محمد أبو خضر، التقابلات الدلاليّة في العربيّة والإنجليزيّة تحليل لغوي تقابلي، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ط1 ، 2008 ، ص 12 .

[2] . ينظر: سعيد جبر محمد أبو خضر، التقابلات الدلالية في العربية والإنجليزية ، ص 3 .

[3] . ينظر: محمد عبد المطلب ، بناء الأسلوب في شعر الحداثة ، ص 149 .

[4] . ينظر: عاصم محمد أمين ، لغة التّضاد في شعر أمل دنقل ، دار صفاء ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2005 ، ص 43 .

[5] . ينظر: طه عبد الرحمن ، مراتب الحجاج وقياس التمثيل ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله ، فاس ، المغرب ، العدد : 9 ، السنة : 1987 ، ص 18 .

[6] . ينظر: عاصم محمد أمين ، لغة التضاد في شعر أمل دنقل ، ص 44 .

العصريّة، القائمة على الصّراعات والمتناقضات . لذلك ركّز النّقاد والباحثون المحدثون في ظاهرة التقابل ـ كما في الطباق ـ على هذه المفارقات وتشابكها وعمقها الفلسفي وأبعادها.

وبناء على ذلك ، فمِن الباحثين مَنْ رأى أنّ التّجربة الشعرية الحديثة تَتَمحْور حول عموديْن يتكاملان عضويّا هُمَا الموت والحياة ، الهزيمة والانتصار، العذاب والثورة، الغياب والحضور، فعبّر الشعراء عن دلالات هذه التّجربة[1]. وقد أطلق عليها علي عشري زايد(المفارقة التصويرية). وهي " تكنيك فنّي يستخدمه الشاعر المعاصر لإبراز التناقض بين طرفين متقابلين بينهما نوعٌ من التناقض"[2]، أمّا مصطفى السّعدني فأطلق عليها اسم (المفارقة)، وقسّمها إلى المفارقة بالطباق والمفارقة بالمقابلة والمفارقة بالعكس والتّبديل . ويقْصد بها إبراز التناقض بين الطرفين[3]. ذلك لأنّ الضدّ يجْمَعُها، وفي الضدّ مفارقة . فقامت فلسفةُ الصّورةِ في الشعر الحديث على هذا النّوع من التقابل والتّعارض المؤدّي إلى المعنى[4] . من ذلك أنّ دارسَ شعر بدر شاكر السّياب يستطيع أنْ يُعايِن المشاهد المتقابلة والمتَعارِضة فيه، فيفيد معنى الموازنة والتّأمل المفْضي إلى جوهر الحياة ، وتتحوّل المشاهدُ المتقابلة في شعره إلى لوحات فنّيّة كاملة يقابل بعضُها بعضْا وتُضْفي على المشهد مزيدا من الحساسيّة والعمق الشعري[5]. ومِثْلُ هذا كثير في الشعر العربي الحديث[6]، وفي الإبداع عامّة، كالرّواية العربيّة الحديثة [7]. بل " إنَّ مِساحَة غير قليلة من خُيُوط الصّراع الفكريّ والنّفسيّ في الأعمال الأدبيّة الحديثة في فنون الشّعر والقصّة والمسرحيّة تقوم على تقابل المواقف والأفكار والخطط، أو التّضاد بين الداخل

---

[1] . ينظر: إبراهيم رماني ، الرمز في الشعر العربي الحديث ، مجلة اللغة والأدب ، معهد اللغة العربية وآدابها ، جامعة الجزائر، العدد: 02 ، د ت ، ص 78 .

[2] . علي عشري زايد ، عن بناء القصيدة العربية الحديثة ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط 5 ، 2008 ، ص 130 .

[3] . ينظر: مصطفى السعدني، البناء اللفظي في لزوميات المعرّي دراسة تحليليّة بلاغيّة ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، د ط ، د ت ، ص 100 وما بعدها .

[4] . عثمان حشلاف، التراث والتجديد في شعر السياب، دراسة تحليليّة جماليّة في مواده صوره موسيقاه ولغته، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، د ط ، 1986 ، ص 114 .

[5] . ينظر : عثمان حشلاف ، التراث والتّجديد في شعر السياب ، ص 122 .

[6] . ينظر : عاصم محمد أمين ، لغة التضاد في شعر أمل دنقل . علي زايد عشري ، عن بناء القصيدة العربيّة الحديثة .

[7] . ينظر: سامية آجقو ، البنْية السرديّة في رواية " مواكب الأحرار " لنجيب الكيلاني ، دراسة سيميائيّة ، رسالة ماجستير في النقد الأدبي (مخطوطة) ، قسم اللغة والأدب العربي ، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية ، جامعة محمد خيضر بسكرة ، السنة الجامعية: 2004 / 2005 ، ص 69 وما بعدها .

والخارج، أو بيْن ما حَدَث مِنْ قبل، وما يَجْري الآن، وهذا هو أساس المقابلة"[1]. ولعلّ تعقيدَ الحياة الحديثة وكثْرة صراعاتها، وإدراك المبدِعين لها ولِأبْعَادِها، جَعَلَتْ نَصِيبَ الثّنائيات المتقابلة أكْثرَ وأعْمقَ في الإنتاج الأدبي. ونتيجة لذلك تغيّرت نظرةُ الباحثين والنّقاد في العصر الحديث إلى التّقابل، وتغَلْغَلَت الدّراسات في بُنَاه العميقة التي أسّسَتْ للتّضاد ، وخرَجَتْ بِمُعادلة تَرْبط أجْزاءَه [2].

ونخْلص إلى أنّ المحدثين ـ عموما ـ تفطّنوا إلى أنّ التّقابلَ عُنْصُر فعّال في النّص الأدبي، وجَوْهريّ في تحقيق شعريته ، وأسلوبُ تعبير كغيره ... ولا يمكن بأيّ حال من الأحوال أنْ يكون زائدا في الكلام ، أو ذيْلا للبلاغة .

وممّا سبق كلّه نُلاحظ أنّ تعريفاتِ القدماء للتقابل مُتَقارِبَةٌ ، ومعظمُها متشابِهٌ ، يَأخُذ فيها اللّاحق عن السّابق، حيث " لا يختلف البلاغيون اختلافا كبيرا في توصيفهم للمقابلة، حتى إنّهم لَيُعِيدُون تعريف قدامة بن جعفر مع تعديلات بسيطة في الصياغة "[3]، وحتى أنّهم لَيُعِيدون المثالَ نفْسَه .

وإذا كان الطّباق والمقابلة يعتمدان على التّضاد ـ غالبا ـ ، فإنّ هناك مصطلحات أخرى تصبّ في معنى التّضاد، وتدور حوْله، استخدمها العرب القدماء في اللغة والأدب والنّقد ، مثل: التكافؤ، والتناقض، والخلاف، والتغاير، والأضداد وغيرها...[4]. إلّا أنّه لم يكن لها الانتشارُ الواسِع كمُصْطَلَحَيْ الطّباق والمقابلة .

هذا وقد فرّق أكْثرُ العُلماءِ بين الطّباق والمقابلة في أنّ:

ـ الطّباق لا يكون إلّا بالجَمْع بين ضِدّيْن فذّيْن، والمقابلة تكون بالجمْع بين أكْثر من ضدّيْن.

وأنّ التقابل يقوم على فِكْرة التّضاد التي تربط بين المتناقضين ، فيتفاعلان ويُلقِيَان بأثَرِهما على المتلقّي بِكلّ ما يحْمِلانه مِن شحنات مؤثّرة ، وإيقاع موسيقي، فتتفجّر المعاني، ويظهر الجمال وتُنْتَج الدّلالةُ، وخاصّة عند تداخله مع ألوان البديع الأخرى ذات الإيقاعات القويّة مثل السّجع، والتّوازن ، والتّكرار والتّجانس وغيرها ...

---

[1] . شفيع السيد ، البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د ت ، ص221 .

[2] . ينظر: عاصم محمد أمين ، لغة التضاد في شعر أمل دنقل، ص 53 .

[3] . سعيد العوادي ، حركية البديع في الخطاب الشعري من التحسين إلى التكوين ، ص 223 .

[4] . ينظر: منى الساحلي، التضاد في النقد الأدبي مع دراسة تطبيقية من شعر أبي تمام، مخطوط الإجازة العالية في الأدب العربي، السنة: 1993، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والتربية، جامعة قاريونس، الجماهيرية العربية الليبية ، ص7 . عاصم محمد أمين ، لغة التضاد في شعر أمل دنقل ، ص 28 وما بعدها .

ـ الطّباق لا يكون إلا بالأضداد، والمقابلة تكون بالأضداد وبغير الأضداد،وإن كانت بالأضداد أكْثَرَ وأفْضَلَ . و مِنْهم مَن جَعَلَها بالأضْداد فقط مثل أبي يعقوب السّكاكي(ت 626هـ) .

ـ أمّا ابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ) فقد ضمّ التجنيسَ والتّبديلَ والمقابلةَ تحت عنوان واحد وهو(الطباق) ، حيث يقول:"على أنّ الذي أختارُه تَسْمِية الجميع بالمطابق ..."[1].

ورغم هذا فإنّ بعضَ العلماء لم يتّفقوا فيهما على رأي واحد :

ـ من ذلك أنّ عبد الله بن المعتزّ (ت296هـ) ـ وهو أوّل مَن ألّف في البديع ـ جعَل الطّباقَ من أصُول البديع الكبرى . ومِنْ خلال الشّواهد المختلِفة التي أوْرَدَها للطّباق يَظْهَر أنّه لا يفرّق بينها وبيْن المقابلة . ومِنْ هذه الشّواهد قولُ ابنِ عبّاس:" كَمْ مَنْ أَذْنَبَ وَهُوَ يَضْحَكُ دَخَلَ النّارَ وَهُوَ يَبْكِي، وكَمْ مَنْ أَذْنَبَ وهُوَ يَبْكِي دَخَلَ الجنَّةَ وهُوَ يَضْحَكُ "[2]. ولعلّ سبَبَ ذلك هو أنّ البديع لا يزال في بداية عَهْدِه، وأنّ مصطلحاتِه لمْ تَتَبَلْور، ولم تَظهَر مَعَالِمُها بَعْد . وقد رأينا هذا أيضا عند بدر الدين الزركشي حين لم يفرّق بين أمْثِلَتَيْ الطباق والمقابلة ، رغم أنّه فرّق بينهما نظريًّا وفَصَل بينهما في كتابه (البرهان) .

ـ وما أطلَق عليه العلماءُ الطباقَ، أطلَقَ عليه قدامةُ بن جعفر التكافؤَ .

ـ وفي أصْلِهما جَعَل ابنُ الأثير(ت637هـ) الطباق نوْعا من أنواع المقابلة . وهو بهذا قد جعل المركّب هو الأصْل والأعمّ . في حين أنّ القزويني رأى خِلاف ذلك ، حيث أدْرَج المقابلة تحت الطّباق . وفي هذا يقول عبد العزيز عتيق : " والبلاغيون مختلفون في أمر المقابلة فمِنهم مَن يجعلها نوعا من المطابقة ويُدخِلها في إيهام التّضاد ومنهم مَنْ جعلها نوعا مستقلا من أنواع البديع ، وهذا هو الأصحّ ، لأنّ المقابلة أعَمّ مِنْ المطابقة " [3] .

والذي نريد أن نُنَبّه إليه هنا هو أنّ هناك صلةً بين الطباق والمقابلة ، لأنّهما يعتمدان على الضدّ ، ومن ثمَّ لا خلافَ بينهما سوى في عَدَد المتضادّات ، فمِقْيَاسَهم في ذلك هو العَدَدُ .

إضافة إلى أنّ الكثيرَ من تعريفات العلماء للطّباق ضمّت مصطلحَ التّقابل. من ذلك تعريف حازم القرطاجني (ت684هـ) الذي يقول فيه :" وإذا كان حقيقة الطباق مقابلة الشيء بما هو

---

[1] . ابن سنان الخفاجي ، سر الفصاحة ، دار الكتب العلمية ، ط1، 1982 م ، ص 200 .

[2] . ينظر: ابن المعتز، البديع ، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس : إغناطيوس كراتشقوفسكي ، دار المسيرة ، بيروت ، ط3 ، 1982، ص 36 .

[3] . عبد العزيز عتيق ، علم البديع ، ص 59 ، 60 .

على قدره ومن وفقه سمّي المتّضادان إذا تقابلا ولاءَمَ أحَدُهما في الوضع الآخرَ متطابقين"[1]. ويُشْبِهُه تعريفُ ابنِ سنان الخفاجي[2]. وأيضا كما رأينا عند القزويني والزركشي ... بل منهم من لم تُرْضِهِ تَسْميّةُ الطباق، مُفَضِّلا مُصْطلح التقابل مثل يَحْي بن حمزة العُلْوِيّ (ت754هـ)، حيث يقول: "والأجود تلقيبه بالمقابلة، لأنّ الضّدّيْن يتقابلان، كالسّواد والبياض، والحركة والسّكون، وغير ذلك من الأضداد "[3].

ولعلّ هذا ما جعَل أحدَهم في العصر الحديث، يقترح تعميمَ مصطلح (التّقابل) على الطباق والمقابلة، كأَنْ يُطلَق التّقابل البسيط، والتّقابل المركّب[4]. وفي هذا تحاشٍ لكثير من المصطلحات ، وابتعادٌ عن التكلّف .

[1] . القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ط2 ،1981، ص48.

[2] . التعريف هو:" فإذا كان هذا حقيقة الطّباق وهو مقابلة الشّيء بمثله الذي هو على قدره سمّوا المتضادّين إذا تقابلا متطابقين" (سرّ الفصاحة ، ص 200) .

[3] . ينظر: العُلْوِيّ ، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط1، 1423هـ ، 2 /197.

[4] . ينظر: أحمد أبو زيد ، التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنويّ والصوتيّ ، مطبعة النّجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1992 ، ص 135 وما بعدها .

ثانيا : الجماليّة :

1 ـ الجماليّة وعلم الجمال الأدبي :

الجماليّة مصدر صناعيّ مصُوغ من (الجمال) ليدلّ على الاتّصاف بخصائصه . والجمال من مادّة (جمُل) ، وهو لغة البهاء والحسن. ويكون هذا الحسن في الفعل والخَلْق، كما يقع على الصُّوَر والمعاني[1].

أما اصطلاحا فالجمال في أبسط صوره هو" الصفة التي تجدها في أي موضوع ، والتي تولّد في عقلك نوعا خاصا من الإثارة "[2]. ومن ثم فالجمالية "علم غرضه صياغة الأحكام التقديريّة من حيث كونها قابلة للتّمييز بين الجميل والقبيح "[3]. وتعنى بتوضيح القوانين التي تكشف عن الجمال الفنّي في العمل الفنّي وبتحديد مواصفاته[4]، فتبحث في معنى هذا الجمال عامة من حيث مفهومه وحقيقته ومقاييسه ومقاصده ؛ سواء أكان أدبا أو غيره من الفنون الأخرى .

وقد عرف الإنسان الجمال منذ أن عرف النورَ في هذا الكون . فتذوّقه شيء فطريّ فيه، والنّفس البشريّة تنزع إلى الجمال وتميل إليه ، وتحبّه وترتاح له ." فالإنسان موجود جمالي؛ موجود مفطور على النزوع إلى الجمال ، وهو من ثم يمتلك قدرا ما من الوعي الجماليّ، ولعلّ الوعي الجماليّ من أهمّ أشكال الوعي الإنساني"[5] .

ومن ثم فقَدْ اهتمّ الباحثون بمختلف تَوَجُّهاتهم ومشاربهم قديما وحديثا بمفهوم الجمال، فتناولوه بالتعريف والبحث والتحليل ، فجاء مفهومه عندهم متعدّدا ، متشعّبا . فهناك " أكثر من تعريف للجمال عند مختلف المفكّرين ، في مختلف العصور والأمكنة ، ذلك أنّ التعريفات في هذه الحالة تكاد لا تمثّل أكثر من وجهات النظر المختلفة في فهْم الجمال ، وطبيعي أن يختلف النّاس في فهْم الأشياء ، خاصّة إذا كانت من طبيعة مرنة ، كما هو الشّأن في الجمال والقبح وغيرهما من المفهومات المطلقة "[6].

---

[1] . ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (جمل) ، 11 / 126 .

[2] . عبد العزيز عتيق ، في النقد الأدبي ، جدار النهضة العربية ، بيروت ، ط2 ، 1972 ، ص 48 .

[3] . ميشال عاصي ، مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، 1979 ، ص 435 .

[4] . علي عبد الحليم محمود ، التربية الجمالية الإسلامية ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة ، ط1، 2003 ، ص 79 .

[5] . أحمد محمود خليل ، في النقد الجمالي رؤية في الشعر الجاهلي ، دار الفكر ، دمشق ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط1 ، 1996 ، ص 20 .

[6] . عزّ الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د ط ، 1992 ، ص29 .

والأصل أنّ الجمال موضوع فلسفيّ، اهتمّ به الفلاسفة في البداية دون غيرهم، ثمّ انفصل ليكون بعد ذلك علما مستقلّا." فالتأمّلات الفلسفيّة في الظواهر الأدبية، وعلاقتها بالفنون الأخرى هي التي أدّت إلى مولد علْم الجمال باتّجاهاته المختلفة"[1]. فظهر مصطلح (علم الجمال aesthetica) للمرّة الأولى على وجه التّحديد في البحث الذي نشره (ألكسندر بومجارتن، Alexander Baumgarten)، وعُنْوانُه: (Reflections poetry)[2]، بعْد حصولِه على درجة الدكتوراه سنة 1735، وقد جعلها اسما لعلم خاص[3]. "ويُعَدّ (بومجارتن) المؤسّس الحديث لهذا العلم "[4] .

فظهر علم الجمال بفلسفته المختلفة واتّجاهاته المتعدّدة في كلّ شيء في هذا الكون و تسلّل " بمبادئه ومفاهيمه وقِيَمه إلى كلّ مجال فيه أثر للجميل والجمال وتَرَعْرَعَتْ في أكنافه علومٌ جماليّةٌ عديدة"[5] مثل الأدب، والموسيقى والرقص والرّسم وكلّ الفنون وكلّ وسائل التّعبير. ذلك لأنّ مفهوم الجمال عند الإنسان ، وإحساسه به أخذ يَتَطوّر شيئا فشيئا . و مِن ثَمّ " فعلم الجمال : هو علم يعنى بدراسة طبيعة الجمال ، ودراسة الفنّ ، ودراسة المبادئ التي يقوم عليها التعبير الفنّي من خلال وسائله المتعدّدة " [6].

والنّاس متّفقون على التعلّق بالجمال والانجذاب نحوه، لكنّهم يختلفون في تقدير هذا الجمال، ويتفاوتون في الحكم على الأشياء . رغم وجود جانب من الجمال والقبح متّفق عليه ، " فمع وجود قسم من الجمال لا يختلف اثنان في استحسانه ، وقدر من القبح لا يختلف اثنان في استهجانه، فكم توجد أوساط مشتبهات تختلف فيها أذواق الناس وتختلف وجهات أنظارهم إليها "[7]. ذلك لأنّ الأحكام الجماليّة صفة ذاتيّة ذوقيّة . إضافة إلى أنّها متفاوتة في الأشياء، و الطبيعة البشريّة تختلف في نظرتها وفهْمها للأشياء والحُكْم عليها ، حتى أنّ النّفس الواحدة

---

[1] . صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، عالم المعرفة 164 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 1992، ص 37 .

[2] . ينظر: أبو الحسن سلام ، جماليات الفنون الأدبية . التشكيلية . المسرحية بين اللقطة الزمكانية ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، مصر ، ط1 ، 2011 ، ص 12.

[3] . ينظر: الأسس الجماليّة في النقد العربي ، ص15 . عفيف البهنسي ، علم الحمال وقراءات النص الفني ، دار الشرق للنشر ، دمشق ، ط1 ، 2004 ، ص 91 .

[4] . روز غريب ، النقد الجمالي وأثره في النقد العربي ، دار الفكر العربي ، بيروت ، د ط ، د ت ، ص 5 .

[5] . أحمد محمود خليل ، في النقد الجمالي رؤية في الشعر الجاهلي ، ص 69 .

[6] . علي عبد الحليم محمود ، التربية الجماليّة الإسلاميّة ، ص 19 .

[7] . الميداني ، البلاغة العربية أسسها علومها وفنونها ، 1 / 25 .

تستحسن اليوم ما مجّته بالأمس ، وتمجّ ما كانت قد استحسنته ، خاصّة إذا كان مفهوم هذه الأشياء متشعّبا فضفاضا مثل مصطلح (الجمال) . لذلك فقد " ظل تفسير الظاهرة الجماليّة مع كثرة ما كتب عنها من دراسات قديما وحديثا مثار تساؤل وسوف تظلّ كذلك إلى أمَدٍ غير محدود"[1] .

ورغم هذه الذاتيّة،فإنّ الجانب الموضوعي لا يمكن أن يَغِيبَ في الحكم على الأشياء. فالجمال حقيقة موضوعيّة متناسقة توجد في بيئة معيّنة ، وتدرك في ظروف نفسيّة خاصّة تثير الشّعور بالرضا والانشراح [2]. فإحساس الإنسان به شيء فطريّ، ويرجع إلى طبيعة الشخص وقدرته على التّذوق من جهة، وصفاتِ الشّيء ومؤهّلاتِه الجماليّة من جهة أخرى." فقدْ ينصبّ على جمال الشّيء ذاته فيكون موضوعيًّا، وقد ينصبّ على الشّعور الممتَدّ فيُعدّ ذاتيًّا " [3].

ومِن ثمّ فالحُكم الجماليّ ذاتيّ وموضوعيّ؛ فتذوّق الجمال، وتقديره يتأثّر بعوامل عدّة ، من أهمّها العامل النّفسيّ ، ومدى قدرة الشّخصِ وتجربته في التذوّق ، بالإضافة إلى ما تلعبه جملةُ العواملِ الموضوعيّة المحيطة بالفرد سواء المجتمع أو العصر أو المعتقد من دور رئيس وهامّ في هذا المجال . والجمال لذة إيجابيّة نابعة من طبيعة الشّيء الذي يُضفي عليه الإنسان وجودا موضوعيًّا [4]. ولعلّ هذا كلّه يناسبه القول:" بموضوعيّة الجمال المطلقة، وبِنِسْبِيّة التّلَقّي أو الأذواق"[5]. يقول أحدهم:" للشّيء الجميل قيمة ذاتيّة مجرّدة، وقيمة موضوعيّة ناتجة عن اعتبارات وعوامل شتّى تؤثّر في حكمنا عليه فترفع من قيمته الذاتيّة أو تخفضها. وهذه العوامل هي ذوق العصر واللّون المحلّي والذّكريات السّابقة في الذّهن ثم أثر المحيط والحالة النفسيّة والاعتبارات النّفعيّة عند مُعايِنِ الجمال"[6]. كما أنّ الذاتيّة في النّص الأدبي تتعلّق بأسلوب

---

[1] . محمد المبارك ، استقبال النص عند العرب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 ، 1999 ، ص 50 .

[2] . ينظر : كريب رمضان ، فلسفة الجمال في النقد الأدبي، مصطفى ناصف نموذجا ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، د ط ، 2009 ، ص 25 .

[3] . الأسس الجماليّة في النقد العربي ، ص57 .

[4] . ينظر: هديل بسام زكارنة ، المدخل في علم الجمال، إهداءات 1998، المعهد الدبلوماسي الأردني ، الأردن ، ص9، 10. علي عبد الحليم محمود ، التربية الجمالية الإسلامية ، ص 22 .

[5] . الأب جبرائيل ربّاط ، بحث في الجمال والفن ، دراسة وتحليل : سعد الدين كليب ، دار المركز الثقافي ، دمشق ، دمشق ، ط1 ، 2007 ، ص 46 .

[6] . روز غريب ، النقد الجمالي وأثره في النقد العربي ، ص 43 .

المؤلّفِ واختياراتِه الفِكريّة، والمَوْضوعيّة تتعلّقُ بالطبيعة اللّغويّة للمَكْتُوب[1]. هذه العناصرُ والجوانبُ كلُّها، وخاصّة الجانب الذاتيّ منها جعلت من الجمال ظاهرةً معقّدةً، وجعلت ـ أيضا ـ المفكرين يختلفون في تعريفهم للجمال، وتحديد مواصفاته .

والجمال لا يخصّ شيئا معيّنا ، بل يشمل كلّ ميادين الحياة ، وأحوال الواقع ومظاهر الطبيعة التي أبدعها الله ـ تعالى ـ وهو موجود في كلّ ما خلق الله ؛ في الطبيعة ، في الحديقة، في الإنسان، في الحيوان، في الصّناعة، في الخياطة، في الرياضة، في فنّ التعبير... وفي كلّ شيء . لذلك فلِلْجمال أهميّة كبرى في حياتنا ، يصادفنا أينما اتّجهنا. ولعلّ هذا ما جعل (جان ماري جويو) يُعرِّف الجمالَ بأنّه الحياة [2].

ولعلّ أبرزَ ما يظهر الجمالُ في الفنِّ؛ فهذا الأخير هو "جملة الوسائل التي يسْتعملها الإنسان لإثارة المشاعر والعواطف، وبخاصّة عاطفة الجمال كالتّصْوير والموسيقى والشّعر"[3]، والتّأثير في الإنْسان. وهُمَا متّصلان متداخلان منْذ القِدَم وبيْنهما علاقةٌ وطيدة. لأنّ الفنّ في الأصل تجربة إنسانيّة؛ منْها وإليْها، والجمال جزْء منْها ومُتَجَلٍّ فيها .

ومن ثمّ للفنّ دورٌ كبيرٌ في إظهار الجمال والكشف عن قيمته. يقول شارل لالو:"وليس مغيب الشّمس جميلا إلاّ عند الذي ينظر إليه بعيْنَيْ فنّان"[4]. فالفنّ هو المنظار الذي ننظر من خلاله إلى الجمال، والمِسْبار الذي نتعرّف به على درجة هذا الجمال ونِسْبتِه ، والأرضُ التي نُجسّده فيها ، إذ " ليس للطبيعة قيمة جماليّة إلّا عندما ينظر إليها من خلال فنّ من الفنون"[5]. لذلك نجد الجمال في الفنّ المعماريّ، في النّحت، في الرّسم، في الخطّ، في الموسيقى، في الصّوت ، في الحركات الرياضيّة ، في الأدب ... وبناء على ذلك يمكن أنْ تُعَرَّفَ الجماليّة بأنّها " علم الفنّ أو فلسفة الفنّ "[6].

---

[1] . ينظر: محمد سالم الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، بحث في بلاغة النقد المعاصر ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، ط1 ، 2008 ، ص 64 .

[2] . الأب جبرائيل ربّاط ، بحث في الجمال والفنّ ، ص 48.

[3] . ينظر: إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر، محمد النجار، المعجم الوسيط بالقاهرة ، مجمع اللّغة العربيّة ، دار الدّعوة ، د ط ، د ت ، مادة (فنّ) ، 2 / 703 .

[4] . شارل لالو ، مبادئ علم الجمال ، ترجمة خليل شطا ، دار دمشق ، دمشق ، دط ، 1982 ، ص5 .

[5] . المرجع نفســه ، ص 6 .

[6] . علي عبد الحليم محمود ، التربية الجماليّة الإسلاميّة ، ص 18 .

من المصطلحات التي انبثقت عن (علم الجمال) ـ أيضا ـ (علم الجمال الأدبي)؛ فإذا كان بين الجمال والفنّ اتّصالٌ وتداخلٌ، فإنّ هذا التّداخل يظهر أكثر في الأدب ؛ فأبرزُ ما يظهر هذا الجمالُ في التّعبير الأدبي، فهو" يتَجَسَّد في الفنون الجميلة ابتداء من الكلام أدبا وشعرا ومرورا بالموسيقى، والرّسم والنّحت، وسائر الفنون الجميلة "[1]. ذلك لأن الجمالَ أحدُ العناصر التي يقوم عليها الأدبُ . والكتابة الأدبيّة هي بناء وتشكيل وتعبير لُغَوِيّ جميلٌ[2]، حتى أنّ الأدب في أبسط تعريفاته هو التّعبير الجميل عن التّجربة الإنسانيّة [3] . حيث يُعبّر الأديب بأدواتٍ جماليّةٍ وعناصرَ فنيّةٍ يُشكّلها بِلُغَتِه التي أساسُها الأصْواتُ والألفاظ ، فتهزّ النّفْسَ وتُطْرِبُها ، وتُشْعِرُها بِلذَّة تَسْري في عُروقِها .

ومن ثم" فالأدب هو الحقل الفكريّ الذي تُغْرَس فيه الكلماتُ طمَعًا في ثمرة التّأثير الوِجْدانيّ ، وهو يتّخِذ من الكلمة الوسيلة الجماليّة "[4]. وعلى هذا الأساس لا يكون أدبًا كاملا إذا لم يَكنْ جميلا، وإذا لم يهزّ النّفْسَ ويُطْرِبها و يَجْذِبُها ويُثِير ارتيَاحَها وإعْجابها فَتَتَأثّر به وتَتَجَاوَب معه ، ويُحَقّق الغايةَ . " فعلم الجمال الأدبي" هو علم يَهْتَمّ بالظاهرة الأدبيّة بمختلف أنواعها ؛ من حيثُ مفْهومُها وتحديدُ معاييرها ، وعناصرها ، وما يَبْذله الأديبُ فيها من جهد فنيّ . وهو بذلك يَرْصُد عناصِرَ الجمال في العمل الفنّي والتي يُشكّلُها الأديبُ بلغته الفنيّة الجماليّة .

وللجماليّة في الأدب أسماء مختلفة ، يقول علي جواد الطاهر:" لدينا ثلاث كلمات أو أربع هي: شكْليّ، فنيّ، جماليّ، أسلوبيّ، صارت مصطلحات للدّلالة على إضفاء الأهميّة في النصّ الأدبيّ على الجانب الشّكليّ الخارجيّ وتهوين أهميّة المحتوى"[5]. إضافة إلى مصطلحات أخرى مثل:الإحساس بالجمال،الخبرة الجماليّة ، الموقف الجماليّ ... وكلّها تَدخُل في إطار"التّجربة الجماليّة التي تفترض الاستغراق النفسيّ والذّهنيّ في الموضوع"[6]، وتعبّر عن مدى قيمة العمل الأدبيّ بتوفّر العناصر والأدوات الفنيّة فيه ، وتجاوب المتلقيّ معه ، وتأثيره فيه ، وإحساسه بالانشراح والجمال لحظة قراءته . ومنهم من فضّل استعمال مصطلح (اللحظة الجماليّة)

---

[1] . المرجع نفسه ، ص 69 .

[2] . ينظر : أحمد يوسوف ، جماليات المفردة القرآنية ، دار المكتبي ، دمشق ، ط 2 ، 1999، ص 26 .

[3] . ينظر: سيد قطب، في النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، دار الشروق، القاهرة ، بيروت ، ط 6 ، 1990، ص9 وما بعدها .

[4] . جماليات المفردة القرآنيّة ، ص 25 .

[5] . علي جواد الطاهر، مقدمة في النقد الأدبي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ط1 ، 1979 ، ص 435 .

[6] . الأب جبرائيل ربّاط ، بحث في الجمال والفن ، ص 43 .

وعرّفها بقولـه:"هـي الإحسـاس والشّـعور الـذي يعتـري المـرءَ بقيمـة العمـل الفنّـي، فهـي خبـرة بـين الفنّـان والمتلقّـي"[1]، أي مـا ينقلـه الفنّـان عـن طريـق عملـه الفنّـي إلـى المتلقـيّ مـن نشـوة وانشـراح وإحساس بالجمال أثناء معايشة هذا المتلقّي لهذا العمل . ويبقى " الجمال هو المفهوم الأمّ أمام المفاهيم الأخرى فليست سوى تنويع على ذلك المفهوم" [2].

والجماليّة عامة تهتَمّ بالجانب الشّكلي وتَتَعصّب له مقابل التّقليل من المحتوى، فتُهْمل العنَاصرَ الخارجيّة الأخرى وتُبْعِدها عن النّص . وبالتّالي أخرجت الفنّ عن المنفعة والأخلاق، وعن كلّ قيمة عمليّة . فهي ترى أنّ قيمة الأدب لا تكمن في مضمونه، بل في كيفيّة تعبير صاحبه عن هذا المضمون، وفي تذوّقه من متلقّيه . فالمُهمّ عندها هو الصّياغة، لا الموضوع. لذلك فالجماليّة ـ عموما ـ " تتنكر القيمة التّاريخيّة والاجتماعيّة والنفسيّة والخلقيّة والدينيّة والفلسفيّة للعمل الأدبي، لأنّها لا تؤمن بأيّة جدوى من ورائها فليس للشّعر غاية أخلاقية أو تعليميّة، وإنّما هو ينظر فقط إلى الجانب الجمالي"[3]. الذي هو غاية الجماليّ وهدفه الذي يسعى إليه بتحديد عناصر الجمال في العمل الفنّي. وذلك من أجل اللّذة والمتعة .

هذا الجانب الجمالي تمثّله اللغة التي هي الوسيط بين المرسل والمرسل إليه، واللغة بعناصرها الجماليّة المختلفة من صوت ومفردة وتركيب وغيرها هي المشكّلة للنص الأدبي .

ومن جهة أخرى، فقدْ تحدّث العرب القدماء عن مفهوم الجماليّة في الأدب رغم أنّهم لم يذكروا المصطلح صراحة، فقد عُرفوا باهتمامهم بالشّعر وجماليّاته التي تأثّروا بها واهتزّوا لها، فتلمّسوا السّمات الجماليّة فيه؛ فتحدّثوا عن شروط اللفظة الفصيحة والكلام الفصيح ، وشروط التّركيب السّليم، وتحدّثوا عن الوحدة والتّلاؤم والانسجام والإيقاع، وعن التّحسين والتّزيين وعذوبة اللّفظ وغيرها. من ذلك أنّهم تحدّثوا عن المحسّنات البديعية معرّفين البديع بقولهم : "هو عِلْمٌ يُعْرَف به وجوهُ تحسين الكلام"[4]. من ذلك فقد أرْجَعَ القَاضي الجرجاني (ت 392هـ) حُسْنَ وجمالَ النّص الأدبي إلى تناسق أصواته وكلماته وتراكيبه، وانتظامها، حيث يقول: " وأنْت قد تَرَى الصُّورةَ تسْتَكْمِل شرائطَ الحُسْن ، وتَسْتَوْفي أوْصَاف الكمالِ ، وتذهب في الأنفس كلّ مَذْهَب، وتَقِفُ من التّمام بكلّ طريق، ثم تجد أخرى دونها في انتظام المحاسن، والتئامِ الخِلْقة،

[1] . جمال مقابلة ، اللحظة الجماليّة محاولة فهم نقدية ، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، العدد: 1 ، المجلد : 35 ، يوليو ، سبتمبر 2006 ، ص 8 .

[2] . الأب جبرائيل ربّاط ، بحث في الجمال والفن ، ص 40 .

[3] . الأسس الجمالية في النقد العربي ، ص 392 .

[4] . القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ص 288 .

وتَنَاصُفِ الأجزاءِ، وتَقَابُلِ الأقْسَام، وهي أَحْظَى بالحَلَاوة، وأدْنَى إلى القبول، وأعْلقُ بالنّفس، وأسْرَعُ ممازَجَةً للقلب، ثمّ لا تعلم ــ وإنْ قاسيتَ واعتبَرْت ونظرتَ وفكّرْتَ ــ لهذه المزيّة سببا "[1].

هذه الأمور وغيرها تُوحي بإدراك العربِ للجمال في العمل الأدبي ، وتوحي بأنّ لهُم تجربة وذوقا جماليَيْن .

ونحن هنا لا نريد أنّ نؤرّخ للجمال والجماليّة ولأعلامهما بِوَصْفِهما مذهبًا أدبيًّا مُعَيّنا يستند إلى رؤية فلسفيّة ، بِقَدْرِ ما نُريد أنْ نَبْحَث عن الجماليّة ، بِوَصْفها مصطلحا فنيّا يَدُلّ على خُصُوصِيّة طريقةِ الأداءِ في النّص الأدبي[2] . فالجماليّة تُعَدّ " مَنْهَجًا تحليليًّا نقديًّا لدراسة البنْيَة اللّغويّة والأسلوبية وما تؤسّسه من دلائِلَ ووظائِفَ وأهداف لأنّ النّص الإبداعي أيّا كان جنسه ، يُؤكّد خصائصه باتجاهين : الشّكل والمضمون ، ولا فصل بينهما ... ممّا يحقّق للنّص صورته الإيجابيّة الفعّالة ، ومن ثمّ يُجسّد حقيقة الجمال بكلّ خصائصها الدّلاليّة ، لأنّ للكلام جسَدا وروحا ، وكذا لكلّ جسمٍ جوْهَر وحقيقة " [3]، فنبحث عن مواطنها في التّشكيل اللّغوي للقرآن الكريم باعتباره نَصًّا لُغَوِيًّا ، وباعتبارها صيَاغَة لُغَوِيَّة . ذلك لأنّ لها مُرْتَكزَات تعتَمِد عليها، وعناصر تتجلّى فيها ، باستخدام أدوات التّعبير اللّغويّ ابتداءً بالصّوت ومُرورا باللّفظة والتّركيب ، وانتهاءً بالنّص كاملا ... وطرق صياغَتِها ؛ من تَرْتيب لهذه الأصْوات وتركيب لهذه الألفاظ والجمل، وانتظامها وتوازنها وتقابل دلالاتها في النّص القرآني وتماسكه ، وتلاؤم هذا كلّه مع معانيها ... ولعلّ أساسها جميعا هو السّياق ، لأنّه هو الذي يَتَحَكّم في التّعبير وفي آلياتِه، وهو الذي من خلاله تتكوّن البنيات اللّغويّة وتَتَشابَك العَلاقاتُ ، والتي على أسَاسِها تظهر الجماليّة . يقول محمود سليمان ياقوت : " يُعدّ السياق context أسَاسَ عِلْمِ الجمال التّركيبي ، ونَعْني به هَاهُنا الأصْوات والأبنية الصّرفيّة والتّراكيب النّحويّة التي تَلْتَحِم فِيَما بيْنَها لتكَوِّن سِيَاقا لُغَوِيًّا، نستطيع أنْ نَحْكم عليه بالجوْدَة أو الرّدَاءة حسْب معَايير نقْدِيّة مُعَيّنَة "[4].

وفي العصر الحديث اهْتمّ النّقاد اهتماما كبيرا بالعناصر التي تحقّق الجمال في الأدب، وتُمَيّز بين الجميل والقبيح ، وذلك من خلال تحديد وظيفتِه وقيمتِه وجمالياتِه ، وكيْفيَّة تأثيره في

---

[1] . القاضي علي الجرجاني ، الوَسَاطة بين المتنبي وخُصَومِه ، تحقيق وشرح : محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، د ط ، د ت ، ص 412 .

[2] . ينظر: صالح ملا عزيز، جماليات الإشارة النفسيّة في الخطاب القرآني ، دار الزمان ، دمشق ، ط1 ، 2010 ، ص23 .

[3] . حسين جمعة ، جمالية الخبر والإنشاء، (دراسة بلاغية جمالية نقدية) اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2005 ، ص19.

[4] . محمود سليمان ياقوت ، علم الجمال اللغوي المعاني البيان البديع (1) ، دار المعرفة الجامعية ، قناة السويس ، د ط ، 1995، ص 299.

المتلقّي؛ فتَنَاوَلوها بالدّراسة والتّحليلِ ، حتى أصبح الجمال اتّجاهًا في النّقد الأدبي العربي الحديث . " فقد بَلْوَرَ المفْهومُ الجمَاليّ وظيفةَ الأدبِ وقرّر قِيَمَتَها المحسوسَةَ ، لما يتركه لفظ (جمال) في النّفوس من إيحاءات فنيّة وفكريّة وفلسفيّة وأخلاقيّة عديدة "[1].

2 ـ القرآن الكريم والجماليّة : إذا كان الجمَالُ موْجُودا منذ أنْ ظهَر الإنسان في هذا الوُجود، و تَذَوُّقُه شيْئا فطريّا فيه، فإنّ الإسلام أحْدَثَ ثورةً عامّة في المفاهيم والأفكار والنّظرة إلى الأشياء، فكان منها النّظرة إلى الجمال وإدراكه ، وتهذيب الذّوْق وصَقْل الطباع . يقول أحدهم: " إنّ الإسلام الذي غيّر على المستوى الاجتماعي والسّياسي والفكري إيقاع الحياة غيّر على المستوى الفنّي إيقاعات التّعبير والخطاب الأدبي ووضعنا أمام معجزة في الإبداع المتولّد والمتجدّد"[2]. من ذلك أنّ القرآن الكريم اهتَمّ كثيرا بالجمال بمختلف أنواعه ، ودعا إليه ، ورغّب فيه ، وعَبَّر به ووظّفه في تشكيله اللّغَوِيّ ، وجَعَلَه من وسائله وأَوْلَوِيَّاتِه التي اعتمدها في التّبْليغ والإقْنَاع . فقدْ تجلّت فيه اللّغة في أرْقَى دَرَجَاتِهَا ، والجمال في أعْلَى مقاماتِه، " فلَم يَكُن الوَحْيُ الإلَهِي إلاَّ دَعْوَة لِلْعَقْل لإدْراك مَاهِية الجمال في النّص القرآني"[3].

وفي القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ تَتَحَدَّث عن الجمال وأنْواعِه وجمالِ خَلْقِه، وكونِه عامَّة. وقدْ وَرَدَ لفْظُ الجمَالِ ومُشْتَقَّاته وبمعْنَاه في الكثير من الآيات .

من ذلك أنَّه خلَقَ الإنْسان و جَعَلَه في صُورَة حَسَنَة ، يقول تعالى : ﴿ **خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ** ﴾ التغابن3 . ومِنْه أيْضا أنه زَيَّن السّمَاء ، حيث يقول تعالى:﴿ **وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ** ﴾الملك5. وفي حديثه عن فوائد الأنْعَام التي خَلَقَها يقول:﴿**فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ** ﴾ النحل6. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في معاني الحُسْنِ والجَمَال .

كما اشْتَمَل القرآنُ الكريم أيْضا على ألفاظٍ كثيرةٍ لها علاقةٌ بهذه المعَاني، أمْثَال: حِلْيَة، بَهْجَة، الطَّيِّبَات، ناضِرة، تَسُرُّ النَّاظِرين، حَسُنَت مُسْتَقَرًّا، أحْسَن الحَدِيث ... ومنه الحديثُ النبويّ الشريف **(إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ)**[4]. " لقَدْ كان التَطَوُّر الذي أحْدَثَه الإسْلام في حياة

---

[1] . محمد المبارك ، استقبال النص عند العرب ، ص 47 .

[2] . عبد الفتاح روّاس قلعه جي، مدخل إلى علم الجمال الإسلامي ، دار قتيبة ، بيروت ، دمشق ، ط1 ،1991 ، ص 120.

[3] . حسين جمعة ، التقابل الجمالي في النص القرآني ، منشورات دار نمير ، دمشق ، ط1 ، 2005 ، ص 13 .

[4] . أحمد بن علي العسقلاني ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ترقيمُ كتبِه وأبوابِه وأحاديثِه: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار المعرفة ، بيروت ، د ط ، 1379هـ ، 10 / 260 .

النّاس وأفكارهم جِذْرِيًّا والمعجزة القرآنيّة الرَّائعة لم تَضَعْ البَشَريَّة أمَام موْضُوعٍ كبيرٍ، وتَصَوُّر جَدِيد، وطرائق موضوعيّة في التّفْكير فحَسْب ، وإنّما وضَعَتْهُم أمَامَ وَعْيٍ جمَالي جدِيد يَجِد تجَلِّيَاتِه في الفِكْر واللُّغَة والسُّلُوك والفنِّ والعِمَارة " [1].

ورغْم أنّ المفاهيم النّقديّة تَعْتَبِر الجماليَّة لا تقصد أغراَضا أخْلاقيَّة أو اجتِمَاعيَّة أو غيرها، إلّا أنْ اللهَ ــ سبْحانَه وتَعَالى ــ جَعَل مِنَ الجمَال وسِيلة للْإيمان به، وللْإقرار بِرُبُوبِيَتِه، فكان كَوْنُهُ غايَةً في الصُّنْع والإبْدَاع والجمَال، ومثَارًا لِلْإعْجَاب ، ومَصْدَرا لِلتَّأمّل . واتّخَذَ مِن الجمَاليّة القرآنيّة وَسِيلَةً لِلتّذَوُّق الجَمَالي، وَوَسِيلةً لِلتَّأْثير والإقْنَاع، ولِلْعمَل الحَسَنِ . يقول تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ الكهف7. فَهُوَ على الرغم من أنّه كِتَابُ دين وهِدَايَةٍ وعِلْمٍ، إلا أنّه " لم تُؤَثّرْ فيه عِلْمِيَّتُه في أنْ يَبْقَى مِنْها بَلاغِيًّا، ونَصًّا أدَبِيًّا رَاقِيًا"[2].

فَمِنَ العوامِل التي تَأثّرت بها التّجْرِبَةُ الجماليّةُ عنْد العَرب " الحَدَثُ القرآني منْ حيث أنّ المعْجزةَ فيه بَيَانيِّةٌ، وفي كُتُبِ السّيرَة والفِقْه والأدَبِ أخْبَارٌ كثيرةٌ يَتَرَاوَاهَا القُدمَاءُ لإقَامَة البُرْهان على أنّ لِلْقرآن مَفْعولَ السّحر في النّفُوس" [3]. فالقرآن الكريم كِتابُ دعْوة دِينيّة أنْزَله اللهُ ــ سبْحانه وتَعَالى ــ في بيئَة عرَبيّة معْرُوفَة بالفَصاحَة لهِدايَة البَشَرِيّة جمْعاء . ومن ثم استغلّ اللّغةَ نفْسَها وما تتَوفّر عليه من طاقاتٍ جماليّة لِيُبْهِر بها مُخاطِبِيه ويُقْنِعَهم بِمَصْدَر رسالَتِه وبِصِدْق صاحِبها، فتجلّت فيه اللّغة العربيّة في أرْقَى دَرَجاتِها. فهذه الأخيرة " ليْست أدَاة أو وسيلة للتّخاطُب والتّفاهُم والتّواصُل فَحَسْب ، وإنّما اللّغة وسِيلُتنا للتّأثير في العالم وتَغْيير السّلوك الإنْسَاني مِنْ خِلال مَوَاقِف"[4] .

ولِبُلُوغ غايته وتحقيق هدَفِه وظّفَ مُخْتَلِف وسائِل التّأثير والإقناع ، ومختلف العناصر الجماليّة ، حتى " غدا المصدر الذي تقتدي به الأقلام في ماهِيَة الجمال وطبيعته"[5]. فهو مُشَكّلٌ من الحروف العربيّة التي يستعملها العرب ، ويعتمد لغةَ العرَب وأسَاليبِهم في الكِتَابَة ، لكنّه

---

[1] . عبد الفتاح روّاس قلعه جي ، مدخل إلى علم الجمال الإسلامي ، ص 23 .

[2] . أحمد يوسوف ، جماليات المفردة القرآنية ، ص 27 .

[3] . حسين الواد ، المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب (تلقي القدماء لشعره) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 2 ، 2004 ، ص 298 .

[4] . أوستين ، نظرية أفعال الكلام العامة ، كيف ننجز الأشياء بالكلام ، ترجمة: عبد القادر قينيني، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، 1991 ، دط ، ص6 .

[5] . حسين جمعة ، التقابل الجمالي في النص القرآني ، ص 56 .

يختلف عنهم في كيفيّة توظيفها ، فإذا كان " نصًّا فهو لا يختلف في جوهره ـ رغْمَ كونه إلهيّا ـ عن سَائِر النّصوص إلّا بما لَهُ من مِيزَات بيانيّة وسِمَات بَلاغيّة جَعَلَتْه مُعجِزا لا يُحَاكَى"[1]، وجعَلَتْ جمالَه لا يُضاهِيه جمَالٌ .

وهكذا هذّب القرآن الكريم الذَّوْق الأدبي الفنّي العربي، وغيّر النّظرَةَ إلى الجمال ونبّه إلى مظاهِرِه في الكَوْن ، وعرّف أنّ الطبيعة تتجلّى فيها عظمةُ خالقِها ومُتْقِنِها. "وهو بذلك أحْدَثَ ثوْرَةً فنّيّة على معظم التّعابير التي ابْتَدَعها العربي ليَخْلق تشكِيلا فنّيًّا خاصًّا متَنَاسِق المقاطع، تطمئن إليه الأسماع ، وينفذ إلى الأفئدة بسهولة ويُسْر"[2] .

ولم تكن الجماليّة القرآنيّة مثارَ اهتمام وإعجاب الدّراسات العربيّة فحسب ، بل أُعْجبت بها الدّراسات الغربية أيضا ، من ذلك يقول إيتان سوريو : " ويؤلّف القرآن مجموعةَ الآيات التي تحدّد الدّيانة الإسلاميّة ، والتي تعتبر قيمتها الجماليّة ، من حيْث مناخها الغنائي العامّ، وإيقاعها الموسيقي المؤثّر في صُلْب النّشاط الثّقافي" [3].

وإذا كان جمال القرآن الكريم قد اتّفق عليه العلماء في كلّ العصور، فإنّ مصدر هذا الجمال قد اختلفوا فيه ؛ فمنْهم من أرْجعَه إلى اللّفظ فالتمسه في التّعبير والصّياغة وحلاوة الجرس وعذوبته والإيقاع والتناسب الصّوتي، ومنْهم من أرجَعَه إلى المعنى فالتمسها في النّظم وأحوال التّركيب ... وهو ما نتج عنه خصومة بين هذين الفريقين حول قضيّة اللفظ والمعنى[4]. وهي في مجملها نظرات جزئيّة ليست شاملة ، كونها تهتمّ بجانب دون آخر، أو تغلّب واحدا على آخر، في حين أنّ اللّغة مبْنى ومعنى يتضافران لتحقيق التواصل والتبليغ والتأثير، وشكْل ومضمون ، " وهما كالجسد والروح يتكاملان في الوظائف الجماليّة من أجل غاية الإمتاع "[5].

والقرآن الكريم قمّة اللّغة ، وقمّة الأساليب . والجمال لا يكون في اللّفظ والشّكل فحسب ، بل يكون أيضا في المعنى والمحتوى ، " فاللّغة العربيّة تكون أكثر جمالا حين تصبح لغة قضيّة وفكر، لغة إشعاع وتنوير، لغة مُثُل عُلْيا وقِيَم رفيعة نبيلة ، عندئذ يكتَمِل جمـــال المعنى

---

[1] . محمود المصفار ، سيميائية القرآن بين الحجاج والإعجاز ، شركة منى ، صفاقص ، تونس ، د ط ، د ت ، ص 15 .

[2] . جمال مباركي ، التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، دار هومة ، إصدارات إبداع للثقافة ، الجزائر ، 2003 ، ص 152 .

[3] . إيتان سوريو، الجماليّة عبر العصور ترجمة ميشال عاصي ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط1 ، 1974 ، ص 172 .

[4] . ينظر: أحمد أبو زيد ، التناسب البياني في القرآن ، ص 240 إلى 246 .

[5] . حسين جمعة ، التقابل الجمالي ، ص 13 .

والمبنى"[1] ، فيتلاءم الشّكل مع المحتوى ويتناسب ، وهو ما راعَاه القرآن الكريم ، وجسّده . " فالجمال القرآني متكامِلٌ من حيث الانسجام بين الشّكل والمضمون فيه، وهو لا يقدّم شكلا فارغا، بل إنّ ما فيه مُسَخَّر في نهايَة الأمْر لِرَفْع مسْتوى الوَعْي الجمالي، ومِن ثمّ لتحقيق الهِدايَة، ومَنْ يقرأ آياته يُدرِك أنّ الشّكْل يحتوي المضمون ويتّحِد به، وبحيث لا ينفصمان، وما الإعجاز البَيَاني إلا الشّكل الرّاقي لدَعوة البشر إلى الحقّ "[2]. فجمع بين التناسق والانسجام اللّفظي والمعنويّ ، بكلّ عناصرهما وجمالياتهما .

ولعّلّ هذا ما عبّر عنْه سيّد قطب حين أطلق اسم (التناسق الفني) الذي جمع التّنسيق في تأليف العبارات بِتَخَيّر الألفاظ ثم نظمها في نسق خاصّ ، يبلغ في الفصاحة أرْقى درجاتها ، وفي الإيقاع الموسيقي ، وفي النّكت البلاغية المختلفة كالتناسب الدّقيق في تعقيباته، وألفاظه مع سياقاتها ، والتّسلسل المعْنَوِي بين أغراضه في هذه السّياقات ، مع التناسب في الانتقال من غرض إلى غرض ، والتدرّج في الموضوعات والخطوات النفسيّة والتّناسق النفسيّ بينهما ، وفي انسجام الموضوعات مع الغرض الديني والمظهر الفنّي ، وفي المقابلات الدقيقة بين الصّور[3]. فالنّاحية الجمالية عند بعضهم إحْدى الثلاث الزوايا ـ إلى جانب العقائدية والمعرفية ـ الرئيسة في إعجاز القرآن الكريم [4]. والجماليّة في العمل الفنّي لا تتحدّد ولا تكتمل إلا بانسجام الشّكل مع المضمون ، وتكاملهما . و لعلّ أساس هذا الشّكل الراقي ، و هذه الجمالية هو الإيقاع؛" إذ إنه ليْس عُنصرا دالاً على جمالية النّص ، بل أصبح النّص الجميل ذاته "[5] . ولعلّ هذا الذي جعل بعضَهم يعتبر الإيقاع ضِلْعًا من أضْلاع البلاغة [6].

---

[1] . عيد سعد يونس ، التصوير الجمالي في القرآن الكريم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط1 ، 2006 ، ص 69 .

[2] . أحمد يوسوف ، جماليات المفردة القرآنية ، ص 18 ، 19 .

[3] . ينظر: سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن الكريم ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط8 ، 1983، ص87 وما بعدها.

[4] . ينظر: محمود المصفار ، سيميائية القرآن بين الحجاج والإعجاز، ص 86 .

[5] . سلامي العماري ، الإعجاز البياني والحداثة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، سوسة ، 2007 ، ص 56 .

[6] . ينظر: منير سلطان ، الإيقاع في شعر شوقي الغنائي الجملة والخصائص ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، د ط ، د ت ، ص 173 .

ثالثا: الدلاليـّة .

1 ـ تعريف الدلالة :

الدّلالة لغة من دلّ يدلّ دلالة، فنقول: أدللت الطريق، أي اهتديت إليه[1]. ودلّه على الشّيء يدلُّه دلّا فاندلّ: سدّده إليه ... والدّليل ما يُستدلّ به، والدّليل الدّال[2]. دلّ عليه وإليه، أرشد. ويقال دلّه على الطريق ونحوه ، سدّده إليه [3] .

ومنه فالدّلالة تعني الاهتداء والتّسديد والإرشاد إلى الشيء .

أما اصطلاحا فقدْ عرّفها الراغب الأصفهاني (ت 502هـ) بقوله: " ما يُتوصّل به إلى معرفة الشّيء كدلالة الألفاظ على المعنى ودلالة الإشارات والرموز، والكتابة ، والعقود في الحساب ، وسواء كان ذلك بقصد ممّن يجعله دلالة ، أو لم يكن بقصد ، كمَنْ يرى حركة إنسان فيعلم أنه حيّ"[4]. وعرّفها الشريف الجرجاني (ت816هـ) بقوله :" كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأوّل هو الدّال ، والثاني المدلول"[5].

وهما تعريفان شمِلا أنواع الدلالات؛ اللّغويّة وغير اللّغويّة ، وتظهر علاقتُهما بالمعنى اللّغويّ في الإرشاد إلى الأشياء وتبيينها؛ فهناك دالّ ومُرشِد ومُبيِّن، وهناك مدلول ومُرشَد إليه ومُبيَّن . من ذلك أنّ اللّفظ يُرشد إلى معناه ويبيّنه ، كما أنّ السّهم يُرشد إلى اتجاه السّير. ومن ثمّ فالدّلالة اللّغويّة هي دلالة اللّفظ على معناه ، وهو ما يُسَمّى في الدّرس اللساني الحديث الدّال(signifiant) والمدلول (signifié)، وهما تسْمِيَتَا دي سوسير."وإذا كانت اللسانيات في اعتبار اللسانيين المعاصرين تهتمّ بنظام دلالي خاصّ هو النظام اللغوي فإنّ العلم الذي يبحث في كل النظم الدلاليّة الأخرى غير اللغويّة فهو علم الأدلّة أو السّيمياء"[6].

2 ـ لمحة عامة عن الدلالة والمعنى :

---

[1] . الزمخشري، أساس البلاغة ، تح : محمد باسل عيون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1998 ، 1 /295 .

[2] . ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (دلل) ، 11 / 248 .

[3] . إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر، محمد النجار، المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، دار الدعوة ، د ط ، د ت ، 1 / 476 .

[4] . الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن، تحقيق : صفوان عدنان الداودي ، دار القلم ، الدار الشاميّة ، دمشق، بيروت ، ط 1 ، 1412هـ ، ص 316 ، 317 .

[5] . الشريف الجرجاني ، التعريفات ، ص 104 .

[6] . خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات ، دار القصبة للنشر، الجزائر، ط2 ، 2006 ، ص 18 .

اهتم العلماء في مختلف العصور وبمختلف تخصّصاتهم بالدّلالة، وذلك باعتبارها علامةً موجودةً منذ أن وُجِد هذا الكون، ولقيمتها وأهميتها في النّظام التّواصلي .

ففي العصر الحديث تناول دي سوسير العلاقة بين اللفظ والمعنى وطبيعة الدّلالة ، حيث يقول : " فالدّليل اللغوي إذن كيان نفساني ذو وجهين ويُسمّى دليلا لغويا المتكوّن من المفهوم والصورة الصوتية ... ولكن نقترح لفظة الدليل للدلالة على الكل واستبدال لفظتي المفهوم والصورة الصّوتيّة بلفظتَيْ الدّال والمدلول "[1].

ومنه فالدّليل اللّغوي" هو ذلك اللفظ الذي يدلّ على شيء أو معنى معيّن وركيزته الماديّة هو الصوت"[2]. فمدلول أي لفظ هو ما ينصرف إليه هذا اللفظ في الذّهن من معنى مدرك محسوس، والتّلازم بين الكلمة ومدلولها أمر لا بدّ منه في اللّغة ليتمّ التّفاهم بين الناس[3]. لأنّ تحقيق الدّلالة يتمّ بهذا التّلازم، وبالرّبط بين الصّورة السّمعية (الدّال) والصّورة الذّهنية(المدلول). ومن ثمّ،" فلا نستطيع اعتبار الكلمة شكلا فقط أو دلالة فقط فهي شكل لمحتوى"[4].

وإذا كان دي سوسير يرى أنّ الدّلالة هي العلاقة بين الدّال والمدلول ، فإنّ الذين جاؤوا بعده " لم يجاروه فيما طرحه من تصوّرات حول المعنى أو الكلمة أو العلامة اللسانيّة ، بل كان لهُم إجماع معْلن على تعديل الإدراك الاثني (دال ومدلول) الذي قدّمه"[5]. من ذلك أنّ بعضهم يرى أن الدّلالة تنتج بالرّبط بين مستويات اللغة ، وتكاملها في ما بينها . فهي ـ حسب بنفينست **(Benviniste)** مثلا ـ قدرة الوحدة اللغويّة على التكامل مع وحدة من مستوى أعلى[6] . وهو ربْط بيْن كلّ مكوّنات اللّغة في مستوياتها اللّسانيّة المختلفة . وقد تخلّص من ارتباط الدّلالة

---

[1] . De saussure Ferdinand cour de linguistique generale editions talantikit bejaia 2002 p 86 ، 87 .

[2] . خولة طالب الإبراهيمي ، مبادئ في اللسانيات ، ص 20 .

[3] . ينظر: محمد حسين آل ياسين ، الأضداد في اللغة ، مطبعة المعارف ، بغداد ، 1974 ، ص 46 .

[4] . محمد الهادي عيّاد ، الكلمة دراسة في اللسانيات المقارنة ، مركز النشر الجامعي، دار سحر للنشر، تونس ، د ط ، 2010، ص 71 .

[5] . عبد الجليل مرتاض ، الدلالة والمعنى لسانيا ، مجلة الممارسات اللغويّة في الجزائر، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو، العدد : 01 ، السنة : 2010 ، ص 122 .

[6] . بنفينست، اللغة والخطاب الأدبي، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1993، ص47.

بالكلمة المفردة ، ووسّعها لتشمل كلّ مكوّنات السلسلة الكلامية من فونيمات، مورفيمات، كلمات، تراكيب، وجمل[1].

وقد قسّم نيدا (nida) أيضا الوحدة الدلاليّة إلى أربعة أقسام رئيسة هي: تركيب، الكلمة المفردة، مورفيم ، صوت مفرد[2]. فالتّركيب يتكوّن من مفردات، وهي تتكوّن من أصوات، وتتكامل المستويات الصّوتية والصّرفية والتّركيبية لإنتاج الدّلالة وتحقيق التّواصل بين الأفراد. فَلِكَيْ يُحدّد الشّخص الحدث الكلامي لا بدّ أن يقوم بملاحظة الجانب الصّوتي، ودراسة التّركيب الصّرفي ، ومراعاة الوظيفة النّحويّة لكلّ كلمة داخل الجملة، إضافة إلى بيان المعنى المعجمي للكلمة [3]. فالصّوت داخل سياقه دالّ، وأيضا المقطع والكلمة والجملة والتركيب والنص... كلّها دوال ." فالأصوات والكلمات والبُنَى التركيبية كلّها تُمثّل الشّكل، في حين أنّ الدّلالة تمثّل الوظيفة التي على عاتقها يقع نقل المعنى" [4].

أما مصطلح علم الدلالة (semantique) فقدْ ظهر في العصر الحديث ، وبالضبط في أواخر القرن التاسع عشر على يد اللّغوي الفرنسي (ميشال بريال Breal) الذي كتب بحثا بعنوان " مقالة في السيمانتيك "(Essai de semantique) سنة 1897. وكان أوّل من استعمل هذا المصطلح ، واعْتُبِر بحثه ثورة في علم اللغة [5].

وكلمة دلالة مشتقّة من الكلمة اليونانية (Sėmaino دلّ على) ، والمتولّدة من الكلمة الأصل (Sėma) أو المعنى[6]. لذلك فقدْ أجمع المحدثون على أنّ (علم الدلالة) هو دراسة المعنى[7]. فعلْم الدّلالة مستوى من مستويات البحث اللّساني الحديث وهي: المستوى الصوتي، المستوى الصّرفي ، المستوى التركيبي. وهو ـ إذن ـ غاية الدّراسات الصّوتيّة والصّرفيّة والنّحويّة وقمّتها[8]. ذلك لأنّ المعنى هو هدف المتكلّم وغايته .

---

[1] . عادل محلو، الصوت والدلالة في شعر الصعاليك ، (تائية الشنفرى أنموذجا) ، مخطوط دكتوراه ، قسم اللغة العربية وآدابها ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الحاج لحضر، باتنة ، 2006 /2007 ، ص 16 .

[2] . ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة ، عالم الكتب، القاهرة ، ط7، 2009 ، ص 22 .

[3] . ينظر: أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، ص 13 ، 14 .

[4] . بيير جيرو، علم الدلالة ، ترجمة : منذر عياشي ، طلاس للدراسات ، ط1 ، 1988 ، ص 21 .

[5] . ينظر : أحمد مختار عمر، علم الدلالة ، ص 22 .

[6] . ينظر: بيير جيرو، علم الدلالة ، ص 16 .

[7] . ينظر: جون لا ينز، علم الدلالة ، ترجمة: مجيد عبد الحليم الماشطة ، حليم حسين فالح ، كاظم حسين باقر، كلية الآداب ، جامعة البصرة ، د ط ، 1980 ، ص9 . أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، ص 11 .

[8] . محمود السعران ، علم اللغة ، مقدمة للقارئ العربي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، د ط ، د ت ، ص261 .

واعْتُبِر بحث (بريال) أوّلَ دراسة علميّة عن المعنى، وحَدّد المصطلح في مجال معيّن لدراسة المعنى. لأن قبل ذلك كانت الدراسات قد أهملت المعنى وأبعدته من علم اللغة، لأنه مشكلة فيه، وأخرجه الدارسون من بحوثهم ، وذلك لصعوبة دراسته وتحديده . من ذلك " فقد كان رأي بلومفيلد أنّ دراسة المعنى أضعف نقطة في الدراسة اللغويّة"[1]، وأكّد على صعوبة الإحاطة بالدلالات اللغويّة لأنّها نتاج حضارة تتدخّل في تحديدها كلّ المعارف[2].

ولعلّ ذلك يرجع إلى كون المعنى مرِنا، غيرَ مضبوط ولا ملموس، ومتغيّرا من زمان إلى زمان، ومن بيئة إلى أخرى . والكلمة الواحدة لها عدّة معان، وتتغيّر دلالاتها من سياق إلى آخر، ومن شخص إلى شخص، ومن صوت إلى آخر. وإذا كانت الألفاظ محدودة فإنّ المعاني غير محدودة ... وتختلف ظروف الكلام الذي قيلت فيه وسياقه، والأحوال النفسيّة للمرسِل والمرسل إليه ... بالتّالي تتدخّل في المعنى عوامل معقّدة ومختلفة ؛ لغويّة وغير لغويّة . يقول أحدهم :" إنّ تعدّد معاني الكلمة الواحدة هو أحد المشاكل الأساسيّة لعلم الدّلالة المعجمي، وهذا يضفي على عمليّة تحديد المعنى صعوبة كبيرة، لأنّه إضافة إلى تعدّد المعاني نجد عناصر غير لغويّة يكون لها دور كبير في تحديد المعنى، وتتمثّل في ما يحيط بالكلمة من ملابسات أو ظروف تتّصل بالمتكلّم أو المخاطب، لذلك رأى بعضهم إخراج دراسة المعنى من الدّراسة اللّغويّة "[3]. وهذا ما يجعل المعنى المعجميّ غيرَ كافٍ ـ أحيانا ـ لتحديد معناها والوقوف على دلالتها الحقيقيّة، لأنّ هذه الأخيرة تتغيّر بتغيّر السياقات .

كلّ هذا جعل العلماء يَرون أنّ نظريّة علم الدّلالة لم تكتمل ، ولم تأخذ مكانها بعد، ولم تصل إلى الدقّة العلميّة المطلوبة ، وأنّ إعدادها لم يأخذ بعد شكلا نهائيّا عند اللّسانيين ، خلافا لنظريّة الفونولوجيا . ومن ثمّ فإعطاء رأي نهائيّ فيها هو من قبيل المجازفة [4].

ورغْم هذه الصّعوبة ، وعدم الدّقة ، فإنّ للمعنى أهميّة كبيرة في التّواصل، " فالقيمة الدّلاليّة للكلمة تكمن في معناها "[5]. لأنّ الكلمة بدون معنى لا تخرج عن كونها أصواتا جوفاء، وقوالب

---

[1] . أحمد مختار عمر، علم الدلالة ، ص24 .

[2] . ينظر: خولة طالب الإبراهيمي ، مبادئ في اللسانيات ، ص119 .

[3] . محمد الهادي عياد ، الكلمة دراسة في اللسانيات المقارنة ، ص176.

[4] . ينظر: منذر عياشي ، الأسلوبية وتحليل الخطاب ، مركز الإنماء الحضاري، حلب ، دار المحبة ، دمشق، د ط ، 2009 ، ص13 ، 14 . عبد الجليل مرتاض ، الدلالة والمعنى لسانيا ، ص121 .

[5] . بيير جيرو ، علم الدلالة ، ص 16 .

جامدة، ولا تكون لها قيمة دلاليّة . " فالمعنى هو الأساس الذي يقوم عليه التّفاهم بين أفراد المجتمع"[1].

ومن جهة أخرى فالمعنى غايةُ كلِّ متكلّم، وكلّ كلام، وغاية المستويات الأخرى ــ كما سبق ــ ، وغايةُ كلِّ دراسةٍ؛ إذْ أنّ " أيّ دراسة للّغة لا بدّ مِن أنْ تسْعى إلى الوقوف على المعنى الذي هو في المآل والنتيجة القصد من إنتاج المتكلّم للسلسلة الكلامية بدْءا من الأصوات وانتهاء بالمعجم، مرورا بالبناء الصّرفي وقواعد التركيب" [2]. بل المعنى غاية كلّ العلوم حتّى غير اللّغوية .

لذلك فقدْ أَوْلى العلماء المعنى اهتماما، وحاولوا توضيح الأسُس والمبادئ التي تنظّمه، فظهرت مناهج ونظريّات في المعنى، حاولت دراسته دراسة علميّة دقيقة. من ذلك نظريّة السّمات المعنويّة التي آمن أصحابها بإمكانيّة تنظيم المستوى الدلاليّ في اللغات البشريّة. ويمثّلها اللغويّ الدانماركي يلمسلاف (Hjelmslev ت 1965) ، والذي انطلق من فكرةٍ مفادُها وجود توازن بين مستوى اللّفظ ومستوى المعنى في اللّغة، أو ما أطلَق عليه التّعبير والمضمون. فمثلما حلّل اللغويّون المستوى اللّفظيّ إلى قطع صغيرة ، يستطيعون تحليل المستوى الدّلالي إلى أنْ يصلوا إلى أصغر القطع التي ما بعدها تحليل[3]. ولعلّ فكرة يلمسلاف هذه هي التي أوْحَتْ إلى جيرولد كاتز (jerrold katz) ، وجيري فودور (jerry fodor) النظريةَ التحليليةَ فيما بعد ؛ حيث قدّما لأوّل مرّة نظريّتَهما في تحديد دلالة الكلمات في مقالهما المشهور : the structure of a semantic theory) . ووَجَدت هذه النظريّة من أثنى عليها، ووُصِفت بأنّها أحسن تجربة لتحليل المعنى إلى مكوّنات صغرى[4].

وإذا كان المعنى "علاقةً متبادلة بين اللّفظ والمدلول؛ علاقة تُمَكِّن كلّ واحد منْهما من استدعاء الآخر"[5]. فإنّ هذه العلاقة تكون ثابتة في المعنى المعجميّ، كونه مجرّدا يضمّه المعجم. ولعلّ ما يُثبِت ذلك قولُ أحدِهم:" أنّ المقصود بالمعنى إذن هو المعنى المعجميّ"[6].

---

[1] . عاطف فاضل محمد ، مقدمة في اللسانيات ، دار المسيرة ، عمان الأردن ، ط1 ، 2011 ، ص 111 .

[2] . أحمد محمد قدور ، مبادئ اللسانيات ، دار الفكر ، دمشق ، ط2 ، 1999 ، ص 280 .

[3] . ينظر: خولة طالب الإبراهيمي ، مبادئ في اللسانيات ، ص 119 وما بعدها . علم الدلالة ، ص 54 وما بعدها .

[4] . ينظر تفاصيل هذه النظرية : أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، ص 114 .

[5] . ستيفن أولمان ، دور الكلمة في اللغة، ترجمة وتقديم وتعليق : كمال بشر ، دار غريب ، ط 12، د ت ، ص 79 .

[6] . محمد الهادي عياد ، الكلمة دراسة في اللسانيات المقارنة ، ص 176 .

ومن ثمّ فالمعنى يُوحي بالثّبات، وما يستدعي التّأويل إنّما هو الدّلالة لحيويّتها وعدم قرارها[1]. لأنّها حركة وتحوّل وتماشٍ مع السّياق. وعليه فإنّ المعنى يُشكّل النّواة الأولى والأساس، والدّلالة تشمل المعنى وما يَحُفُّه و يحيط به، فتُعبّر الكلمة عن دلالتها بِنَاء على أساسها الذي حدّدتْه المعاجم، وهو معناها، مع تلَوُّنها بسياقها وعلاقاتها ببقيّة المفردات . ومن جهة أخرى فمقاصد المتكلّم التي صدر عنها المعنى معطاة بكيفية نهائيّة، أما الدّلالة فما يمنحه كلّ مؤوّلٍ للنّص بحسب مقاصده ؛ فيكون المعنى في هذه الحالة متعلّقا بالمرسِل ، والدّلالة متعلّقة بالمرسَل إليه[2].

ونخلص في الأخير إلى أنّ في التّواصل اللّغويّ رمزا دالاّ وهو اللّفظ ومدلولا هو المعنى، والدّلالة هي الارتباط بينهما. والذي يبحث في علاقة اللّفظ بالمعنى هو علم الدلالة . وأنّ مجالَ الدّلالة اللغويّة هو العلامات اللّغويّة ، والتي تساهم فيها السّلسلة الكلاميّة من أصوات ومقاطع وكلمات وتراكيب وفقرات ... فتكون هذه كلّها أشكالا ودوالا تُسَاهم في الجماليّة وتشارك في إنتاج الدّلالة .

[1] . ينظر: سلوى النجار، جماليّات العلاقات النّحويّة في النص الفنّي ، مطبعة التسفير، صفاقص، ط1، 2006 ، ص159.

[2] . ينظر: عادل محلو، الصوت والدلالة في شعر الصعاليك ، ص 17 ، 18 .

الفصل الأوّل: بلاغة التّقابل وأبعاده في القرآن الكريم

أوّلا:أهميّة التّقابل وأبعاده في القرآن الكريم.

ثانيا :التّقابل والتّماسك النّصي.

ثالثا: بناء السّور على التّقابل.

رابعا: تقابل ثلاثيّ الأطراف.

جاء الدين الإسلامي لإصلاح حال البشرية جمعاء، والرقيّ بها إلى المنازل العليا، وتحقيق سعادة الدنيا والآخرة لها، لذلك فقدْ جعل الإنسان محْور إصلاحه وتربيته في كلّ النواحي. ولتحقيق هذا الهدف والوصول إلى هذه الغاية تَضَمّن محاور خمسة ـ كما يرى العلماء ـ هي: الله الواحد، الكون الدال على خالقه، القصص القرآني، البعث والجزاء، ميدان التربية والتشريع، وهي أمهات لمسائل أخرى كثيرة تندرج تحتها[1].فكلّ محْور يضمّ موضوعات وأفكارا عديدة ومختلفة يصعب ضبْطها،ويتعذّر حَصْرها. يقول مالك بن نبي:" إنّ رحابة الموضوعات القرآنية و تنوّعها لشيء فريد "[2].

وقد دارت كلّ سُوَر القرآن الكريم حول هذه المحاور وحوْل هذه الموضوعات، وهي بدورها دارت حول المحْوَر الأوّل وهوالله الواحد. ومِنْ ثمَّ فقَدْ سعَى القرآن الكريم إلى غرْس عقيدة التّوحيد في نفس الإنسان، وانتزاع ما يخالف هذه العقيدة مِنَ الضمير، ثم دعا إلى العمل الصالح [3].

ولتحقيق ذلك لا بدّ من اختيار منْهجٍ سليم، وَوَسَائل محْكمَة، وآلياتِ تبليغ يستطيع من خلالها الوصول إلى الإنسان ويُسيْطر على عقله وعواطفه، ويؤثّر فيه ويُقنِعه بما يدعو إليه.ومن هذه الوسائل الكثيرة والمختلفة التقابلُ .

فقد اهتم القرآن الكريم كثيرا بالتقابل، فكان هذا الأخير ظاهرة أسلوبية بارزة فيه، فهناك كلمات ومعان وموضوعات متقابلة لا تكاد تفترق في القرآن الكريم، وكثيرا ما تكون مرتبطة في سياق واحد، مثل الجنة والنار، والجنّ والإنس، ومشاهد الكون، وموضوعات العقيدة، وأنواع البشر في الدنيا وصفاتهم حُسْنا وقبْحا، وأحوالهم يوم القيامة سعادةً وشقاءً... ولعلّ أبرز هذه الموضوعات مشاهد النعيم والجحيم،" فقد عني القرآن بترسيخ الإيمان بالعالم الآخر، كما عني بعرض مشاهده ووَصْفِ ما ينتظر الناس فيه من حساب ونعيم وعذاب"[4]. لأنّها موضوعات هامّة في حياة ومصير الناس، ومشاهد غيْبيّة يريد إقناع الناس بها، وترغيبهم فيها، وترهيبهم منها .

---

[1]. ينظر: محمد الغزالي ، المحاور الخمسة للقرآن الكريم ، دار الهدى للطباعة والنشر ، د ط ، د ت ، ص 9.

[2]. مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، ط4، 2004 ، ص 181.

[3]. ينظر: بكري شيخ أمين ، التعبير الفني في القرآن الكريم ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط4، 1980، ص 210.

[4]. أحمد أبو زيد ، التناسب البياني في القرآن ، ص 151 .

ولأجل أن يكون الإنسان في أفضل مجموعة وأحسن حال في الدنيا والآخرة، ويضمن سعادته يحثّه سبحانه وتعالى على الطاعة ويبيّن له نتائجها، ويحذّره من المعصية ويكشف له عواقبها، ويعِدَه ويتوعّده، ويرغّبه ويرهّبه ... إلى غير ذلك من الصّفات المتقابلة و الحالات المتنافرة والمواقف المتباينة والنماذج البشريّة المتناقضة التي يعمد القرآن الكريم إلى الرّبط بينها. وفي هذا الرّبط أسرار وحكم وفوائد سنذكرها في حينها، ونحدّدها في مواضعها."فالتقابل يتصرّف موازنا بين التوحيد والشّرك بقصد إثبات الأوّل ونفْي الثاني وإبطاله، وبين الإيمان والكفر لقصد تحقيق الإيمان والتشويق فيه، وطلب الابتعاد عن الكفر والتنفير عنه. وقد يقابل بين السماء والأرض والليل والنهار، والشمس والقمر، والنور والظلمات، استدلالا على وجود الله، وكمال ألوهيّته واستحقاقه للتوحيد والعبادة وحده "[1].

ومن ثم فقد بُنيت الكثير من سوره الطويلة والقصيرة على التقابل، فلا تكاد تخلو واحدة منه.وقد ورد متنوِّعا تنوّع أساليب القرآن الكريم؛فهو لا يسير على نمط واحد من حيث طولُأحدِ الطرفين المتقابلين وقِصرُهما،ومن حيث سبْقهوبنيته ...وهذا كلّه حسب سياق السورة وجوّها العامّ التي تعبّر عنه ، وما تريد تبليغه والوصول إليه، والذي على أساسه يكون التعبير، ويتشكّل التقابل فيها.

وفي ما يلي سنتطرّق إلى بلاغة التقابل وأهميّته وأبعاده المختلفة، وسنحلّل بعضَ السّور القرآنية التي بُنِيت عليه بناء كليّا أو جزئيّا.

[1]. عبد الله النقراط ، بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم دلالة التصريف القرآني أبلغ من دلالة ولفظ التكرار، دار قتيبة ، دمشق ، ط1 ، 2002، 1 / 542 .

أوّلا- أهميّة التقابل وأبعاده في القرآن الكريم :

إذا تأملنا ما حولنا نجده معتمدا على التقابل ؛ فالدار داران،دنيا وآخرة ؛ ففي الدنيا مؤمن وكافر، تقي وعاص،حسنات ، وسيئات . وفي الآخرة سعيد وشقي ، ثواب وعقاب، جنة ونار. والطبيعة البشريّة قائمة على المفارقات والتناقضات ؛ ففي الحياة الإنسانية الصادق والكاذب، الطيب والخبيث، المتواضع والمتكبر... وفي الطبيعة ؛ أرض وسماء، نور وظلام وغيرهما...

وهكذا فالكون كلّه مبنيّ على التقابل ، ومستمرّ به ، فهو "من الأسس التي يقوم عليها الوجود ، فهو يملأ الحياة حولنا ويجعلها تستمر وتبقى ولولاه لفقدت معناها "[1].فهو يعكس طبيعة الأشياء في هذا الوجود ويعبّر عن حقائق الحياة ، والكلمات المتقابلة تعبير عن خصائص كونيّة واجتماعيّة ونفسيّة [2] ، والحكمة بل المصلحة في وجود هذا التقابل ، وقديما قال الجاحظ (ت 255 هـ) : " اعلم أنّ المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدّتها امتزاج الخير بالشرّ ، والضّار بالنّافع ، والمكروه بالسّار ، والضعة بالرفعة ، والكثرة بالقلة. ولو كان الشرّ صرفا هلك الخلق ، أو كان الخير محضا سقطت المحنة ، وتقطّعت أسباب الفكرة ، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة"[3].لأنّ النّاس بطبيعتهم مختلفون، والحياة أجزاء متقابلة،" فلو كان كلّ فنّ من العلوم شيئا واحدا:لم يكن عالم ولا متعلّم ولا خفيّ ولا جليّ؛ لأنّ فضائل الأشياء تعرف بأضدادها ، فالخير يعرف بالشرّ ، والنّفع بالضرّ، والحلو بالمرّ، والصغير بالكبير، والباطن بالظاهر"[4].

والتقابل ظاهرة أسلوبية ودلالية بارزة في القرآن الكريم ، اعتمد عليها اعتمادا كبيرا، فلا تكاد تخلو سورة منه ، بل هناك سُوَر اعتمدت عليه من بدايتها إلى نهايتها .فكانت " فكرة التقابل ذات مكانة خاصة في أساليبه ، وتتمتّع بجمالياتثريّة ومتنوّعة في ضوء الدراسات الجماليّة المحدثة"[5]. فكثيرا ما كان يجمع بين هذه المتقابلات ، لذلك فقد تنبّه العلماء في مختلف

---

[1]. محمد الواسطي ، ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين ، دراسة بلاغية نقدية ، دار نشر المعرفة ، الرباط ، المغرب ، ط1 ، 2003 ، ص 234 .

[2]. ينظر: شلتاغ عبود، أسرار التشابه الأسلوبي في القرآن الكريم،دار المحجة البيضاء، دار الرسول الأكرم، بيروت، ط1 ،2003، ص231.

[3]. الجاحظ ، كتاب الحيوان ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، دون دار نشر ، ط2، 1965، 1/ 204.

[4]. ابن قتيبة ،تأويل مشكل القرآن ، تح أحمد صقر ، المكتبة العلمية ،بيروت ،دط ، دت، ص 87.

[5]. حسين جمعة ، التقابل الجمالي في النص القرآني ، ص8 .

العصور إلى " أنّ هناك ألفاظا قرآنية لا تكاد تفترق في القرآن الكريم ، وهي من عاداته و اطراداته ، من مثل الجنة والنار والرّهبة والرّغبة "[1] .

فهو كثيرا ما يتحدّث عن الشيء فيردفه بمقابله ، فيجمع في السياق الواحد بين الإيمان والكفر، وصفات المؤمنين وصفات الكافرين ، والطاعات والمعاصي ، والنور والظلمات ، والنفع والضرّ، والرشد والغيّ ، والطّيب والخبيث ، والحسنات والسّيّئات ، وأصحاب الجنّة وأصحاب النار ، ومشاهد النّعيم ومشاهد الجحيم ... إلى غير ذلك من الكلمات المتقابلة والفقرات و المواقف والحالات المتنافرة التي يتعمّد القرآن الكريم الرّبطَ بينها .فَلُغَة القرآن الكريم " تنتمي إلى لغة الوِجْدان ـ ابتداء ـ فتُثير مشاعِر المتلقّي وتهيجها من مَرَابضِها ، ثم تتَحَرّك في تَدَرُّج عقْلي بَدِيع لتُخَاطِبه في أسلوب تَقَابُلي يزجره مرّة بِصُور مُرْعِبة لجَهَنّم وأهْلِها ، ويُرَغّبُه مرّة أخرى في نعيم الجنّة الذي لا يَنْفَد"[2]، لأنّ القرآن الكريم لا يهْتَمّ بجانب دون آخر، ولا يُغلّب جانبا على آخر، بل يُعْطي كلّ واحِد حقّه ؛ فيُرَغّب ، ويُرَهّب ، يُوعِد ويَتَوَعّد ، يُبَشِّر ويُنْذِر، يَلِين ويَشْتَدّ... حتى أنّ كثيرا مِنَ المتَقَابلات قدْ تَكَرّرت بالعَدَد نفْسِه في القرآن الكريم ، مثل الدّنيا والآخِرة ، والملائكة والشّياطين ، والحياة والموْت ، والسّيِّئات والصّالحات ، والنّفع والفساد ...[3]، وحتى أنّ الله يَصِف نفسَه مرّة بالغفور الرّحيم ، وأخْرى بشَديد العقاب ، حيث يقول تعالى:﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ الحجر 49.50. والمتأمّل في أسماء الله الحُسْنى، يجد بعضها مُعْتمدا على التّقابل مثل: القابض الباسط، الخافض الرّافع ، المعُزّ المذِلّ ، المُحْيي المميت ، المقَدّم المؤَخّر، الأوّل الآخِر، الظّاهر الباطن، الضّار النّافع .ولعَلّ هذا يُوحِي بِوَسَطِيّة الإسلام القرآن الكريموتوازنهما. وفي هذا الربط والجمع أسرارٌ وفوائد، يقول صاحب (بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم):" فإنّ من أساليب القرآن الكريم التّقابل بين الإيمان والكفر وعواقبهما ، والفضيلة والرّذيلة، والخير والشرّ، والحقّ والباطل، والآخرة الباقية والدّنيا الفانية . وذلك لتنبيه الذّهن إلى فضائل الأولى فيلتزم بها المؤمن من تلقاء نفسه ،

[1] ينظر: محمد إقبال عروي ، اطرادات أسلوبية في الخطاب القرآنيرصد واستدراك ، دار الأمان ، الرباط ، المغرب ، ط1، 1417 ، 1996 ، ص53 وما بعدها .

[2]. حسين جمعة ، التقابل الجمالي ، ص 114 .

[3]. ينظر: عبد الرزاق نوفل، الإعجاز العددي للقرآن الكريم، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون، الجزائر، ط3، 1989 ، 1/ 13 وما بعدها . فاضل السامرائي، التعبير القرآني ، دار عمار، عمان، الأردن، ط3، 2004، ص 12.

ويَعْرض عن الأخْرى وهُو قانِع بِشَرّها وسُوئِها"[1]. لذلك فالغالب في السّور أنْ ترد آيات الرحمة بإزاء آيات العذاب ، ومشاهد النعيم في مقابل آيات العذاب ، وخطاب الوعيد والتّرهيب بإزاء خطاب الوعد والترغيب ، وذلك للتخويف والتبشير، والتذكير والتحذير . وقلّ أنْ يرد أحد هذين المعنيين منفردا[2]. فالتقابل يَهدِف إلى إظهار التباين والتباعد بين طرفيه ، وهذان الأخيران قد يكونان شيئين أو حالتين أو موقفين أو أنموذجين على مستوى الكلمة أو الآية أو الفقرة والموضوع ... فيكون الطرفان شاخِصيْن أمام القارئ أو السامع، فيَسهُل عليه التمييزُ بينهما وتقبّلُ أحدِهما واختيارُ أفْضَلِهما ، " إذْ يتراءى الأثر النّفسيّ وعنصر الإثارة واضحا في صيغ الوعد والوعيد والترغيب والترهيب حين تعرض أعاجيب الكون ومخلوقات الله عزّ وجلّ ومشاهد الطائعين والعاصين ، والجنة ونعيمها والنار وجحيمها "[3].فالتقابل يُسْتَخدم في القرآن الكريم استخداما نفسيّا في مثل هذا المجال ، وذلك ليزداد المؤمنون اطمئنانا ، وأهل الكتاب خوفا، وأيضا لإطماع الكفار في الإيمان وتحذير المؤمنين من العصيان[4].

إلى جانِب أنّ التّقابل باعتباره تضادا وثنائيّات - فهو نمطٌ تعبيريّ مُحَفِّز للتّذكّر، ومُنَشِّط للذّاكرة، لأنّ الضدّ يستدعي ضدّه بسهولة، والثنائيّات تسترجعها الذاكرة بسرعة . يقول أحدهم:" على الرّغم منْ قيام التّضاد على التّناقض في طرفين ، إلّا أنّه يُعِين على تذكّر طرف بطريق الطّرف الآخِر ، فإنّنا نَتَبيّن الضّدّ منَ الضدّ الآخر... وتقوم هذه الثنائيات بِتَلْبِيَة حَاجَة الذّاكرة إلى الحِفْظ "[5]. فللتقابل أثره البالغ في التعبير والتأثير، فهو " يوقظ الإحساس ويأجج العاطفة ويستفزّ الشعور من خلال تسليط الضوء على المفارقة والتنافر بين الأشياء مما يُحدِث هزّة شعورية متوتّرة ورافضة لهذا التناقض"[6].

---

[1]. النقراط، بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، 1 / 1061 .

[2]. ينظر: أحمد أبو زيد ، التناسب البياني في القرآن ، ص 155.

[3]. محمد ديب الجاجي ، النسق القرآني دراسة أسلوبية ، شركة دار القبلة ، جدة ، السعودية ، مؤسسة علوم القرآن ، بيروت ، ط1، 2010، ص 676.

[4]. ينظر: مصطفى الصاوي الجويني ، البلاغة العربية تأصيل وتجديد ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، د ط ، د ت ، ص 69.

[5]. محمد كريم الكوّاز، كلام الله ، الجانب الشفاهي من الظاهرة القرآنية ، دار الساقي، بيروت ، ط1، 2002، ص 42.

[6]. شلتاغ عبود ، أسرار التشابه الأسلوبي ، ص 232.

ومن جهة أخرى فالتقابل في القرآن الكريم كثيرا ما يأتي كنتيجة أو حجّة أو غاية تريد السّورة الوصول إليها بعد مقدّمة تمثّل فكرةً وتقدّم حقيقةً ، أوْ أنّه يأتي في نهاية السّورة كخلاصة لِمَا ورَد فيها منْ حقائق وأوامر ونواه ، فتكون أنْفذَ إلى الذّهن، وأوْضَح للْفهْم، وأقنع للسّامع، وأرْسخ في الذّاكرة باعتبارها آخر ما ينتهي إليه القارئ في السّورة ، وكأنّها توحي إليه بالاختيار السليم. من ذلك مثلا ما نجده في آخر سُوَر«الزّمر والدخان والمرسلات والزلزلة والقارعة...» وغيرها، وسنُحلّل لاحقا بعْضَ هذه السّور.

فمثلما يستدعي المعنى شبيهَه ، فهو يستدعي مقابلَه ، لذلكّ فالتقابل مثل التشبيه ، أو أكثر خطورة على البال وأوضح في الدّلالة على المعنى منه[1]. وعلى هذا الأساس ، فهو" شرط فنّي وأصل جمالي تتحقّق به أدبية النص وشعريته"[2] من خلال رَبْط المتناقِضَيْن، وتجْمِيعِ المتنافِرَيْن، وكشْف جمالهما، وإحداث المفاجأة والدّهشة لِلمتَلقّي.والوقت نفسه إحداث وحدات صوْتية في الكلام تُقابِلُها وحدات صوتيّة أخرى ، يتحقّق بها الإيقاع ، وتظهر فيها الموسيقى والنّغمة. لذلك " فلا يُمكِن قراءة الشّعريّة العربيّة خارج مُقوّماتها الجمَاليّة، ومِنْ أهمّها جماليات البديع"[3]، والذي من أنواعه التقابل .

ومن جهة أخرى فالتقابل وسيلة إقناع فعّالة، وعنصرُ حجاجٍ بارز،" فكلّ دعوة تحتاج إلى إقناع وكلّ إقناع وتأثير يتطلّب وسائل لا مندوحة عنها، والقرآن لا يغنيه أنّه قرآن عن هذه الوسائل طريقا لأنّه لغةٌ ومُمارَسات"[4]. فتظهَر الوظيفةُ الدّلاليّة في ما يُضْفيه الضِدّ على ضدّه من تميّز ومُفارقة وجَلاء وتَوْضيح للْمعاني ... وذلك من خلال اسْتِدعائِه ،" فَدُخُول اللّفظة في علاقات مع ألفاظ أخرى، يُكسِبُها وظيفةً لم تكُنْ لها قبل ذلك. وعلى ذلك فقَد تنْبَثِق من العلاقات الجديدة وظائف دلاليّة أخرى أو إيقاعات مُوسيقيّة "[5]. والإيقاع إضافة إلى وظيفته الجماليّة، " قد يحْمِل مِنَ الشّحن المعنويّة باعتباره دالًّا ما لا يحمله المدلول نفْسُه " [6].

---

[1] . ينظر: عبد العزيز عتيق ، علم البديع ، ص63 .

[2] . حسين بوحسون ، أسلوب التقابل ودلالته في المقال الأدبي الإصلاحي في الجزائر، مجلّة دراسات جزائرية ، يصدرها مخبر الخطاب الأدبي في الجزائر، جامعة وهران ، العدد: 4 / 5 ، السنة: 2007 ، ص129.

[3] . سعيد العوادي ، حركية البديع في الخطاب الشعري ، ص15 .

[4] . حمادي صمود ، من تجليات الخطاب البلاغي، تحديث دار قرطاج للنشر والتوزيع ، تونس ، ط1، 1999، ص92 .

[5] . طالب محمد الزوبعي ، ناصر حلاوي ، البلاغة العربية البيان والبديع ، ص 139 .

[6] . عبد الله صولة ، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية عن منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات ، تونس ، منوبة ، الجمهورية التونسية ، دار الفرابي ، بيروت ، ط2 ، 2007 ، ص 50 .

ومِنْ ثمّ فالتّقابل في هذا كلّه " يَخْلق الجمال ويُفجّر المعاني ويُفْصِح عنها فتنقاد للفَهْم وتَسْتقرّ بالذّهن"[1]. وبناء العمل الفنّي إبداع يَتَحقّق بِتَلاحم الشّكل مع المضمون وتَداخُل الدّلالة مع الإيقاع ، وتَفاعُل عناصر اللّغة بعضها ببعض ، لأنّ كلاّ منهما ، أي الإبداع واللّغة ظاهرة مرُكَّبَة وعمليّة مُعَقَّدة . فالتقابل يقوم على فِكْرة التّضاد التي تربط بين المتناقضيْن ، فيتفاعلان ويُلقِيَان بأثَرِهما على المتلقّي بِكلّ ما يحْمِلانه مِن شحنات مؤثّرة ، وإيقاع موسيقي، فتتفجّر المعاني، ويظهر الجمال وتُنْتَج الدّلالةُ، وخاصّة عند تداخُلُه مع ألوان البديع الأخرى مثل والتّكرار والتّوازن والتجانس والفاصلة وغيرها ...

[1]. محمد الواسطي ، ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين ، ص 236 .

ثانيا : التّقابل والتّماسك النصّي :

1 ــ التّقابل والتناسب :

المقصود بالتناسب أو المناسبة هو ارتباط السّور فيما بينها من جهة، والآيات ضمن هذه السّور من جهة أخرى[1]، وبكيفيّة من التماسك وتلاحم الأجزاء. ولعلّ أوّل من سبق إلى هذا العلم هو أبو بكر النيسابوري (ت324هـ)[2]. وقد ألّف فيه العلماء أمثال:ابن الزبير الغرناطي(ت 708هـ)، وبرهان الدين البقاعي(ت885هـ)، والسّيوطي (ت911هـ) وغيرهم. ويرى الزركشي أنّ فائدة التناسب هي جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ، وتتلاءم الأجزاء. فأكثر لطائف القرآن مُودَعة في الترتيبات والروابط[3]. ما يكون له فائدة في بلاغة وجماليات القرآن الكريم وتجليّة معانيه وفهْم مراميه. فقد أجمع العلماء والأدباء على أن التناسب من أهَمّ عناصر الجمال، وأبرز شروط الفصاحة في التعبير اللغويّ وفي إعجاز القرآن الكريم[4].

ووسائل التناسب والتماسك كثيرةٌ ومتنوّعة بَيّنَها العلماء ، ولسْنا هنا في مقام تعدادها وشرحها[5]. وما يهمّنا منها هو التقابل موضوعنا ، لذلك سيقتصر حديثنا عنه .

اتّفق القدماء على أنّ التقابل أحد وسائل التناسب ، فأشاروا إليه في حديثهم عن الرّبط بين المعاني. فمن ذلك يقول ابن سنان الخفاجي (ت466هـ):" فأما تناسب الألفاظ من طريق المعنى فإنّها تتناسب على وجهين أحدُهما أنْ يكون معنى اللفظتين متقاربا والثاني أن يكون أحد المعنيين مضادّا للآخر أو قريبا من المضادّ فأمّا إذا خرجت الألفاظ عن هذين القسمين فليست بمتناسبة"[6]. وقد ذكر السّيوطي أنّ من أسباب الرّبط التقابلّ المبنيّ على الضدّ[7]، وهو ما رآه المحدثون ــ أيضا ــ. من ذلك فقدْ تحدّث صلاح فضل عن الروابط البلاغيّة والتي هي نمط وظيفي من أنماط التماسك النّصي، كثيرا ما يلجأ إليه المتكّلمون لأسباب استراتيجيّة، ومنْ بينها

---

[1] . ينظر: مصطفى مسلم ، مباحث في التفسير الموضوعي ، دار القلم ، دمشق ، ط4 ، 2005 ، ص 58 .

[2] . السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1408هـ ، 1988 م ، 1/ 43 .

[3] . البرهان في علوم القرآن ، 1 / 41 .

[4] . ينظر: أحمد أبو زيد ، التناسب البياني في القرآن ، ص 26 .

[5] . ينظر: كُتُب النصيّة مثل : صبحي إبراهيم الفقّي ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق . محمد الخطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ...

[6] . ابن سنان الخفاجي ، سرّ الفصاحة ، ص 199 .

[7] . ينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن ، 1 / 58 .

التّضاد. وبالمقابل فقدْ انْتقد البحوثَ البلاغيّةَ القديمة التي لم تتعدّ النظرة الجزئيّة المحدودة، دون أنْ تتجاوز إلى النّطاق الدّلالي للفقرة الكاملة[1]. وقد بيّن جميل عبد المجيد دوْرَ عناصر البديع في سبْك النّص وحبكه، والتي من بينها التّقابل كلَوْنٍ مستقلّ أو ضمْن عناصر البديع الأخرى كالعكس والتبديل والجمع والتقسيم والإجمال والتفصيل ...[2].

من ذلك ـ أيضا ـ يرى محمد العمري أنّ التناسب ينْصَرِف إلى وجود طرفين متجاورَيْن دلاليّا وصوتيّا، والتقابل عنده من أنواعِ تناسبِ الألفاظ من جهة المعنى، وهو تناسب دلالي[3]. إضافة إلى ذلك فقد " اهتمّت نظريات نقديّة كثيرة بالضدّ وجعلته عنصرا مهمّا من عناصر الشعر الأساسيّة بِصَرْف النّظر عمّا يؤدّيه من اختلاف أو ائتلاف ، يشكّلان ـ في نهاية الأمر ـ بناء فنيًّا مترابط الأجزاء"[4].

فالتقابل من مظاهر التناسب والتماسك في القرآن الكريم ، حيث أنّه يجمع بين المعاني، وإنْ كانت متخالفةً ومتضادّةً ، " فعلاقة الضدّية هي التي تبيح التماسك"[5] ، والضدّية لا تعني الانفصال والتّباعد، ولا تمْنَع الصّلةَ والرّبطَ بين المعْنَيَيْن ، لأنّ بين المعنى ومقابله علاقةً، والمعنى يستدعي مقابِلَه. هذا الاستدعاء يزيد في جمال الكلام والتّنبيه إليه ، ويزيد في تماسكه وتآلفه ، وكشْف علاقاته داخل النصّ،" فكلّ نسق يقف مقابل نسق آخر تضادّا وتشاكلا لينتهي إلى التّآلف والتّكامل والتّناغم في وحدة منسجمة"[6]. ولعلّ هذا الدّورَ الذي يقوم به التقابل تفسيرٌ آخر لأسباب كثْرته في القرآن الكريم .

فالألفاظ والمعاني تَتَفاعل داخل السّياق في تنظيم مّعقّد، وفي شبكة علاقات متنوّعة . وإنْ كان بعضُ هذه العلاقات متقابلا متنافرا ، لكنّها في الأخير تنسجم وتتآلف وتتكامل ، وتُحقّق التناسبَ والوحدةَ ، وتظهر قيمتُها الجماليّة ، فضلا عن تجليّة المعنى. ومن ثمّ " فالتّناسب قرين

---

[1] . ينظر: صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،164، أغسطس 1992، ص 243 ، 244 .

[2] . يُنظر: الفصلان الأوّل والثاني من الباب الأوّل من كتابه " البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصيّة " .

[3] . ينظر: محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، ص454.

[4] . أحمد جمال المرازيق ، جماليّات النقد الثقافي نحو رؤية للاتساق الثقافية في الشعر الأندلسي ، المؤسسة العربية ، بيروت ، ط1، 2009، ص21 .

[5] . صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النّصّي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكيّة، دار قباء، القاهرة ، ط1، 2000 ، 2 / 147 .

[6] . حسن جمعة ، التقابل الجمالي ، ص154 .

الوحدة، فهو حالة من التناغم بين العناصر. تضمّ المؤتلف والمتباين وتوقع التشابه بين ما يبدو مختلفا للوهلة الأولى"[1]. فعلاقة التّقابل من بين الرّوابط التّي تحقّق التّماسك النّصّي، لأنها الجهة الجامعة بين المتقابلين[2]. هذا الدّور الرّابط والجامع جعل" العمل الأدبي الحديث يكاد يُفرّغ بنية التقابل من ضدّيتها ، ويجعلها خالصة للتّناسب "[3]، والتآلف ، لأنّ التقابل لا يكون إلا بانعقاد الصّلة التّركيبية بين طرفيه ، وتظهر قيمة ثالثة متولّدة من اجتماع هذين الطرفين المتقابلين ، فتثير وتحرك مشاعر المتلقّي ، ومن ثمّ يتضاعف التمتّع بالقيمة الجماليّة [4]. ومن ثمّ فقد قدّم التناسب للدّرس النصّي منظومة علائقية التقى فيها الجزئي مع الكلّي والدّلالي الموضوعي مع الصّوتي الموسيقي، والتقوا جميعا مع البناء الشّكلي الخالص[5].

فالتقابل في القرآن الكريم منتشر في ثنايا سُوَره ، وبمختلف الأشكال . فهو يكون في السّورة الواحدة ، كما يكون بين السّورتين المتجاورتين ؛ " فالتّقابلُ وهو علاقة دلاليّة فيها تكون السّورة مقابلة لما قبلها، على صعيد بعض الآيات وهو الغالب ، أو على صعيد السّورة كلّها"[6]. بل يتجاوز ذلك إلى السّور المتباعدة وإلى القرآن الكريم كلّه، وهو ما سنوضّحه بعض النماذج.

2 ـ التقابل في السّورة الواحدة :

تتشابك آيات وأجزاء السّورة الواحدة ، وتتعانق بدايتها مع نهايتها عن طريق التقابل لتحقيق التّناسب و التّلاحم ، و خدمة موضوعِها وتحقيق أغراضِها . من ذلك ما نجده بين بداية سورة (المؤمنون) ونهايتها ؛ فقد قارن الزمخشري بين الآية الأولى منها، وهي:﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١﴾، والآية الأخيرة وهي: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١١٧ ﴾، ليرى بينهما تناسبا، وعلّق بقوله: " شتّان ما بين الفاتحة والخاتمة "[7]، أي بين فلاح المؤمن وعدم فلاح الكافر. وما أظهر التناقض والتباعد بينهما هو وجود الضدّ بجوار ضدّه في سورة واحدة، واجتماعهما في

---

[1] . جابر عصفور، النقد الأدبي، مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1، 2003 ، 1 / 337 .

[2] . ينظر: صبحي إبراهيم الفقي ، علم اللغة النّصي ، 2 / 170 ، 171 .

[3] . عاصم محمد أمين ، لغة التضاد في شعر أمل دنقل ، ص57 .

[4] . ينظر: محمد بركات ، بلاغتنا اليوم بين الجمالية والوظيفة ، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، ط1، 2004 ، ص 95.

[5] . ينظر: محمد عبد الباسط ، النص والخطاب قراءة في علوم القرآن ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط1، 2009 ، ص81 .

[6] . المرجع نفسه ، ص61 .

[7] . الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط3 ، 1407هـ ، 3 / 207 .

سياق واحد ، فيُحقّق ذلك غايةَ السورة ." فالعلاقة بين البداية والنهاية تتأسّس على الإثبات القاطع بفلاح المؤمنين والنفي القاطع بعدم فلاح الكافرين . وما بين الإثبات في الصدر والنفي في العجز تترسّخ قيمة الفلاح وأهميته، ويترسّخ في النفس سبيلها الوحيد"[1]، فكانت قضيّة الفلاح هي المحور الدّلالي الذي ربط بين المقدّمة والخاتمة ، لكنّه بفارق بين الإثبات والنفي[2] .

ومن أمثلة ذلك أيضا ما نجده في سورة (عبس)، حيث خُتِمَت بتقابل سريع بين نوعين من الوجوه يوم القيامة عند مجيء الصّاخة، وهو يوم هروب وفرار وانقسام الناس صنفين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ عبس: 38 – 42 . ذلك لأنّ من أغراضها التنويه بضعفاء المؤمنين وعلوِّ قدرهم، وأنّهم أعظم عند الله من أصحاب الغنى الذين فقَدوا طهارة النّفس، وأنهم أحرياء بالتّحقير والذّم، وأنّهم أصحاب الكفر والفجور. وتبيين اختلاف الحال بين المشركين المعرضين عن هدْي الإسلام وبين المسلمين المقبلين على تتبّع مواقعه[3]. وما برّر هذا التقابل هو أنّها انطلقت من بدايتها به عند المقارنة بين صنفين مختلفين ، يقول تعالى ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾." فهذه السّورة أقيمت على عماد التنويه بشأن رجل من أفاضل المؤمنين والتّحقير لشأن عظيم من صناديد المشركين"[4]. هذا الرّجل هو ابن أم مكتوم الذي يمثّل الوجوه الضاحكة المستبشرة ، أما مَنْ يمثّل الوجوه التي عليها الغبرة فهُم كفار قريش .

فبدأت السورة بالتقابل وانتهت به، فربط بين البداية والنهاية ليكون ما بينهما في ثنايا السّورة في خدمة هذا التقابل وخدمة غرضها العام، وتكون هذه النهاية التقابليّة خلاصة ما قُدّم في السّورة، وتبيّن صِفةَ كلّ صنْف، وأنّ اختلافهما في الآخرة سَبَبُه اختلافِهما في الدّنيا، خاصّة أنّها أضافت مصرِّحة﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾، " زيادة في تشهير حالهم الفظيع للسّامعين"[5]. ويظهر من خلاله التّباعُدُ بينهما، فيستفزّ الإنسان ويحمله على اختيار أفضلها، والنّفور من

---

[1] . محمد عبد الباسط ، النص والخطاب قراءة في علوم القرآن ، ص 69 .

[2] . ينظر: علم اللغة النصي ، 2 / 131 .

[3] . ينظر: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس ، د ط ، 1984هـ ، 30 / 102 .

[4] . ينظر: المرجع نفسه ، 30 / 137 .

[5] . ينظر: المرجع نفسه ، 30 / 138 .

الآخر، وتكون السّورة كتلةً متماسكة من أجل غرضها، ومنْ أجل ما أرادت الوصول إليه. وفي تقابل البداية والنّهاية إيحاءٌ بتماسك السّورة كلّها وتلاحمها، ووحدتها الفنيّة رغم تعدّد موضوعاتها .

وقد ذكر الصابوني وغيرُه مقابلةً لطيفةً في سورة (الكوثر) بين أوّلها وآخرها ، بين « الكوثر» و« الأبتر»؛ فالأولى بمعنى الخير الكثير، والثانية المتقطّع ذكره وخيره الذي لا يذكر إلا بالخزي واللّعنة [1].

وإذا كان هذا صحيحا فإنّه غيْر كافٍ ، كونه نظرةً جزئيّة تكتفي بآية أو آيتين ، أو هي مقتصرة على البداية والنهاية ، ولا تقدّم الصّورة مكتملة ، لأنّه " لا تكتمل ملامح الدّرس النّصي في علوم القرآن إلا بالوقوف إزاء المستوى الثاني من التناسب الكلّي ، الذي يُعنى بالبحث عن العلاقات بين سورتين أو أكثر من سور القرآن، تجمعها هذه العلاقة أو تلك ، الأمر الذي يكشف عن مفهوم نصّي غاية في التطور" [2].

لذلك لا يقتصر التّقابل في القرآن الكريم على هذا ، بل ورد أيضا بين فقرات وأجزاء السّورة على نطاق أوسع، حتى أنّه أحيانا تنقسم السّورة إلى قسمين متقابلين، أو تمتزج فيها المتقابلات عن طريق ثنائيات متقابلة ـ كما سيأتي ـ ، فالسّورة نصّ ، والنّص الأدبي عامّة " يتألف مِنْ عدد ما من العناصر، تقيم فيما بينها شبكة من العلاقات الداخليّة التي تعمل على إيجاد نوع من الانسجام والتّماسك بين تلك العناصر"[3].

كلّ هذه المتقابلات تُساهم في تلاحم أجزاء السّورة وتماسكها . فالكلمات والمعاني يدعو بعضُها بعضا ، والمقابِل أكثر ما يستدعي مقابِلَه ، لأنّ الضدّ بالضدّ يُذكر، " فبعض الكلمات تسعى لتلتحم فيما بينها أكثر من أخرى وذلك إمّا لأن في تجمّعها شيئا لافتا للانتباه أو لأنّها تعبّر عن فكرة أثّرت فينا تأثيرا خاصّا "[4]. ففي تجمّع المتقابلين انعقادُ الصّلة بينهما ، فيكون الرّبط بين المتناقضين أو المتباعدين ، وتكون الجمالية ويتحقّق التأثير.

---

[1] . محمد علي الصابوني ، الإبداع البياني في القرآن العظيم ، المكتبة العصرية ، صيدا، لبنان ، ط1، 2006 ، ص438.

[2] . محمد عبد الباسط ، النص والخطاب قراءة في علوم القرآن ، ص 64 .

[3] . سعيد حسن ، دراسات لغويّة تطبيقية في العلاقة بين البنية والدّلالة ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط1، 2005 ، ص94 .

[4] . Darmesteter Arsène la vie des mots paris ed delagrave 1946 p 23

3 ـ التقابل بين السّوَر:

إنّ التّجاور بين السّور القرآنية مبنيّ على أسُس مضبوطة ومعايير دقيقة، مرتبطة بموضوع كلّ سورة وسياقها، ونفسيّة المتلقّي، خاصة أنّ هذه السّور تُشكّل حلقات متّصلة ضمن سلسلة القرآن الكريم . هذا الاتصال له أشكال مختلفة .

من ذلك فقد لحظ العلماء أنّ هناك صلةً بين السّورة القرآنية وما قبلها ، وما بعدها . هذه الصّلة قد تكون بين نهاية الأولى وبداية ما بعدها. يقول الزركشي:" إذا اعتبرت افتتاح كلّ سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختمت به السّورة قبلها "[1]. والتّقابل ـ بما يُمَثّلُه من تضادّ ـ أحدُ أوْجه هذه المناسبة .

وبيْن نهاية سورة (الإسراء) وبداية سورة (الكهف) تظهر علاقة التقابل واضحةً ، حيث تنتهي الأولى بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا ﴾ الإسراء: 111. وهو أمْرٌ وحثٌّ على الإقرار بذلك ، وتبدأ الثانيّة بقوله تعالى : ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ۝٤ ﴾ الكهف: 4، وهو إنذار لمَن لا يعترفون وردّ عنْهم . وهو تقابل يُبيّن مدى اختلاف العقيدتيْن ، ومدى اختلافِ مصيرِ أصحابِ كلٍّ واحدة .

والتّقابل في سور القرآن الكريم يتجاوز علاقةَ بدايةِ السّورة بنهاية ما قبلها ، إلى ثنايا هذه السّور . من ذلك ما ذكره السّيوطي في وجه اتّصال سورة (المنافقون) بالسّورة التي قبلها وهي (الجمعة) ، حيث أنّه ذكر في الثانية المؤمنين ، وذكر في الأولى أضدادهم وهم المنافقون . ولهذا أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة (الجمعة) يُحَرض بها المؤمنين، وبسورة (المنافقين) يُفْزع بها المنافقين [2]. حيث تكاد الأولى تكون مقصورة على الحديث عن المنافقين ، والإشارة إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت عنهم . وهي تتضمّن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم، وما في نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين، ومن اللّؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب[3]. والثانية تعالج أن تقرّ في أخلاد الجماعة المسلمة في

---

[1] . البرهان في علوم القرآن ، 1 / 43 .

[2]. السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا ، مرزوق علي إبراهيم ، دار الفضيلة ، القاهرة ، د ط، د ت ، ص141 ، 142 .

[3] . ينظر: سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط 17 ، 1412 هـ ، 6 / 3572 .

المدينة أنّها هي المختارة أخيرا لحمل أمانة العقيدة الإيمانيّة . وأنّ هذا فضل من الله عليها وأن بعثة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ العربيّ منّة كبرى تستحقّ الشّكر، وتقتضي نهوض المجموعة المؤمنة، وحملها الأمانة . وفي الوقت ذاته تعالج بعض الحالات الواقعة في تلك الجماعة في أثناء عملية البناء النفسي، والتي تُعيقُها عن الأمانة الكبرى مثل الحرص والرّغبة في الرّبح، وحبّ المال...[1]. وهو ما يُظهر التّقابل بين موضوعَيْ السّورتين .

وقد ذكر بعضهم أنّ من لطائف سورة (الكوثر) والتّناسب العجيب فيها ، أنّها كالمقابلة للّتي قبلها ، وهي سورة (الماعون) ؛ لأنّ السّابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمور أربعة: البخل، وترك الصلاة، والرّياء فيها، ومنع الزكاة . فذكر في الكوثر، في مقابلة البخل ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ الكوثر:1، أيْ الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة ﴿فَصَلِّ﴾، أي دُمْ عليها، وفي مقابلة الرّياء ﴿لِرَبِّكَ﴾، أي لرضاه لا لمراءاة النّاس، وفي مقابلة منع الماعون ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾؛ وأراد به التصدّق بلحم الأضاحي[2] . ومنْهم مَن قابل بين التكذيب بالدّين في قوله : ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ الماعون:1 ، وقوله : ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ ، ذلك لأنّ أشهر معنى للكوثر أنّه نهْر في الجنّة ، وهذا يقتضي الإيمان بيوم الدين[3] .

وقد عدّ بعض المفسرين أنّ سورتي (قريش والفيل) سورةً واحدة ؛ لأنّهما متّصلتان في المعنى . فقد أهلكت أصحاب الفيل لإيلاف قريش، أي لتأتلف، أو لكي تأمن قريش فتؤلف رحلتيها[4]. وهو تذكير لأهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعَل بالحبشة من انتقام، بمعنى: أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش[5] . فقد كان شبه الجزيرة غير آمن، لكنّ جوار البيت كفَل لقريش الرّزق والأمن. وهي تفسيرات تَعتبِر السّورتين سورةً واحدة باعتبار التّناسب المبنيّ على التقابل بينهما؛ فقد بُنيت سورة (الفيل) على الهلاك والتدمير والنقمة، وبُنيت (قريش) على النّفع والأمن والنعمة .

---

[1] . ينظر: المرجع السابق ، 6 / 3562 وما بعدها .

[2] . ينظر: البرهان في علوم القرآن ، 1 / 43 .

[3] . ينظر: فاضل صالح السامرائي ، على طريق التفسير البياني ، دار الفكر، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2011 ، 1 / 81 .

[4]. ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط2 ، 1964 ، 20 / 200 .

[5] . ينظر: الشوكاني ، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب ، دمشق ، بيروت ، ط1 ، 1414 هـ ، 5 / 608 .

أما سورة (الواقعة) فقد رآها السيوطي متآخية متّحدة مع (الرحمن) كأنّهما سورة واحدة؛ في أنّ كلا منهما في وصف القيامة والجنّة والنار، حتى أنه في سورة (الواقعة) اقتصر على ذكر الأرض في قوله:﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ الواقعة 4، وفي سورة (الرحمن) اقتصر على ذكر السماء في قوله:﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ الرحمن37. ولهذا ذكر في أوّل هذه ما ذَكَرَه في آخر تلك، وفي آخر هذه ما ذَكَرَه في أوّل تلك[1]. وهي رؤية لا تكتفي ببعض الآيات في السّورتين، بل تتعدّى إلى موضوعَيْهما كاملَيْن .

وهو ما رآه المحدثون أيضا، حيث تجاوزوا النظرة الجزئيّة، فربطوا بين السّورتين كاملتيْن. لأنّ الموضوع قد يكون السرّ في مجاورة السّورتين المتقابلتين. من ذلك سورتا(الإنسان) و (المرسلات)، فالأولى تكاد تكون خالصة للبشارة والأمل إلاّ في نص صغير يُرهِب ويُوعد، كما أنّ الثانية تليها مُتَحَدِّثة عن الزّجر والتّهديد إلا في نصّ صغير يبشّر ويرحّب. فالقارئ المطيع يجد ما تشتهيه النفس، ويكون بعيدا عن جوّ التّخويف في السّورة الأولى. كما أنّه إذا تورّط في المعصيّة فإنّه مع الثانية في جوّ رهيب منذر ويُريه مصيره في الجحيم. فيكون تجاور السّورتين والمشهدان المتقابلان معبّريْن وحاسميْن ونافذيْن في الإقناع والتأثي[2]. وبِجمْع السّورتيْن يَتَسَاوى طرَفَا التقابل، ويتساوى الوَعْدُ والبشارة من جهة والوعيد والزَّجْر من جهة أخرى، وتكون كلّ سورة مُكَمِّلة للأخرى ومُساعِدة لها، ومتماسكة معها، وكأنّهما سورة واحدة. وعن سرّ ذلك يقول الألوسي في سورة (المرسلات):" هذا ولما أوجز في سورة الإنسان في ذكر أحوال الكفار في الآخرة وأطنب في وصف أحوال المؤمنين فيها عكَس الأمرَ في هذه السّورة فوقَع الاعتدال بذلك بين هذه السورتين"[3]. وهو ما رآه أبو حيان الأندلسي في نصٍّ يشبُه هذا[4]. وبذلك يخلق القرآن الكريم للإنسان التوازن، ويَجْعَله في اتّصال دائم بهذه المتقابلات ، فيكون كجناحَيْ طائر يتَأَرْجَح بين الرّجاء والخوف، الأمل والألم . فتَتَحقَّق بالتالي الغايةُ المرْجُوّة . فبِناء السّورة الواحدة على

---

[1] . ينظر: السيوطي ، أسرار ترتيب القرآن ، ص 137 .

[2] . ينظر: محمد رجب بيومي، البيان القرآني ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط2 ، 2005 ، ص226 ، 227 وما بعدها.

[3] . الالوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط1، 1415 هـ ، 15 / 198 .

[4] . النّص هو" ولمّا كان في سورة الإنسان ذكر نزراً من أحوال الكفّار في الآخرة، وأطنب في وصف أحوال المؤمنين فيها، جاء في هذه السّورة الإطناب في وصف الكفار والإيجاز في وصف المؤمنين، فوقع بذلك الاعتدال بين السورتين"،(أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، تح : عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1422 هـ،2001 م،8 / 399).

البشارة كلّها، أو الوعيد كلّه يُفقِد الإنسانَ هذا التّوازن ، ويؤدّي إلى إهمال الثاني ونسيانه ، فلا تتحقّق ـ بالتالي ـ الفائدة من السّورة . يقول إبراهيم الفقّي: " أن المناسبة بين السّورة الكاملة وغيرها من السّور الكاملة قد تكون بينهما علاقة المقابلة أو غيرها . وهذا يسهم في إيضاح التماسك النّصي بين أكثر من سورة "[1].

ومن ذلك أيضا أنّ بين (الملك) و(الجنّ) ـ وهما سُورَتان مُتجاورَتَان ـ نرى تناسبَ التقابل بين الموقفَيْن ؛ فإذا كان قوم نوح ـ عليه السلام ـ بعد هذا الطريق الطويل من الدّعوة ، لم يزدْهم هذا إلّا إعراضا واستكبارا . فإنّ الجنّ كان بالمقابل؛ فلم يمْلك هذا النّفر بعد سماعهم آيات القرآن الكريم إلّا الإيمان به ، بل الذّهاب بالبشرى لبني جنسهم [2].

وإذا كان التماسك عن طريق التقابل يظهر هنا بين السّورتين المتجاورتين ، وقبله بين بعض آيات السورة الواحدة أو السّورتين فقط ، فهو يقدّم صورة واضحة عن تماسك القرآن الكريم كلّه، ذلك لأنّ هذه السّور الثنائيّة تشكّل علاقات متسلسلة تتشابك عبر القرآن الكريم كلّه . و" على هذا النّحو يمكن أنْ يشبه النّص القرآني بسلسلة تَتْشَدّ حلقاتها بعضها إلى بعض مما يضمن تلاحمه كنصّ لا تني العلاقات بين أجزائه تتقوّى كلّما تقدّمنا في قراءته"[3]. فالقرآن الكريم وإنْ كان مُجزَّءا إلى سُوَر مستقلّة ، وبأسماء خاصّة ، فهو بعلاقاته المتشابكة نصّ واحدٌ ، يشدّه خيط واحدٌ، في اتّجاهِ غايةٍ واحدةٍ ، وبوحدة متكاملة . هذه الأخيرة تنشأ من التّناسق، كما يمكن أنْ تتبني على مجموعة من الأضداد اللّغويّة [4]. ولعلّ ما يؤكّد ما نقول أكثر أنّنا نلحظ التّقابل بين بعض أسماء سور القرآن الكريم أمثال: (الشمس والليل)، (المؤمنون والكافرون)، (الجنّ والإنسان أو الناس)،(المنافقون والإخلاص)، (الفجر والعصر). وهي سُوَر غير متجاورة. وكما هو معلوم أنّ " عنْونَة النّص تعني بالضّرورة تفسير له ، أو تقديم رؤية له أو عنه ، والعنوان يجب أن يدلّ بشكل أو آخر على نصّه "[5].

---

[1] . علم اللغة النصي ، 2 / 171 .

[2] . المرجع نفسه ، 1 / 337 .

[3] . محمد الخطابي ، لسانيات النّص مدخل إلى انسجام النّص ، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء ، المغرب ، بيروت، ط2 ، 2006 ، ص 202 .

[4] . ينظر: عبد الهادي عبد الرحمن، سلطة النص قراءات في توظيف النص الديني، سينا ، الانتشار العربي، لندن ، بيروت ، القاهرة ، ط2 ، د ت، ص 91 .

[5] . محمد عبد الباسط ، النص والخطاب ، ص 75 .

فالتقابلُ وإن كان يُظهر جدليّة بين طرفيه وتناقضا، فإنّه في أصله التحام وتبادل بين هذين الطرفين، وتفاعل بينهما، لإقامة علاقة جديدة تُلقي بظلالها على السّياق فتتفاعل من خلالها جزئيات النص، وتتشابك علاقاته ويتفعّل إطاره العام جماليّا ودلاليّا .

فالتقابل أسلوب تعبيريّ هامّ له دورٌ كبير في الرّبط بين أجزاء النّص القرآني. وهو يتطوّر من كلمات إلى تراكيب إلى موضوعات، فيعمّ مساحة كبيرة من السّورة، أو يعمّها كلها. ويتجاوز ذلك إلى السّورتين المتجاورتين أو حتى المتباعدتين، وإلى القرآن الكريم كلّه ، حتى أنّ بعضهم يرى السّور" كأنها استكمال لبعضها بعضا أو كأنها سورة واحدة اتّخذت فصولا وأبوابا"[1]، وحتى أنّنا لو جمعنا موضوعاته وقضاياه المتناثرة في سُوَره لوجدناها متقابلة، كموضوعات الإيمان والكفر، وصفات المؤمنين والكافرين، والجنة والنار، ومشاهد النّعيم والجحيم ... وبين المتقابليْن علاقةُ تآلفٍ وتناسبٍ وتماسكٍ .

ثالثا: بناء السّور على التقابل.

1 ـ بناء جزئي:

وفيه تكون السَورة مبنيّة بناء جزئيا على التّقابل، ومن ثمّليس له موضع ثابت فيها؛ فقدْ تبدأ السّورة به، وقد يكون في وسطها، أو في نهايتها. فهوـ عموما ـ يأتي بعد فكرة هامّة؛ برهنةً

[1] . محمود المصفار، سيميائية القرآن بين الحجاج والإعجاز، شركة منى ، صفاقص ، تونس ، د ط ، د ت ، ص 46 .

عليها،أو توضيحا لها، أو تدعيمها، أو يأتي في إطار المقارنة بين حالتين ... وهذا حسب سياق تعبيرها وجوّها العام .

وفي ما يلي نموذجان :

أ ــ تقابل في وسط السورة:من ذلك يقول تعالى :

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

ص: 49–64 .

هذه الآيات من سورة (ص) تُقابِل بين المتّقين والطّاغين في سياق واحد في وسط السّورة (من الآية9 إلى64)، فعدَدُ آياتها 88 ، ومن أغراضها : " إثباتُ البعثِ حكمة جزاء العاملين بأعمالهم من خير أو شرّ. وجزاء المؤمنين المتقين وضدّه من جزاء الطاغين و الذين أضلُّوهم وقبّحوا لهم الإسلام والمسلمين . ووصْف أحوالهم يوم القيامة"[1].

فقد ذَكَر في البداية تكذيب قريش وعدَم اعترافهم بالوحدانية ، وقبْلَهم تكذيب الأقوام بالرّسُل، فاستحقّوا جميعا العذابَ. وطلَب منه الصّبر مثل هؤلاء الرّسل، وهُمْ داوود وسليمان وأيّوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل و اليسع وذو الكفل ـ عليهم السلام ـ ليذكر بعدها نتيجة هذا التّصديق أو عواقب التّكذيب وجزاءَ كلٍّ واحدٍ. يقول أبو حيان : " لمّا أمَرَه تعالى بالصّبر على سفاهة قوْمه، وذكَر جملةً من الأنبياء وأحوالهم، ذكَر ما يؤول إليه حالُ لمؤمنين والكافرين من الجزاء، ومقرّ كل واحد من الفريقين"[2]. فالمتّقون مآلُهم حَسَنٌ ؛ فقَدْ فَتّحت لهُم الجنة أبوابَها، والفاكهة الكثيرة والشّراب، والحُور العين، وهُوَ رِزْق دائم لا ينفَد.أمّا الطاغون فمآلُهمْ شرّ؛ جهنّم، حميم، غسَاق، وعذاب آخر، وعدَم التّرحيب بهم، والتّخاصُم .

---

[1]. التحرير و التنوير، 23/ 202.

[2]. أبو حيان الأندلسي ، البحر المحيط، 9 / 166 .

وقد مهّد لهذا التقابل بقوله تعالى :

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ص28.

هذه الآية المبنيّة هي الأخرى على التقابل كانت تمهيد التقابل آخر واسع بعْدَها، ذلك لأنّها لخّصَت حالتَيْ الفريقين وتباعدهما؛ حيث صرّحت نافيةً مستبعدةً مُنْكِرةَ بشدّة عن طريق الاستفهام أن يتَساوى الذين آمنوا وعملوا الصّالحات والمفسدون، والمتّقون والفجّار. ولعلّ ما يفيد ذلك تكراره لأداة الاستفهام «أم» في الآية والذي يفيد الارتقاء في الاستدلال لقَصْد زيادة التّشْنيع على مُنْكري البعْث والجزاء[1]. يقول الزمخشري عن الآية: " والمراد:أنّه لوْ بَطَل الجزاء كما يقول الكافرون . لاسْتَوَت عند الله أحوال مَنْ أصلح وأفسد، واتّقى وفجر، ومن سوّى بينهم كان سفيها ولم يكن حكيما "[2].

وبعد أنْ تكون للمتلقّي فكرةٌ مُسْبقة عن الفريقين، وما هُمَا عليه من إصلاح وإفساد، وتقوى وفجور يأتي تفصيلُهما في الآيات موضوع مبحثنا التي تُقابِل بينهما في منظرين.

إنّهما منظران مختلفان متقابلان من البداية ربَط بينهما السّياق، فشكّلا مشْهدا واحدا متماسكا، بَيَّن الصّورة وشرَحها،وأكّد ما كانت قد صرّحت به الآية (28) من السّورة . حيث "يبدأ المشهد بمنظرين متقابلين تمام التقابل في المجموع وفي الأجزاء، وفي السمات والهيئات"[3].

ويظهر هذا الاختلاف من خلال التقابل بين الفريقين في الجدول الآتي :

المتّقـــون	الطّاغـــون
هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾	هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾
جَنَّٰتِ عَدْنٍ	جَهَنَّمَ
مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾	يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾
مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾	هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾
وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾	وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾

[1] ينظر: التحريروالتنوير، 23/ 250 .

[2]. الكشاف، 4/ 90 .

[3] ينظر :فيظلالالقرآن، 5/ 3023 .

إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾

بدأ المنظر الأوّل بـ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَئَابٍ﴾ ، وبدأ الثاني بـ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَئَابٍ﴾.

وما ميّز البدايتين:

• النمط النّحويّ الواحد:

إنّ + خبرها مقدّما جار ومجرور+ اسمها مؤخّرا مسبوقا بلام التوكيد + مضاف إليه .

وهو ما يُظهِره الجدول الآتي :

المتّقون	وَإِنَّ	لِلْمُتَّقِينَ	لَحُسْنَ	مَئَابٍ
الطّاغون	وَإِنَّ	لِلطَّٰغِينَ	لَشَرَّ	مَئَابٍ

• التكـرار:

فقد تكرّرت بداية النمط « **وإنّ** » تكرارا كليّا ، وأيضا فاصلته «مآب» ، وتكرّر وسطُه تكرارا جزئيا «لَامَالجرّ ولام التّوكيد»، إضافة إلى «الياء والنون».وقد كان لهذا كلّه دورٌ جمالي ودلالي؛ حيث ساهَم في إيقاع الآيات من جهة، ونبّه على بداية الحديث عن كلّ مجموعة من جهة أخرى، وأكّد الفكرة ودلّل على أهميتها من جهة ثالثة .

ورغم هذا النّمط النحويّ الواحد والتكرار، إلاّ أنّهما مختلفان دلاليًّا تمام الاختلاف؛ فالفرْق كبير بين مَن دخل تحت لواء الإسلام مذْعِنا وابتَعد عن محارم الله وهم المتّقون، وبين مَن رفضه متكبّرا وانغمس في المحارم، وهم الطّاغون؛ فالمتّقون جمع المتّقي، وهو الذي اتّصف بالتّقوى، وهي"طاعةُ الله واجتناب محارمه... وأنْ لا يراك حيث نهاك، وأنْ لا يفقدك حيث أمَرَك"[1]. والطاغون جمع الطاغي ، وهو" الموصوف بالطغيان وهو: مجاوزة الحدّ في الكِبر والتّعاظم . والمراد بهم عظماء أهل الشرّك لأنهم تكبَّروا بعظمتهم على قبول الإسلام..."[2].

[1]. الصابوني ،صفوة التفاسير،دار الصابوني ، القاهرة،ط1،1417 هـ ، 1997 م ، 2/ 257 .

[2]. التحرير والتنوير، 23/ 285.

فالمجموعة الأولى تتنعّم في الجنّة بكلّ خيراتها، وهي رزْقُهم الدّائم الذي لا ينفد، بينما المجموعة الثانية تتعذّب في جهنّم بكلّ أنواع العذاب، وفوق هذا فَهُمْ يتخاصمون فيما بينهم. فقد أخبَر الله تعالى عن أقوال أهل النار وطوائفها بعضهم لبعض، فَهُمْ ـ بدَل السّلام ـ يتلاعنون و يتكاذبون ويُكَفّر بعضُهم بعضا، ويتبادلون الاتّهامات حول مُسَبِّب هذا المصير السّيء[1].

وقد خصّص التعبير القرآني لهذا التّخاصم والتكاذب والإنكار مساحةً أكثر، ما يوحي باهتمامه به من جهة، وناسَب ما جاء في بدايتها من التّصريح بشقاق المكذّبين وتكذيبهم وكثرة تساؤلاتهم وحواراتهم الجوفاء وتكبّرهم عن الإسلام من جهة أخرى. ولعلّها إشارة منه إلى أنّ الثرثرة والتّخاصم ديْدن الطّاغين في الدنيا والآخرة، وهو ما صَرَفَهم عن اتّباع الهدى خلافا للمتّقين. ورد في (التحرير والتنوير) عن بداية السورة: "وقد جاءت فاتحتها مناسبة لجميع أغراضها إذْ ابتُدِئت بالقَسم بالقرآن الذي كذّب به المشركون، وجاء المقسم عليه أنّ الذين كفروا في عزّة وشقاق وكلّما ذكر فيها من أحوال المكذّبين سبَبُه اعْتِزازُهم وشقاقُهم، ومن أحوال المؤمنين سبَبُه ضدّ ذلك"[2]. فربطت آيات التقابل بين تكذيبهم وشقاقهم وإنكارهم في الدّنيا بدايةً، وتكذيبهم وشقاقهم وإنكارهم في الآخرة بعد ذلك.وهو ما يَعْكس التّماسك بين بداية السّورة وبين هذه الآيات .

والغريب أنّهم جمعوا في أكْلهم بين النّوعين السيّئيْن المتقابلين؛ الحرارة الشّديدة والبرودة الشديدة . ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ يقول ابن كثير: " أمّا الحميم فهو الحارّ الذي قد انتهى حرّه وأمّاالغساق فهو ضدّه وهو البارد الذي لا يُسْتطاع من شدّة بَرْدِه المؤْلم ... وأشياء من هذا القبيل: الشّيء وضدّه يُعَاقَبُون بها.إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادّة والجميع ممّا يعذّبون به ويُهَانون بِسَبَبِه "[3].فقد نوّع لهم سبحانه وتعالى العذاب، فعَاقَبَهم بالنقيضيْن، وكِلاهُما لا خَيْرَ فيه، لأنّهما بَعِيدان عن الاعْتِدال، " فالحميم يحرق بحرّه، والغساق يحرق ببرده "[4]. ولعلّ هذا ما يكونون فيه أشدَّ عذابا، وأقلّ صبرا

[1]. ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون ، بيروت ، ط1، 1419 هـ ، 7/ 69 .

[2]. التحرير والتنوير، 23/ 203 .

[3]. ابن كثير،تفسير القرآن العظيم ، 7/ 69 .

[4]الكشاف، 4/ 101 .

وأكثر إهانة . ومن ثمّ فلا يشعرون بالراحة لحظة، وقد ذاقوا العقاب بمختَلِف أنواعه في مقابل أنواع الراحة والتنعّم للفريق الجنة .

ومن جهة أخرى، ففي هذا التقابل بين الفريقين استعمل :

• اسم الإشارة « هذا » :

وقد ورَدَت في رؤوس الآيات تنبيها على نهاية فكرة وبداية أخرى جديدة، وعلى انتقال الكلام من غرض إلى غرض. ومن ثمّ فهي تفْصِل الكلام السّابق عن الكلام الآتي بعدها[1]. وهو ما يجعله أخبارا مختلفة مستقلّة عن بعضها البعض من جهة، وما يعني أهميّتها و الاهتمام بها من جهة أخرى . يقول الزمخشري عن سرّ وجود «هذا» : "... كما يقول الجاحظ فيكتبه : فهذا باب، ثم يشرع في باب آخر، ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتاب هو أراد الشروع في آخر: هذا وقد كان كيت وكيت، والدليل عليه: أنّه لما أتمّ ذكر أهل الجنّة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال: هذا وإنّ للطاغين"[2].

وقد ذُكِرت بهذا المعنى، أي فصْل ما بَعْدها عمّا قبْلَها مرّة واحدة فقط مع «المتّقين » :

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾﴾.

وذُكِرت ثلاث مرّات مع « الطاغين » : ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ... هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ... هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ...﴾ . ولعلّ في هذا اهتماما بتكثير الأخبار السّيئة عنهم، وأنّها في مجموعها أخبارُ عذابٍ يختلف بعضها عن بعض ، ما يوحي بتنوّعها وشدّتها، وما يزيد في إهانتهم وإذلالهم ، ردّا على تكبّرهم في الحياة الدنيا عن اتّباع ما جاء به سيّدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

• أدَاتَيْ التوكيد « إنّ واللام » في كلّ طرف من طرفيْ التقابل .

والإخبار بأكثر من توكيد في الكلام يكون ضربُ خبرِه إنكاريّا[3]. وفي هذا ردٌّ واضح على« الطّاغين »الذين ينكرون ما أقرّته الآيات مِن بعْث النّاسِ وحسَابٍ لهُم، ومِن ثمّ جنّة وثواب ونعيم للمتّقين، ونار وعقاب وجحيم للطّاغين، والخطاب مرّكز لهؤلاء الأخيرين.وفي الوقت نفسه

---

[1]. ينظر: التحريروالتنوير، 23/ 280 .

[2]. الكشاف، 4/ 100 .

[3]. ينظر: عيسى علي العاكوب ، علي أسعد الشتيوى، الكافي في علوم البلاغة العربية (الكتاب الأوّل : المعاني)، منشورات الجامعة المفتوحة ، 1993 ، ص 76.

تنزيلُ غيرِ المنكرين، وهُم «المتّقون» منزلةَ المنكرين، حتى لا يغفلون ويستعدّون لهذا اليوم العظيم، فيكون بالتالي قد خاطب الطّرفين؛ فَبَشّر وأنذر، وأخْبَرَهما بمآليهما.

ب ـ تقابل في آخر السّورة :

من ذلك يقول تعالى:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٥﴾الزمر 71 إلى 75.

في سورة (الزمر) حديثٌ طويل عن الآخرة ومشاهد القيامة من بدايتها إلى نهايتها. يقول سيد قطب عنها: " هذه السّورة تكاد تكون مقصورة على موضوع واحد متّصل من بدْئها إلى ختامها يعْرض في صُوَر شتّى، وهو قضيّة التّوحيد وحقيقته، فخيّمت عليها الآخرة . ومن ثمّ تتلاحق فيها مشاهِدُ القيامة أو الإشارة إليها في كلّ مقطع من مقاطعها الكثيرة. فتكاد كلّ جولة منها تختم بمشهد من مشاهد القيامة، أو ظلّ من ظلالها"[1].

ومن ثمّ فقدْ خُتِمت السّورة بمشهد من مشاهد القيامة الذي هو مصير كلّ مخلوق، الناسُ فيه فريقان؛ فريق سيق للنّار، وآخر سيق إلى الجنّة، فكان التّقابل بين الذين كفروا، والذين آمنوا في آخرها كنتيجة وخلاصة عامّة لها. وهي نتيجةٌ ومآلٌ ينتهي إليه كلُّ إنسان،ومنْ ثم لابدّ من أن يعمل ويتهيّأ له .

ويتّضح التّقابل بين المجموعتيْن أكثر في الجدول الآتي :

الذين كفروا	الذين اتّقوا ربّهم
وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا	وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

[1]. ينظر: في ظلال القرآن ، 5/ 3033 ، 3034 .

جَآءُوهَا	جَآءُوهَا
فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ	وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا
أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ	سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾
وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ ﴿٧١﴾	وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ
قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ	نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۚ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾
فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾	

ففي هذا التّقابل بدأ بالذين كفروا، فيما أنّه أخّر المتّقين، ذلك لأنّهم يمثّلون الأساس في السّورة الذي دار حوله الحديث، وهمْ المقصودُون فيها. يقول ابن عاشور:" وابْتُدِىءَ في الخَبر بذكر مستحقّي العقاب لأنّه الأهمّ في هذا المقام إذْ هو مقام إعادة الموعظة والتّرهيب للذين لم يتّعظوا بما تكرّر في القرآن من العظات مثل هذه فأمّا أهلُ الثّواب فَقَدْ حصَلَ المقْصود منْهم فما يَذْكُر عنْهم فإنّما هو تكريرُ بِشارةٍ وثناءٍ"[1].

وبدأت كلّ مجموعة بـ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ... ﴾، "والسَّوْقُ أنْ يجْعل الماشي ماشياً آخر يسير أمامه ويُلازمه، وضدّه القَود، والسّوْق مُشعِر بالإزعاج والإهانة "[2].وإذا كانت كلّ مجموعة بدأت بـ «سيق»، فإنّ "إطلاق فعْل السَّوق على تَقْدِمَة المتّقين إلى الجنّة هو على طريقة المشاكلة لـ«سيقَ» الأولى"[3].ذلك حتى يُنْبئ عن بداية الحديث عن الفريق الثاني المقابِل من جهة، ويحقّق دورا إيقاعيًا عن طريق التكرار من جهة أخرى ...

أمّا دلالة «سيق»الثانية فتختلف عن الأولى ـ كما يرى العلماء ـذلك لأنّ حال المتّقين يختلف عن حال الكافرين، ومعاملة المجموعتيْن تختلف أيضا.يقول الزمخشري:" المراد بسَوْق أهل النار: طرْدُهم إليها بالهَوَان والعُنْف، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السّلطان إذا سيقوا إلى حبْس أو قَتْل. والمُراد بسَوْق أهْل الجنّة: سَوْق مراكبهم، لأنّه لا يذهب بِهِم إلّا راكبين، وحثّها إسراعا بهِمْ إلى دار الكرامة والرّضوان، كما يفْعل بمَن يُشرّف ويكرّم من الوافدين على بعض

[1]. التحرير والتنوير، 24/ 69.

[2]. المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

[3]. ينظر: المرجع نفسه ، 24/ 71.

الملوك، فشتّان ما بين السَّوْقيْن"[1].وفي هذا أيضا يقول البقاعي: " فشتّان ما بيْن السّوْقيْن هذا سوْق إكرام، وذاك سوْق إهانة وانتقام، وهذا لعمري من بدائع أنواع البديع، وهو أنْ يأتي سبحانه بكلمة في حقّ الكفار فتدلّ على هوانهم بعقابهم، ويأتي بتلك الكلمة بعينها وعلى هيئتها بحقّ الأبرار فتدلّ على إكرامهم بحسن ثوابهم "[2].

يقول تعالى عن الفريقين :

•﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ ...﴿٧١﴾﴾.

•﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا ...﴿٧٣﴾﴾.

فالفرْق بينهما أنّ الفعلَ «فُتحت»في آية الكافرين لم يُسبَق بـ «الواو»التي يُسمّيها بعضُهم «واو» الثمانية[3].وعدم ذكرها هنا جعل﴿ فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا ﴾جوابَ «إذا».

بينما في آية المتّقين ذكر«الواو»، وهو ما جعل ما بعد«إذا» في قوله تعالى:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ يدخل ضمن جملة الشرط، و الجواب محذوف. وحذفه هنا أفضل من ذكره، لأنّ كلّ موضع حُذِف فيه في القرآن الكريم فالحذف أفضل من الذكرـ كما يقول العلماء ـ .فبالحذف يتّسع المجال الدلالي للآية، وتكثر إيحاءاتها وتأويلاتها،"إذ الحذف من طرائق تكثير الدّلالات وتجديدها "[4]. وهو ما نجده في هذه الآية ؛ فنتيجة المتّقين وجزاؤهم في الجنّة لا يَضْبِطه ضابط ولا يَحْصُره جواب، فهُمْ أصحاب كرامة وتعظيم غيْر محْصوريْن، لأنّه لوْ ذكر الجواب لحدّدها وحصَرها، وهو ما يتنافى مع نعيم الجنّة .يقول الزمخشري : "وإنّما حذف لأنّه صفة ثواب أهل الجنّة، فدلّ بحذفه على أنّه شيء لا

---

[1]. الكشاف ، 4 / 147.

[2]. برهان الدين البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ، د ط ، د ت ، 16 / 567 .

[3]. إضافة إلى هذه الآية استشهدوا لها بآيات من القرآن الكريم منها:﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾التوبة: 112.﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارًا ﴾التحريم: 5. ولعلّهم استمدّوا هذه التسمية من كونها تعطف الثامن على السابعفي هذه الآيات ،ومن قوله تعالى:﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ ﴾الكهف: 22، والتي عطفت (ثامنَهم)على (سبعة)وقد علّل ابن خالويه هذه التسمية بقوله:" هذه الواو تسمّى واو الثمانية لأنّ العرب لا تعطف الثمانية إلا بالواو".(ينظر: البرهان، 3/ 122).

[4]. بلقاسم حمام ، آليات التواصل في الخطاب القرآني (مخطوط دكتوراه) ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة الحاج لخضر، باتنة ، السنة الجامعية 2004 / 2005 ، ص 218 .

يحيط به الوصف"[1].وعن فائدة وسرّ هذا الحذف،يقول البقاعي: "أنْ تذهب النّفس فيه من الإكرام كلّ مذهب، وتعلم أنّه لا يحيط به الوصف، ومنْ أنْسب الأشياء أن يكون دُخولُهم منْ غبر مانع من إغلاق باب أو منْع بَوَّاب، بل مَأذونا لهُم مُرَحّبا بهِم إلى ملك الأبد "[2].

من جهة أخرى فحَذْفٌ«الواو» دلّ على أنّ أبواب جهنّم فُتِحَت حين جاءوها ؛ فالفتْح مقيّد بمجيئهم. وَرَدَ في «البرهان» أنّ أبا علي قال :" إنّما تركت «الواو»في النّار، لأنّها مغلقة، وكان مجيئهم شرطا في فتحها، فقوله :﴿فُتِحَتْ ﴾فيه معنى الشّرط ، وأمّا قوله:﴿وَفُتِحَتْ ﴾في الجنّة فهذه«واو» الحال، كأنّه قال: جاؤوها وهي مفتّحة الأبواب؛ أو هذه حالُها"[3].فإغْلاقُ الباب عن القَادِم، وانتظارُ فَتْحِه إهانةٌ له، والذّكر في الثانية دلّ على أنّ أبواب الجنّة كانت مُفتّحة قبل أنْ يأتُوها، وفتْحُها قبل مجيئهم تكريم وتشريفٌ لهم .

إضافة إلى ذلك فجهنّم سِجْن، والسّجن ذلك شأنُه، والجنّة دارُ كرامة وتشْريفٍ، فرحّبَت بهم قبل مجيئهم[4].وبين الغلْق والفتْح، والانتظار والدّخول مباشرة، والإهانة والتّكريم ... فَرْقٌ شاسِع، وبَوْن عظيم،كالفرْق بين الذين كفروا والذين اتّقوا ربّهم، وبين جهنّم والجنّة .

وفي المشهديْن حوارٌ ساهَم في التّشخيص، وقرّب الصّورة، وعزّز آليات التّواصل، ليُساهِم في التّأثير والإقناع ...تَمثَّل في سؤاليْن من الخزنة :

•قال خزنة النّار لأصحابها :﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ ﴿٧١﴾﴾،وهو استفهام غرضه التّوبيخ والتّقريع .

• قال خزنة الجنّة لأصحابها:﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ ويظهر رسْمُ صورةِ الخزنة من الملائكة بعْد صورة أبواب الجنّة وقَوْلهم للمتّقين، زيادةً في التكريم والتّرحيب بأهلها[5]. فيظهر من خلالهما الفارقُ بين الخطابيْن؛ تعنيف للفريق الأوّل ولين وترحيب بالفريق الثاني .

---

[1]. الكشاف ، 4/ 147 .

[2]. البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، 16 / 569 .

[3]. البرهـان ، 3 / 122 .

[4]. ينظر: المطعي ، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، مكتبة وهبة، القاهرة ، ط1 ، 1992، 2 / 12.

[5]. ينظر: عبد السلام الراغب ، وظيفة الصورة الفنيّة في القرآن الكريم، فصّلت للدراسات ، حلب ، ط1، 2001 ، ص364.

وهُما سؤالان يُوَلّدان في نفسَيْ كلّ فريق أفكارا ماضية، وأخرى جديدة، ويكشفان حالةَ كلّ منْهما ومآلَهما. فأهميّة الحوار تكْمُن " في تسليط الضّوء بشكْل مباشر على الشّخصيات، وفي اطّلاع المتلقّي على خفايا تكْوِيناتها النّفسيّة "[1].

أمّا التّعقيبان في آخر كلّ مشهد فكانا:

• لأصحاب النّار: ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ .

• ولأصحاب الجنّة: ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

وهي معانٍ وصُوَر جزئيّة متقابلة تُكوِّن في مجموعها التقابل الكلّي للمشْهد، وتقدّم الصّورة الكليّة المتكاملة له والمُفصَّلة والواضحة. وهكذا" فالتقابل في النّص يُنبّهنا على أدقّ المعاني والأفكار، ويوقِظُنا على ألْطَف الصّور التي تفْرض على المتلقّي إدْراكَها دون أنْ يقَع في اللّبس أو الغُموض أو التكلّف أو التّأويل البعيد لأنّه نصّ مُوحٍ بوظيفته وهَدَفِه"[2]. ومُلقٍ بظلاله الجماليّة إلى هذا القارئ . فهُو يُوضِّح كلَّ طرَف مِنْ طرَفَيْ التّقابل، ويُفْصِح عن خصائصه التي تميّزه عن مقابِلِه، وتُبْعِده عنه، وتوضّح الهوّةَ بينهما، فتتّضح من خلاله الصّورة ويبْرُز المعنى، وتتجسّد الدّلالة. فيكون هذا القارئ معجبا بالجنّة ومُغبِّطا أهْلِها، ونافرا من النار ومُشْمئزّا من أهلها، ويكون أيضا في هذه الحالة بيْن خياريْن اثنيْن؛ إيمان أو كفر، من العامِلين أو منَ المتكبّرين، ترْحيب وتكْريم وتعْظيم أو تعْنيف وذلّ وتهْوين، جنّة مفتوحة مُرحِّبة أو نار مُنتظِرة مُتوعِّدة ...

وهو ما تُريد الآياتُ أنْ تصِل إليْه ، خاصّة أنّ هذا التّقابل ورَدَ في آخر السّورة خلاصةً وغايةً لها، ليجْعل المرْءَ يختار إحْدى الزّمْرتيْن؛ الذين اتّقوا ربّهم من أهل الجنّة، أو الذين كفروا من أهل النّار، ولعلّ هذا يكشِف سرَّ تسْميتها .

فالتقابل كثيرا ما يأتي في بداية السّورة القرآنية، أو وسطها، أو آخرها، كنتيجة وخلاصة ودعْما لما سبقه من أفكار، وبرْهنة على ما وَرَدَ من معان ومواقف فيها وأوامر ونواهٍ هامّة ... تطرّقت إليها وشرَحَتْها، وأرادت أنْ تصِلَ من خلالها إلى غاية وهدَفٍ مركّزَيْن ترمي إلَيْهما وتؤثّر في النّاس وتُقْنِعهم في اختيار السّبيل السّليم، وتفضيل أحد طرفيْ التّقابل بعْد الجمْع بينهما، وكشْفِهما وإظهار ما يتميّز به كلّ واحد ...

---

[1]. يادكار لطيف الشهرزوري ، جماليات التلقّي في السرد القرآني ، دار الزمان ، دمشق ، ط1 ، 2010 ، ص77 .

[2]. حسين جمعة ، التقابل الجمالي ، ص 251، 252 .

2 ـ بناء كليّ:

اعتمد القرآن الكريم ـ عموما ـ في موضوعاته وشخصياته وسُوَره على التقابل؛ فما مِن موضوع هامّ إلاّ وبُنِيَ عليه،وما منْ سورة ـ تقريبا ـإلاّولها نصيب فيه، قلّ أو كثُر. وكثيرٌ منه ابُنيَ بناء كليّا على التقابل. وقد ورد هذا البناء الكليّ بنوعين:

أ ـ على شكل ثنائيات:

وفيه تكون السّورة مقطّعة إلى أجزاء على شكل ثنائيات؛ مفرداتٍ، أو جمل قصيرة أو فقرات محدودة الطول متقابلة، واحدة بعد أخرى في ثنايا السورة. وتتداخل هذه الثنائيات المتقابلة المختلفة وتتشابك العناصر والجزئيات والصور بعضها في بعض، لتقدّم صورة عامة عن والسّورة ومضمونها.من ذلك سُوَرة (الرعد).

بُنيتْ هذه السّورة من أوّلها إلى آخرها على التقابل،هذا الأخير ورَدَ على شكْل ثنائياتٍ؛ مفردات مثل: صنوان وغير صنوان، الحسنة والسيئة، المغفرة والعقاب، الأعمى والبصير، الظلمات والنّور، الغيب والشهادة، البرّ والبحر، أسرّ وجهَر، اللّيل والنّهار، يبسط ويقدر، الدنيا والآخرة، المتّقون والكافرون ...أو على شكل فقراتٍ مثل: السّموات وما يتّصل بها ، والأرض وما يتعلّق بها، صفات الموفين بعهد الله ومآلهم وصفات المنقضين لعهده ومآلهم، الحقّ وبقائه ومنافعه والباطل وتلاشيه وأضراره ... يقول الصابوني في مناسبة الآيات من 17 إلى34: " لمّا ذكر تعالى في الآيات السّابقة أنَّ في الأرض دعوتين: دعوة الحق، ودعوة الباطل، وذكر أنّ دعوة الله هي دعوة الحق، ودعوة ما يعبدون من دونه هي دعوة الباطل ... ذكر تعالى هنا مثَلَيْن ضربهما للحق وأهله، والباطلِ وحزبه، ليتّضح الفرق بين الهدى والضلال، والرّشد والغيّ، ثم أعقبه بذكر مآل المؤمنين في دار النعيم، والكافرين في دار الجحيم"[1].

وفي مناسبة ما بقيَ من آيات السورة يقول أيضا:" لما ذكر تعالى ما أعدَّ للكفار في الآخرة ذكر ما أعد للمؤمنين في جنات النعيم، ثم تَوَعّد المشركين بالعذاب الأليم "[2].

ولعلّ هذا يلخّص لنا مضمونَ السّورة، ويبيّن بناءَها على التقابل،" فمنْ خلال قراءة سورة (الرعد) ضمن محْور الثّنائيات الضديّة نجد احتواءها على عدّة أشكال من الثنائيّات الضديّة متعدّدة من حيث مكوّناتها البنائيّة "[1].

---

[1]. صفوة التفاسير، 2/ 73 .

[2]. المرجع نفســه، 2/ 79 .

وهذه نماذج منها :

يقول تعالى ابتداء من الآية الثانية :

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ الرعد: 2– 3.

يظهر التقابل في الآيات في مظاهر الكون، من خلال إبراز دلائل قدرته سبحانه وتعالى فيه :

• وأوّل مظاهر قدرته هو رفْع السماوات ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ...﴿٢﴾﴾ وما يتّصل بها من استواء على العرش و تسخير الشّمس والقمر.و" لما قرّر الدلائل السّماوية أرْدَفَها بتقرير الدّلائل الأرضيّة"[2]،لأنّ الذي يقْدِر على الرّفع يقدِر أيضا على المدّ. ومن ثمّ ثنّى بما يقابل رفْعَ السّموات، وهو مدّ الأرض﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ...﴿٣﴾﴾، وما يتّصل بها أيضا من جَعْل الرّواسي والأنهار والثّمرات.هذه الأخيرة جعل فيها زوْجيْن، والمقصود بالزوجين ـ كما قال الزمخشري ـ:" الأسود والأبيض، والحُلْوُ والحامض، والصغير والكبير، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة"[3]،وغيرها. وهي جميعها متقابلات مختلفات تعكس قدْرتَه سبحانه وتعالى كونها تُسْقى مِنْ ماء واحد. ولعلّ ما يُثبت ذلك أيضا أنّ الآيات مبنيّة عليه سبحانه وتعالى؛ فكلّ طرف من طرفيْ التقابل بدأ بلفظ الجلالة « الله الذي، وهو الذي »، فهو مِحْورُ الكلام.

• ومِنْ خلْقِ الزّوجين اللّيلُ والنّهارُ، وهما مختلفان متناقضان جمَع بينهما في سياق واحد﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴿٣﴾﴾، فلم يخلق طرَفا دون آخر، بل خلَقَهُما الاثنين وأنْشأَهما، فكانت الثّنائية بين هذين المتناقضين هي التي بيّنت لنا عظمَتَه سبحانه وتعالى[4]. وقد يقدِر غيرُه على شيء، لكن لا يقدر على مقابله، وهنا يكْمُن ضعفُه ، ويظهر عجْزُه .

ومن ذلك أيضا يقول تعالى:

---

[1]. ينظر: مازن موفق صديق ، بلاغة الخطاب ومرايا اللغة دراسة نصية ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ط1 ، 2015 ، ص 11.

[2]. أبو حيان ،البحر المحيط ،5/ 354 .

[3]. الكشاف ، 2/ 512 .

[4] . ينظر: مازن موفق صديق ، بلاغة الخطاب ومرايا اللغة دراسة نصيّة، ص 9 .

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾الرعد:20 – 25 .

ففي هذه الآيات يتناول سبحانه وتعالى في فقرة الحديثَ عن فريقين مختلفتين هما:«الذين يوفون بعهد الله »، ويقابلها « الذين ينقضون عهد الله»، ولعلّ الجدول الآتي يبيّن ذلك أكثر:

المقاطع	المُوفُون بِعهْد الله	الناقضون عهْد الله
المقطع:1	ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾	وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ
	وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ	وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
المقطع:2	وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾	
	وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ	وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ
	وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ	
	وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ	
	وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ	
	أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾	
المقطع:3	جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ	
	وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ	أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ
	وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ	
	عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ	
المقطع: 4	فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾	وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾

يلاحظ في هذا التقابل من خلال الجدْول المقسّم إلى أربعة مقاطع ما يلي:

المقطع:1.

وصَف المجموعة الأولى وهي«الموفون بعهد الله» بمجموعة من الصفات الفاضلة وهي: « الوفاء بالعهد، عدم نقض الميثاق، وصْلُ ما أمَر الله أنْ يُوصَل». تقابلها أخرى سيّئة للمجموعة الثانية وهُم «الناقِضُون عهْد الله». وهذه الصفات هي:«نقْض عهد الله ، وقطْعُ ما أمَرَ الله أنْ يُوصَل».وقَد كانت بداية كلّ مجموعة بـ :

قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ﴿٢٠﴾﴾، وقوله أيضا :﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ ﴿٢٥﴾﴾. وهو تكرار ينبئ عن البداية، ما يكون له دور إيقاعيّ من جهة، ويُبْرِز الفارق أكثر بين المجموعتين من جهة أخرى . ذلك لأنّ هذا التكرار يُظهِرهما متشابهيْن، لكنّ الفارق الدّلاليّ كبير :

قوله تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ...﴿٢١﴾﴾.

وقوله أيضا:﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ...﴿٢٥﴾﴾.

وبعد التأمّل يظهر الفارق شاسعا بين الوفاء والنقض، وبين الوصْل والقطْع... وهو ما تريد الآيات الوصول إليه .

ومن جهة أخرى، فقد كرّر الاسمَ الموصول «الذين» مع «المجموعة الأولى»، ثلاث مرات. بينما مع « الناقضين عهْد الله » اكتفى بذكْره مرّة واحدة .وفي هذا التّكرار دلالةٌ؛ حيث تظهر صفاتهم الحسنة مستقلّةً عن بعضها البعض، ما يفيد تكثيرَها.وفي هذا إظهار لهُمْ أكثر،وهو ما يلائم سياقَهم ويناسب مدحَهم وتعدادَ صفاتهم الحسنة. بالمقابل إهْمال « مجموعة الناقضين».

المقطع :2 . سَرَدَ صفات وأعمال المُوفين بِعهْد الله، وهي:خشيةُ الله وخوْفُ حسابه، الصبر، إيقام الصلاة، الإنفاق في السرّ والعلانية، درْء السيئة بالحسنة. وهي صفات وأعمال حسَنة جليلة مدَحَهم بها الله ـتعالى ـوتُناسِب وفاءَهم بعهده .

في حين أنّه في الطرف المقابِل وهُم «الناقِضُون عهْد الله » أوْجَز الحديثَ عنهم، فلَم يُصرّح لهم في هذا المقطع بصفة قبيحة أو عمَل واحد ، بل لخّصها كلّها في قوله تعالى:﴿ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴿٢٥﴾﴾.وهي صفة واحدة قابلت ما اتّصف به الصّنف الأوّل من صفات حسنة.

ولعلّ في هذا التعبير دلالةً، وفي هذا التلخيص كفايةً ، لأنّه نفَى عنهم كلّ حَسَن، وعبّر عن كونهم ليس لهم عمل واحد فيه إصلاح ، خلافا لو عدّدَ صفاتهم السّيئة التي تقابل صفاتِ

المجموعة الأولى. فالتصريح بهذه الصفات السيئة لا ينفي عنهم الحسَن في مواطن غيرها وفي أعمال أخرى، وهو ما لم يتحقّق.

المقطع:3 . ويمثّل هذا المقطع جزاءَ كلّ مجموعة لما عمِلتْه واتّصفت به . فكـان جزاء الأولى الجنـة﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ ﴿٢٣﴾﴾، وترحيب الملائكة بهِمْ والتّسليم عليهم."وذِكْرُ الأقارب هنا والأحباب في المشهد يُلامِس المشاعر والقلوب، ويوحي بالعمل الصالح الذي يجمعهم كلّهم في مشهد النّعيم"[1]. ولعلّ تقديم«جنّات»هنا للتّعجيل لهُم بالمسرّة، وزاد أنْ كرّرها عن طريق الضّمير في« يدخلونها» لتأكيد الدّخول... كلّ هذا تكريم وتشريف لهُمْ.

أمّا جزاء الثانية فقدْ لخّصته الآيات في قوله تعالى:﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾. واللّعنة هي" الطّرد والإبْعاد من الرحمة"[2]. ومَن طُرِد مِن رحمة الله فقَدْ حُرِم كلّ شيء، ولم يبْقَ له أيُّ شيء؛ فقد نفَتْ عنْهم الآية كلّ ما يُريح ولو كان قليلا . ومِن ثمّ فقدْ كان هذا التّعبير أفضلَ مِن لوْ حرَمَهم ممّا يقابل الصفات الأولى، لأنّ حرمانهم منْهالا يَنْفي عنْهم حرْمانَهم منْ غيرها. وفي هذا ملاءمة لِما ورَد في المقطع:2 من تعبير بالإفساد في الأرض، بدَل تِعْداد الصّفات السّيئة .

وهكذا ناسَب جزاءُ المجموعةِ الأولى صفاتِهم وأعمالَهم، وناسَبت لعنةُ المجموعةِ الثانية إفْسَادَهم في الأرض، وناسَب التعبيرُ السّياقَ ومكانةَ كلّ مجموعة. وفي الوقت نفسِه أظهر التباين الكبير بينهما .

المقطع:4 . ويمثّل هذا المقطع تعقيبيْن لِما سُرِد عَنِ الصّنفين وتذييلين لما سبَق من صفات وأعمال حَسَنة اتّصف بها «الموفون بالعهد»، وصفات وأعمال سيئة اتّصف بها «الناقِضُون». " والتعقيب في الآيات هو ذلك الجزء أو المقطع الذي يأتي في ختامها تُذيّل به الآية زيادة في البيان ومحافظة على وحدة الإيقاع "[3]. وهو لا يدخل في مضمون الآية التي تسْبِقه أو ضِمْن أحداث القصّة التي يَعْقبُها رغم ما يقوم به من وظيفة هامّة في النّص القرآني .

والتعقيبان هما :

---

[1] . عبد السلام الراغب ، وظيفة الصّورة الفنيّة في القرآن الكريم ، ص 364.

[2] . القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، 9/ 314.

[3] . أحمد أبو زيد ، التناسب البياني ، ص 91 .

• قوله تعالى﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾،أي " نعم عاقبة الدار التي كنتم فيها "[1]. وهو تعقيب يمدح فيه حالتَهم عن جزاء المجموعة الأولى، وما آلت إليه من راحةوسعادة بما صبرت .

• وقوله تعالى﴿ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾،أي " سوء المنقلب، وهو جهنم"[2]. وهو تعقيب أيضا عن جزاء المجموعة الثانية، وما آلت إليه منْ همّ وغمّ .ولعلّ ما ذكرناه سابقافي مناسبة الآيات وما قبلها يؤكّد ذلك .

وقد فصَل هذان التعقيبان الموقفَ وحسَماه، وبَيَّنَا مصيرَ كلِّ مجموعة، وزاد كلٌّ واحد منهما ما سَبقَه بيانا وتوضيحا وتأكيدا، وناسَب ما ذُكر قبله مِن صفات وأعمال. إضافة إلى مساهمتهما في إيقاع الآيات؛ ناسب به التعقيبُ الثاني فاصلةَ التعقيبِ الأوّل:﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾، وهو بدوره ناسب فاصلةَ الآية 23 :﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾.

والفرق بين الآيتين أنّ الأولى تعقيبٌ يمدح ويَصِف المصير الفاضل، والثانية إخبارٌ ووَعيدٌ بهذا المصير. فالتعقيبات" تجمع بين وظائف معنويّة لكوْنها تزيد معاني الآيات بيانا وإيضاحا، ووظائف جماليّة لكونها تمهّد للتناسب الإيقاعي في رؤوس الآيات وفي فواصلها "[3].

فمِن مقاصد السّورة عامة أنّها أقيمت على أساس إثبات صِدْق الرّسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما أوحي إليه من إفراد الله بالإلهية والبعث وإبطالِ أقوال المكذّبين، وبيان مكابرة المشركين ومقابلة ذلك بِيَقِين المؤمنين وما أعد الله لهم من الخير[4]،وهو ما وصلت إليه وقرّرته .

ب ـ على شكْل فقرتيْن:

وفيه تنقسم السّورة ـ عموما ـ إلى فقرتين متقابلتَيْن؛فبَعْدَ أن ينتهي من الحديث عن الطرّف الأوّل ينتقل إلى نظيره المقابِل.وهو نوْع نجده في السّور غير الطويلة، لأنّ هذه الأخيرة لا يمكن أنتكون ذات قسميْن فقط، بل تتعدّد فيها الموضوعات والأفكار والأجزاء بسبب طولها.ومن ثمّ فهذا النّوع من التقابل يتلاءم معسُوَر الرّبع الأخير أمثال: النّبأ، المطفّفين، الغاشية ...

وفي ما يلي سنحلّل سورة(المطفّفين) كاملةً .

يقول تعالى :

---

[1]. القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، 9/ 313 .

[2]. نفســـه، 9/ 314.

[3]. أحمد أبو زيد ، التناسب البياني ، ص 91 .

[4]. ينظر: التحرير والتنوير، 13 / 76 ، 77 .

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ المطففين: 1– 36 .

هذه آيات سورة (المطفّفين) كاملةً، وهي إحدى سُوَر الرّبع الأخير،ليست من السّور الطوال، ولا من القصار جدّا.والمطفّفون هم الذين يُنقصون في الكيل والوزن. وأصل التّطفيف النّقصان، من الطّفيف وهو الشّيء اليسير[1]. وقد وعَدَهم سبحانه وتعالى بالوَيْل والهلاك والعذاب يوم القيامة.والمطفّفون هم موضوع السّورة ومحورها .

بُنيت السّورة بناء كليّا على التقابل، حيث انقسمت إلى قسمين متقابلين،قبلهُما تمهيد .

• التمهيد (من الآية1إلى الآية 6):حذّر فيه ـ سبحانه وتعالى ـ من التّطفيف في الكيل والميزان، وأنّ مَن يقوم بهذا سيُحاسَب يوم القيامة، وهو يوم عظيم، فيه يقوم الناس للحساب والعقاب . ومن ثمّ ينقسمون إلى فئتين متقابلتين .

• القسم الأوّل(من الآية 7 إلى الآية17):تحدّث عن فئة «الفجّار»، وأصْل الفُجور الْمَيْلُ عَنِ الْحَقِّ، فأَفْجَرَ الرجل إذا كَذَبَ، وأَفْجَرَ إذا عَصَى، وأَفْجَرَ إذا كَفَرَ، وفَجَرَ الإنسانُ يَفْجُرُ فَجْراً

[1]. ينظر: صفوة التفاسير ، 3/ 506.

وفُجوراً: فَسَقَ وانْبَعَثَ فِي الْمَعَاصِي. وَالْمَحَارِمِ[1]. لذلك فقَد وصَفَتهم الآيات بكلّ هذه الصفات السّلبية. ومن ثمّ فمآلهم هو أنّهم «محجوبون عن ربهم، وفي سجيّن وجحيم ...».

•القسم الثاني (من الآية 18 إلى الآية 28): انتقل فيه إلى الحديث عن فئة«الأبرار»،وقد جَمَعت خيرَيْ الدنيا والآخرة بِجَمْعِها للصفات الحسنة. فقَدْ ورَدَ أنّ البِرّ هو الصِّدْقُ والطاعةُ والْخَيْرُ والصَّلَاحُ والتُّقى... والبِرّ ضِدُّ العُقُوق،وَهُوَ الإساءةُ وَالتَّضْيِيعُ حَقّ الوالدين ... والبِرّ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَخَيْرُ الدُّنْيَا مَا يُيَسِّرُهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْعَبْدِ مِنَ الهُدى والنِّعْمَةِ والخيراتِ، وخَيْرُ الآخِرَةِ الفَوْزُ بِالنَّعِيمِ الدَّائِمِ فِي الْجَنَّةِ ...وفلانٌ يَبَرُّ خالقَه أَي يُطِيعُهُ[2].وهي صفات فاضلة، ومعتقدات صالحة يتمتّع بها مَن هو مؤمن، وجمَعَتْها كلمة « أبرار» .

ويتواصل هذا الانقسامُ والتقابلُ إلى غاية نهاية السّورة ، لكن هذه المرّة بالرّجوع إلى الحياة الدنيا رجوعا خاطفا (من الآية 29 إلى الآية 36)، حيث انتهى " إلى وصف حال الفريقين في هذا العالم الزائل إذ كان المشركون يسْخَرون من المؤمنين ويلمزونهم ويستضعفونهم وكيف انقلب الحال في العالم الأبدي"[3]، بسبب هذه الأعمال والمعتقدات.فكانت النتيجة والمآل يوم القيامة مختلفان كما كانا في الدنيا، وكان الجزاء يوم القيامة مختلفا.ومَن كان مستهزِئا، أصبح مسْتهزَءًا به، ومَن رأى نفسه قويّا مكينا، أصبح ضعيفا ذليلا ... فانقلبت الموازين، وتغيّرت الأحوال .

وأكمل هذا الجزءُ سابقَه واندمج التقابلُ مع التّقابل،ليُكْمل السّورة ويعطينا الفكرة حولها كاملةً ، ويدعّم الصّورة ويلمّ أجزاءَها. يقول ابن عاشور:"والمقصود من ذكره أنّه بعد أنْ ذكر حال المشركين على حِدة، وذكر حال المسلمين على حِدة، أعقب بما فيه صفة لعاقبة المشركين في معاملتهم للمؤمنين في الدّنيا ليعلموا جزاء الفريقيْن معاً "[4].

وهي جميعها صفات متقابلة متباعدة،ربطت السّورة بيْنهما، وقدّمت حالةَ الفئتين في الدّنيا والآخرة ، فاتّضح أصحابُها، وتَبيّنت الهوّة الشاسعة بينهما، ليزيد المؤمنون إيمانا ويقينا وثباتا، وهي من عادات القرآن الكريم.لأنّ الشيء بمقابله يُذكر،ولأنّ"خيرَ أسباب الإيضاح هو التعبير

[1]. ينظر: لسان العرب ، مادة (فجر) ، 5 / 46،47.

[2]. ينظر: نفســه ، مادة (برر) ، 4 / 51 وما بعدها .

[3]. التحرير والتنوير، 30/ 189.

[4]. التحرير والتنوير، 30 / 210.

عن المعاني والأفكار عبر مقابلاتها ومُمَاثلاتها، وإيرادها على نسق تقابلي مُمْتع تنضاف إليه العبارة الأنيقة، والأسلوب الممْتع "[1].

ولعلّ ما يُثبِت هذا الإيضاح وهذه الفوارق والجماليّة هو :

• فقد ركّزت الآيات على تعداد المعتقدات الفاسدة والصفات القبيحة «للفجّار»، لكنّها لم تهتمّ كثيرا بحالتهم ومآلهم يوم القيامة. في حين أنّ مع«الأبرار» ركّزت على النّعيم الذي هم فيه، دون الاهتمام بصفاتهم ومعتقداتهم. وهنا يظهر الفارق بينهما، وهو ما يوضّحه الجدول الآتي:

الفئة	صفاتها ومعتقداتها	حالتها يوم القيامة
الفجار	مكذّبون ، معتدون ، آثمون منكرون للآيات، على قلوبهم الرّان، كافرون ، مجرمون ، متكبّرون ، ساخرون .	في سجّين ، محجوبون عن ربّهم ، في جحيم .
الأبرار	الذين آمنوا .	في علّيين، في نعيم ، على الآرائك ، وجوهُهم نضرة ، شرابهم الرّحيق المختوم بالمسك ، يشربون من عين ، مقرّبون، يتمتّعون بالنظر إلى ربّهم .

فموضوع السّورة هم« الفجّار»الذين يطفّفون الكيل والميزان، والتّحذير منهم، لذلك ركّزت على صفاتهم للابتعاد عنها وتنفير النّاس منها، إلى جانب أنّ مّن كان فاجرا، فقَدْ مَالَ عن الحقّ ـ كما سبق ـ ومَنْ كان كذلك، صَدَر منه كلّ شيء، وفسَدَت أخلاقه، وكثرت صفاته الدنيئة، والتعرّف على هذه الصّفات يُنْبِئنا على نتائجها ومآل أصحابها، وإنْ لم تُصرّح بها.وهو ما رأيناه في الآيات .

[1] . محمد بازي،"التقابل وبلاغة الحجاج في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي"، الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة ، إعداد وتقديم حافظ اسماعيل علوي، الجزء الثاني: الحجاج مدارس وأعلام، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ط1 ، 1431 ، 2010 ،ص 136 .

بينما تَبْيين النّعيم الذي يتمتّع به «الأبرار»في الجنّة والتّركيز عليه يجعل النّفس تشتاق إليْه وتعمل مِنْ أجل تحقيقه بتفادي صفات«الفجّار». ومن ثم فقدْ ركّزت الآيات في كلّ طرف من طرفيْ التّقابل على جهة واحدة، لتبيّن هذه الأخيرةُ الجهةَ الأخرى التي لم تهتمّ بها الآيات، فاكتفى بالطّرف المقابل. ويتحقّق بالتّالي ـالتّوازن في التّعبير بين الطّرفيْن من جهة، والإيجازُ والبُعْدُ عن الإطناب من جهة أخرى .

• اختلافُ خطاب الفريقيْن، وتبايُن الحديثِ عنْهما .

ففي الحديث عن «الفجّار»تميّز بالغضب والسّخط والوعيد؛ حيث كرّر الأداة «كلا»أربع مرات " زيادة في الرّدع ليصير توبيخاً "[1]. كما كرّر التكذيب ثلاث مرات، ودَعَا عنهم بالوَيْل والهلاك وهدّدهم بقوله تعالى:﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾، ووبّخهم وأنّبَهم واستهزأ بهِمْ وسخِرَ منْهم في قوله:﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾، وقوله :﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾، ولم يصرّح باسْمِهم في قوله:﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾.ولعلّ قوْلَ سيد قطب يُقدّم صورة عن ذلك، حيث يقول:" ويتحدّث المقطع الثّاني عن الفجّار في شدّة وردْع وزجْر، وتهديد بالوَيْل والهلاك، ودمغ بالإثم والاعتداء، وبيان لسبب هذا العمى وعلّة هذا الانطماس، وتصوير لجزائهم يوم القيامة، وعذابهم بالحجاب عن ربّهم، كما حجبت الآثام في الأرض قلوبهم، ثم بالجحيم مع التّرذيل والتّأنيب"[2].

في حين أنّ مع «الأبرار»تميّزت بالرّضى والارتياح والوعْد؛حيثورَدَ ذكْرُهم مرّتين متقاربتيْن﴿الْأَبْرَارِ﴾،إضافة إلى تكرار﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾اهتماما وتنْويها بهمْ وزيادة في تكريمهم.وأطال الحديث عن حالتهم ونعيمهم ،وعبّر بالفعل المبنيّ للمجهول﴿يُسْقَوْنَ...﴾، للدّلالة على أنّهم مخدُومون من طرف غيرهم في الجنّة . وذلك من تمام الترفّه ولذّة الراحة[3].

•تشابُه البدايتيْن،فيقوله تعالى:

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾.

---

[1] . التحرير والتنوير، 30/ 200 .

[2] . في ظلال القرآن ، 6/ 3854 .

[3] . ينظر: التحرير والتنوير ،30/ 205 .

حيث أنّهما توحّدتا أسلوبا ونمطا، وقد قام هذا التشابه بدوْر إيقاعيّ من جهة؛ عن طريق التّكرار والتّوازن والفاصلة، ودور دلاليّ من جهة أخرى ، حيث أنبأ بفكرة جديدة، وهي الحديث عن«الأبرار»بعد الحديث عن الفجّار، ومن جهة ثالثة أوْحى بوحْدةِ سياقِ الفكرتيْن، وتلاحم أجزائهما رغم تباعُدِهما دلاليّا.

إضافة إلى اشتراكهما في بعض التّعبيرات مثل: ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٞ﴾،أي "هو كتاب مكتوبٌ كالرّقم في الثّوب، لا ينسى ولا يمحى، أُثبتت فيه أعمالهم"[1]، لكنّ الفرقَ شاسعٌ بين أعمال الفريقين،ومثل:﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ ...﴾التي تدلّ على التّفخيم والتّعظيم لدرجةِ كلٍّ منْهما ومرتبتِه، تعظيما إيجابيّا أو سلبيّا .

ولعلّ هذا الاشتراك يُجلّي الفارقَ الشاسع أكثر بين «الفجار» و«الأبرار» ويوحي بالتباعد أكثر بين النقيضيْن، فشتّان بين مَن آمن ومنْ كفَر، وبين مَنْ ينظر إلى ربّه ومن حُجِب عنه، وبين مَن هو في سَعة وعلُوٍّ ونعيم ومَنْ في ضيق وذلٍّ وسجّين. يقول الرّازي:" فالجنّة موْصُوفة بالعُلوّ والصفاء والفسحة وحضور الملائكة المقرّبين، والسّجين موْصُوف بالتسفّل والظّلمة والضّيق وحُضور الشّياطين الملْعونين، ولا شكّ أنّ العلوّ والصّفاء والفسحة وحضور الملائكة المقرّبين، كلّ ذلك من صفات الكمال والعزّة، وأضدادها منْ صفات النّقص والذلّة"[2]. فالتّقابل يُشكّل طرفيْن متضاديْن متباعديْن، يربط بينهما السّياق الواحد، فيتقاربان ويلتقيان لتبليغ ما يريد المتكلّم تبليغه، فيكون في هذا السّياق الانفصالُ والتباعُدُ بالاشتراك والتّقارب، ويتحقّق التأثيرُ والإقناع .

• ضَحِكُ كلّ فئة من الأخرى (من الآية 29 إلى الآية 36) .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤﴾ .

هذه الآيات تتحدّث عن ضحِك كلِّ فئة من الفئتين المتقابلتين من الأخرى واستهزائها بها، مع بعض الفوارق في التّعبير تتناسب مع السّياق العام .

[1] . صفوة التفاسير ، 3/ 507 .

[2] . الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي ، بيروت،ط3 ، 1420 هـ ، 31/ 86 .

من ذلك أنّه أطال الحديث عن المجرمين، وهُمْ يسخرون من المؤمنين في الدّنيا؛ « يضحكون، يتغامزون، فاكهين، لضالّون... ». في حين لم يكن ذلك عند المؤمنين في الآخرة. وفي هذا دلالة على أدبهم وصبرهم وترفّعهم من جهة، وتسلية لهم من جهة أخرى، ذلك لأنّ"الإطالة من الناحيّة التأثيريّة فنّ عال في الأداء التعبيري، كما أنّه فنّ عال في العلاج الشعوري"[1].

ومن جهة ثالثة يوحي بتهوّر« الفجّار» وخساستهم وسُوءِ أدبِهم، وهو ما يُوضِّح الفرق بينهما . إضافة إلى أنّ السورة مبنيّة عليهم، فكان من الطبيعي أنْ تطيل الحديثَ عنهم . فكما هو معلوم أنّ السّياق له دور كبير في اختيار الألفاظ والتراكيب، وفي التّعبير عامّة.

وبناء على هذه الفكرة الأخيرة، وهي بناء السّورة على«الفجّار»الذين كانوا أساسَها ومرْكزَها، وهو ما يظهر من عنوانها «المطفّفين»،وابتدائها وانتهائها بِهم . ومن ثمّ فقدْ بدأ التقابل بِهِمْ، لكنّ أُدْمِج «الأبرار»معَهم، لكي يتحقّق التقابل بين وعيد « الفجّار» ووعد «الأبرار». ومن عادة القرآن تعقيب الإنذار بالتّبشير والعكس، لأنّ النّاس راهب وراغب فالتّعرّضُ لنعيم «الأبرار»ـ إذن ـاقتضاه التناسب والتقابل. رغم أنّ مقام السّورة مقام إنذار[2]. وذلك لتتّضح الصورة، ويتجلّى الموقف، وتظهر الفوارق ... يختار على أساسها الإنسان ما يناسبه. وعن وجود هذا التقابل، وعن سبب تقديم«الفجّار»عن «الأبرار» يقول البقاعي:"لما ذكر ما للمكذّبين من العذاب الذي جرّه إليهم إقبالهم على الدنيا بادئاً به لأنّ المقام من أوّل السورة للوعيد وصوادع التّهديد، أتبعه ما للمصدّقين الذين أقبل بهم إلى السّعادة ترْكُ الحظوظ وإعراضُهم عن عاجل شهوات الدّنيا "[3].

أمّا الضحك والاستهزاء، فقد صدَر في الدّنيا من «الفجّار»،وهو قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾، وأمّا في الآخرة فقد صدَر من «الأبرار»في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤﴾. فقابل بالتالي :

في الأولى بين﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ ﴾و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

وفي الثّانية بين﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾و﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، فعدل عن « الذين كفروا » إلى «من الكفار».

---

[1]. في ظلال القرآن ، 6/ 3862 .

[2]. ينظر: التحرير والتنوير، 30/ 203 .

[3]. البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، 21/ 325.

فيكون قد أطلق على «الفجّار»اسميْن هما:«الذين أجرموا »و« الكفّار»، في حين أنّه أطلق على«الأبرار»اسْمًا واحدا فقط، وهو«الذين آمنوا» .

و« الذين أجرموا»في الآيات هُمْ مشْرِكو مكّة وكُفَّار قُرَيْشٍ؛أَبَو جَهْلٍ، وَالْوَلِيد بْنَ الْمُغِيرَةِ، وَالْعَاص بْنَ وَائِلٍ، وَأَصْحَابهُمْ مِنْ مُتْرَفِي مَكَّةَ[1]. والمجْرم"هو المتلبّس بالكفر والمعاصي"[2]،والجُرْم الذَّنْبُ،والجارِم الَّذِي يَجْرِم نَفْسَه وَقَوْمَهُ شَرّاً[3]. والمقْصودُون في السّورة هم زعماء مكّة الذينِ تَلبّسوا بالكفر والمعاصي واقترفوا الذّنوب ولبّسوا غيْرَهم، فأجرموا على أنفسهم أوّلا، ثمّعلى غيرهم من قومهم في الحيـاة الدنيا، بمعنى أنّ كفرهم لم يقتصر عليهم، بل تعدّى إلى غيرهم، إضافة إلى أنّهم قد آذوا المؤمنين باستهزائهم بهم. ومن ثمّف ـ «المجرمون» وصْفٌ مطابقٌ لهُم .

بينما في آية الآخرة ـ وهم فيها مثار الاستهزاء ـ قد وُصِفوا بالكفّار.والكُفْرُ هو نَقِيضُ الإيمان،كَفَرَ باللَّه يَكْفُر كُفْراً ... والكُفْرُ: كُفْرُ النِّعْمَةِ وجُحودها، وَهُوَ نَقِيضُ الشُّكْرِ، وكَفَرَ نَعْمَةَ اللَّهِ وكَفَر بِهَا: جَحَدَها وسَتَرها، وَرَجُلٌ كَافِرٌ: جَاحِدٌ لأَنْعُمِ اللَّهِ ...[4]فالكفْر يخصّ الشّخص لوحده دون أنْ يتعدّى إلى غيره .

ومن جهة أخرى، فضَحِكُ واستهزاءُ المؤمنين كان من كلّ كافر في الجحيم، لا مِنْ زعماء قريش فقط . ومن ثمّ فقد كان كلّ لفظ في مكانه، وراعى كلُّ تعبير سياقَه .

وما زاد آيات السورة جمالا شكليّا، إضافة إلى الجمال الدّلاليّ تلك النّغمةُ العذبة الناتجة عن توافق فواصلِها في حروفها الأخيرة؛ فقدْ انتهى أغلبها بـ « الواو والنون» أو « الياء والنون»، وما أضفى عليها جمالا أكثرـ إضافة إلى ما سبق ـ، الفواصلُ الأخيرة الموحّدة ؛ فقدْ جاءت « يضحكون، ينظرون، يفعلون» بوزْن واحد، وصيغة واحدة، وأصواتٍ واحدة بدايةً ونهايةً ...

وهكذا يتطوّر التّقابل من كلمات إلى تراكيب إلى مضامين وموضوعات، فتتّسع رقعته، ويعمّ مساحة كبيرة من السّورة، أو السورة كلّها. وتتشابك أفكار الطرفيْن ومضمونهما وتتداخل،

---

[1] . ينظر: أبو محمد البغوي ، معالم التنزيل في تفسير القرآن ، تحقيق : محمد النمر ، عثمان جمعة ، سليمان الحرش ، دار طيبة ، ط4، 1997 م، 8/ 368، الكشاف ، 4/ 723 .

[2] . أبو الطيب محمد صديق ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن،تقديم ومراجعة: عَبد الله الأنصَاري،المَكتبة العصريَّة ، صَيدَا ، بَيروت،1412 هـ ، 1992 م، 6 / 256 .

[3] . ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية ، 5 / 1885 . لسان العرب ، 12/ 90 ، 91.

[4] . ينظر:لسان العرب ، 5/ 144.

لتُشكل بيانا واضحا، وأفكارا جليّة، ولا صعوبة في فهْمها، تتقبّلها النّفس بسهولة، ولا سبيل لرَفْضها... وفي الوقت نفسه يُلقي كلّ طرف من طرفيْ التّقابل بظلاله على الآخر فتتشكّل الجماليّة ويتّضح المعنى وينكشف .

رابعا: تقابل ثلاثيّ الأطراف .

من خلال ما عرفناه عن التقابل ـ سابقا ـ أنّه ذو طرفيْن فقط، وفي هذا العنصر سنتحدّث عن تقابل من نوع آخر، وهو ثلاثيّ الأطراف ـ ولعلّه من إبداعات القرآن الكريمـ، من خلال سورتيْ (محمد، الواقعة) .

1 ـ سورة (محمد):تضمّنت هذه السّورة الحديث عن ثلاثة أصناف هي:المؤمنون، الكافرون، المنافقون، من حيث صفات كلِّ صنْفٍ وأعمالهم وأحوالهم ومآلهم والفَرْق بينهم...وهي أصناف مختلفة متقابلة رغم وجود بعض نقاط الالتقاء بينها.

فقد أعلَم سبحانه وتعالى في هذه السّورة المؤمنين بأنّ الله ناصِرُهم و مُصْلِحهم، ووعَدَهم بالجنّة وهازم المشركين، وغير مسدّدهم في أعمالهم، وأنذرهم بالنار.ووصَف الجنّة ونعيمها، ووصف جهنّم وعذابها .ووصَف المنافقين باندهاشهم إذا نزلت سورة فيها القتال ، وقلّة تدبّرهم وموالاتهم للمشركين وهدّدهم[1]. لذلك فهي تبدأ بالتقابل بين الفريقين؛ « المؤمنين والكافرين »، لتُلْحِق بهم فريقا ثالثا بعد ذلك، وهُمْ« المنافقون » . ما جعل التّقابل فيها ثلاثيَّ الأطراف، كلّ طرف يقابل الآخر.

والآيات التي تُقابِل بين المؤمنين والكافرين هي :

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ

[1] . ينظر:التحرير والتنوير، 26/ 72.

بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ محمد: **1 – 12.**

ويتّضح هذا التقابل في الجدول الآتي*:

الكافرون	المؤمنون
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ	وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ	وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ
أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾	كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾
فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾	يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾
وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾	ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾	إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ...﴿١٢﴾

يقول ابن عاشور:" وقد جاء في مقابلة الأوصاف الثلاثة التي أثبتت للذين كفروا بثلاثة أوصاف ضدّها للمسلمين وهي:الإيمان مقابل الكفر، والإيمانُ بما نُزل على محمد(صلى الله عليه وسلم) مقابل الصدّ عن سبيل الله، وعملُ الصالحات مقابل بعض ما تضمّنه (أضلّ أعمالهم)، و(كفّر عنْهم سيئاتهم) مقابل بعض آخر ممّا تضمنّه (أضلّ أعمالهم) ، (وأصلح بالَهم) مقابل بقيّة ما تضمّنه (أضلّ أعمالهم)..."[1]. فإذا كان هؤلاء كفّر عنْهم سيّئاتهم وأصْلح بالَهم، ونصَرهم وثبّت أقدامهم، وأنّه هو مولاهم.... وسببُه إيمانُهم، فإنّ الصّنف الأوّل قدْ أضلّ أعمالهم، وتعْسا لهُم، ولا موْلى لهُم ... وسببُه كفْرُهم. فالكافرون يختلفون اختلافا كبيرا عن المؤمنين، ومن ثمّ فقد جاء التّعقيب في عدم التقائهما ونفْي تشابُهِهما؛ فالفرْق شاسع بيْن مَن يتمتّع بكلّ المشروبات، ومِن كلّ الثّمرات، وله المغفرة، وبين مَن ليس له إلّا الماء الحميم ويخلد في النار:﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ

*الآيات في الجدول ليست مرتّبة ترتيبها في السورة ، وذلك لمراعاة التقابل، وطبيعة التقسيم في الجدول.

[1]. التحرير والتنوير، 26/ 74، 75.

أَنْهَرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ محمد:14 ـ 15.

بعد الحديث عن المؤمنين والكافرين، يأتي الحديثُ عن المنافقين، وهُمْ الصّنف الذي يمثّل الطّرفَ الثالث في التقابل. ولعلّ تسميّة السّورة باسم سيّدنا رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ (محمد) كونها تُقابل بين المؤمنين والكافرين، وتسْميَتها بـ (القتال) كونها تُقابل بين المخْلصين والمنافقين؛ فإذا كان النّاس قد افترقوا حول سيّدنا محمد ـ صلّى الله عليه وسلم ـ إلى مؤمنين وكافرين، فإنّ الذين اتّبعوه ـ على الأقلّ ظاهرا ـ افترقوا حوْل القتال إلى مخْلصين ومنافقين . ومِن ثمّ فقَدْ ناسَبتْها التّسْميتان، وجمعَت بين الأطراف المتقابلة لتَتَشَابك عناصرُها وتشكّل تماسَك السّورة وارتباطَ أوّلها بآخرها عن طريق هذا التقابل؛ذلك لأنّنا " عند قراءة لغة النّص من أوّل آية حتى آخر آية، نجد خيطا واحدا يجْمعها جميعا في سلسلة واحدة ، تحتوي وجهيْن متقابليْن (مثاني). الوجه الأوّل يتمثّل في أولئك الذين كفروا بمحمّد ، والوجْه الثاني يتمثّل في الذين آمنوا . الذين كفروا به طردوه من قريته وحاربوه ، ولذا على الذين آمنوا أن يقاتلوهم. هكذا تسير الآيات لتستعرض أيضا المنافقين والمؤمنين(نفس المواجهة)، (نفس الوجهين المتقابلين)"[1].

وهو بهذا قد قسّم "النّاس إلى فئات ثلاث: مؤمنة وكافرة ومنافقة . وهذا التّقسيم للناس ليس مألوفا في علم التاريخ والاجتماع ، وإنّما هو تقسيم جديد، يعتمد على قاعدة أساسيّة، وهي موقف النّاس من العقيدة الإسلامية"[2]. وهو ممّا استحدثه القرآن الكريم والإسلام عامّة في مختلف مناحي الحياة، بما في ذلك الجانب اللّغويّ والفكريّ. فالعرب لا تعرف قبل القرآن الكريم هذه الدّلالة الجديدة لكلمة « المنافق». يقول ابن فارس: " فأمّا المنافق فاسمٌ جاء بِهِ الإسلام لِقوْم أَبْطنوا غير مَا أظهروه، وَكَانَ الأصل من نافقاء اليَرْبوع"[3].

ومن جهة أخرى، فإذا كان التّقابل بين المؤمنين والكافرين جاء مباشرا عن طريق المقارنة الصّريحة بينهماـ كما رأينا في الجدول ـ، فإنّ الحديث عن المنافقين ورَد منفردا في السّورة،

[1] . عبد الهادي عبد الرحمن ، سلطة النّص قراءات في توظيف النّص الدّيني ، سينا ، الانتشار العربي ، لندن ، بيروت ، القاهرة ، ط2 ، د ت ، ص 105.

[2] . عبد السلام الراغب ، وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم ، ص 301 .

[3] . ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، نشر: محمد علي بيضون، ط1 ،1418هـ-1997م، ص45.

وهو- ضِمْنا - يدخل في التّقابلبين الثلاثة . ولعلّ السرّ في ذلك هو أنّ الكافرين أنكروا الله ظاهرا وباطنا، والمؤمنين اعترفوا به وأذعنوا له ظاهرا وباطنا، والفريقان بالتّالي يتقابلان تقابلا تامّا، وهو ما ناسَب الرّبْطَ المباشر بينهما .

وكلٌّ منهما يلتقي مع فئة المنافقين التقاء جزئيا، ويتقابل معها تقابلا جزئيّا - أيضا - ؛ فالكافرون يلتقون مع المنافقين في الباطن ويتقابلون في الظاهر،أمّا المؤمنون فيلتقون معهم في الظّاهر ويتقابلون في الباطن. فقدْ شاركوا المسلمين ظاهرَهم، والكافرين باطنَهم، فخالَف ظاهرُهم باطنَهم، ولم يخْلصوا إلى اعتقاداتهم المنْحرفة . ولعلّ المثّلث الآتي يوضّح ذلك :

المنافقون (إخلاص الظاهر وانحراف الباطن)

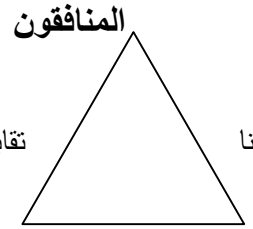

تقابل جزئيّ ظاهرا تقابل جزئيّ باطنا

المؤمنون(إخلاص الظاهر والباطن) **الكافرون**(انحراف الظاهر والباطن)

تقابل تامّ ظاهرا و باطنا

وهذا الالتقاء الجزئيّ بين كلّ فئتين لا يجعلهما في مرتبة واحدة. فالاشتراك لا يعني التّساوي، ذلك لأنّ الظاهر لا قيمة له عند الله إذا فسَد الباطن . وفي اختلاف باطنِ المنافقين عن ظاهرهم وإظهارِ غيرِ ما يُخفون، يكمن اختلافُهم عن الكافرين وعن المؤمنين، وتكمن خطورتُهم. ومن ثمّ فهُم صنْف انفرد عن الصّنفين الآخريْن؛ "فالمنافق كان يخشى النّاس وهُم الفريقان، المؤمنون والكافرون فكان يتردّد بينهما ويُرضي الفريقين ويُسخط الله "[1].

ومن جهة أخرى، فقدْ جعل الحديثَ عن المنافقين أطول من الحديث عن غيرهم وفصّل فيهم، وفي أعمالهم ومواقفهم وتحرّكاتهم ونفسيّاتهم وغيرها؛ ذلك لأنّ صورة المؤمنين صافية واضحة، مستقيمة، محدّدة السّمات، وصورة الكافرين مظلمة معتّمة ومكشوفة. أمّا صورتُهم ففيها التواء وغموض، فهي بحاجة إلى توضيح أكثر حتّى تُعرف سماتهم أكثر[2].

ولهذا فقدْ حذّر منهم سبحانه وتعالى، وجعَلَهم في الدّرك الأسفل من النار.يقول الصابوني في حديثه عن مناسبة آيات المنافقين في السّورة : " كان بدء السّورة في الحديث عن الكافرين، ثم جاء عن المؤمنين، وهنا يأتي الحديث عن المنافقين، وقد استغرق الجانب الأكبر من السّورة

[1] . الرازي ، مفاتيح الغيب ، 28 / 51.

[2] . ينظر: عبد السلام الراغب ، وظيفة الصورة الفنيّة في القرآن الكريم ، ص308 .

باعتبارهم الخطر الدّاهم على الإسلام والمسلمين، والآيات الكريمة تتّحدث عن الجهاد وعن موقف المنافقين منه "[1].

2 ــ سورة (الواقعة) :

تحدّثت هذه السّورة هي الأخرى عن ثلاثة أصناف من النّاس يوم القيامة، كان بناؤها عليْهم من أوّلها إلى آخرها، وهُم: أصحاب اليمين، وأصحاب الشّمال والسّابقون. وهو خلاف عادة القرآن الكريم في الكثير من تقسيماته القائمة على التّقابل، يقول سيّد قطب:"ونجد النّاس هنا أصنافا ثلاثة ـ لا صنفين اثنين كما هو السّائد في مشاهد الاستعراض القرآنية ـ"[2]. ويمكن تقسيم البناء العامّ لسورة (الواقعة) إلى ثلاثة مقاطع :

المقطع1 (من الآية 1 إلى الآية 7): :تناول في المقطع الأوّل الحديثَ عن الواقعة عند حدوثها ، والتي هي عظيمة لا كذب فيها ، تتأثّر فيها الأرض والجبال ، ويظهر فيها الناس ثلاثة أصناف . وكان هذا المقطع تمهيدا للحديث عن هذه الأصناف الثلاثة في يوم الواقعة .

المقطع 2 (من الآية 8 إلى الآية 87):بدأ بذكر هذه الأصناف على سبيل الإجمال، " ثم تفصّل السّورة مصائر هذه الأزواج الثلاثة: السابقين، وأصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة. وتصف ما يلقون من نعيم وعذاب وصْفًا مُفصّلا أوفى تفصيل"[3]. فتحدّث عن مصيرِ ومآل كلّ صنْف، وما أعدّ الله له من جزاء في هذا اليوم المشهود، واحدا بعد آخر، وذلك على هذا النّحو:

- السابقــون (من الآية 8 إلى الآية 26).
- أَصْحَابُ الْيَمِينِ (من الآية 27 إلى الآية 40).
- أَصْحَابُ الشِّمَالِ (من الآية 41 إلى الآية 87).

المقطع 3 (من الآية 88 إلى الآية 96) : أكّد هذا المقطع على مصير كلّ صنف على سبيل الإجمال أيضا، فكان بمثابة خاتمة السّورة وخلاصتها، وأكّدت أيضا على ما أُخبر عنه في البداية من أنّ الواقعة حقّ ثابت لا كذب فيه﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

ولعلّ الفرق بين أطراف التقابل الثلاثة يَظهر من خلال الجدول الآتي:

---

[1] . صفوة التفاسير ، 3 / 195 .

[2] . في ظلال القرآن ، 6 / 3463 .

[3] . نفســـــه ، 6 / 3461.

التسمية 1	فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿٨﴾	وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٩﴾	وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾
التسمية 2	وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾	وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾	ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾
العدد	ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٠﴾		ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾
الحالة و الأكل	فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾	فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٖ ﴿٤٤﴾ ..... لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ .	أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ..... عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾
السبب	———	إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾	جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾
النتيجة	وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾	وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾	فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾

يلاحظ في هذا التقابل الثلاثي ما يلي :

أ ـ ترتيب الأصناف إجمالا في بداية السّورة، وكان على هذا النّحو: أصحاب الميمنة، أصحاب المشأمة،السابقون.حيث أخّرالصّنف الأفضل تشويقا لسماع أخبارهم من جهة، وكونهم الصّنف الذي لا يحزنهم الفزع الأكبر، فذِكْر الأمور الهائلة عند قيام السّاعة في أوّل السّورة تخويف للعباد ؛ فإمّا محسنٌ فيزداد رغبةً في الثّواب، وإمّا مسيء فيرجع عن إساءته خوفاً من العقاب، فلذلك قدَّم «أصحاب اليمين»ليسْمَعوا ويرغبوا، ثم ذكر «أصحاب الشّمال» ليرهبوا، ثم ذكر« السّابقين»...[1] .

في حين أنّه في التّفصيل بدأ بالصّنف الثالث، أي « السابقين »، فكان الترتيب على هذا النّحو:السابقون، أصحاب الميمنة، أصحاب المشأمة. ولعلّ ذلك يعود إلى أسبابٍ هي:

• أنّ السّابقين هم الصّنف الأفضل، فبعْد أنْ شوّق إليْهم فَصَّلَهم بدايةً. يقول ابن عاشور عنهم: "هذا الصنفُ الثّالث في العدّ وهُمْ الصّنف الأفضل من الأصناف الثلاثة، ووصفُهم بالسّبق يقتضي أنّهم سابقون أمثالهم من المحسنين الذين عبّر عنهم بأصحاب الميمنة فهُمْ سابقون إلى الخيْر، فالنّاس لا يتسابقون إلّا لنوال نَفِيس مرغوب لكلّ النّاس، وأمّا الشرّ والضرّ فَهُم يتَكْعْكعون عنه"[2].

فهُمْ ـ إذن ـ السابقون إلى الخيرات والحسنات،وإلى النّعيم والجنّات[3]، ومن ثمّ فحالهُم بلغَتْ منتهى الفضْل والرّفْعة، فلا أدلّ على مرتبتهم مِن اسم«السابقون»، وهو اسْم أبلغ في الدّلالة على شرف قدْرهم من الإخبار[4].

• مناسبة تقسيم الإجمال؛ فالسّابقون جاؤوا خاتمةَ هذا التّقسيم، ليواصل الحديثَ عنْهم في التفصيل دون انقطاع ، فلا تقع تلك الفجْوة. فهذا التّقسيم بالتّالي" اقتضته مناسبة اتّصال المعاني بالنّسبة إلى كلّ صنف أقربَ ذِكراً "[5].

ب ـ أطلق على كلّ صِنْف تسميتيْن :

• أصحاب الميمنة/ أصحاب المشأمة / السابقون.

---

[1] . ينظر: صفوة التفاسير ، 3 / 289.

[2] . التحرير والتنوير ، 27 / 286.

[3] . ينظر: صفوة التفاسير ، 3 / 289 .

[4] . ينظر: التحرير والتنوير ، 27 /287.

[5] . نفســـــه ، 27 / 288.

• أصحاب اليمين / أصحاب الشّمال / المقرّبـون .

فقابل الشمال باليمين، كما قابل المشأمة بالميمنة ، فكان كلّ طرف على وزن مقابِله . وهو هنا قد راعى التقابل في الألفاظ إلى جانب التقابل في الدّلالة، فجمَع توضيحَ المعنى وجلاءَه، بحُسْنه وبهائه؛ ففي التقابل " إذا لاءمت عبارةُ أحد المعنييْن عبارة المعنى الآخر، وتماثلت أبنية الألفاظ فيهما، زاده ذلك حُسْنا وبهاء"[1]؛ لأنّها تجمع بين التلاؤم المعنويّ والتلاؤم اللّفظي.

ووصَف أصحاب اليمين وأصحاب الشمال بالاستفهام عنْهم للتّهويل والتّضخيم،أمّا فريق السّابقين فيَصِفهم بوصفهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾... كأنّما ليقول إنّهم همْ وكفى[2]. لأنّ هذا الاسم يُخبِر عنهم .

ج ــ بعد أنْ بيّن حالَ أصحابِ الشّمال، ووصَف أكْلَهم تَقابُلاً مع الصّنفين الآخرَيْن، أسْهَب في الحديث عنهم ومخاطبتِهم ، فخصّص لهم جزءا طويلا ومفصّلا لم يخصّصْه لغيرهم(من الآية 57 إلى 79)؛ حيث تحَدّاهم، ووبّخَهم وتوعّدَهم، وبيّن لهُم مصيرَهم... وهو ما يناسب عنوان السّورة، والحديث عن الواقعة التي تتأثّر بها كلّ القلوب ويهابُها كلّ النـاس." وسُمّيت (الواقعة)لأنّها كائنة لا محالة أو لقرب وقوعها أو لكثرة ما يقع فيها من الشّدائد"[3]،حتّى أنّ الأرض زُلزلت، والجبالَ فُتّتت .

د ــ ففي تعداد كلّ صنْف وَرَدَ:

• عن السابقين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ الواقعة 13 ـ 14.

• عن أصحاب الميمنة :﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾الواقعة 39 ـ 40.

أمّا أصحاب المشأمة فلم يَرِدْ عدُدُهم كالصّنفين الآخرَيْن، وذُكروا مرّة واحدة؛ ذلك لأنّهم صنْفٌ واحد في كلّ زمان ومكان، ومعتقداتٌ وأعمالٌ واحدة، ويمثّلون الأغلبية " فأكثر النّفوس اليوم كواذب مكذبات"[4]. في حين أنّ صِنْفيْ الجنّة قليل، ومن ثمّ فقدْ وُصِفا بالثلّة ، وبالقليل .

---

[1] . أحمد أبو زيد ، التناسب البياني في القرآن ، ص 131 .

[2] ـ ينظر: في ظلال القرآن ، 6/ 3463 .

[3] ـ محمد صديق البخاري، فتحُ البيان في مقاصد القرآن ، تقديم :عَبد الله الأنصَاري ، المَكتبة العصريَّة، صَيدَا، بَيروت، د ط، 1992 ، 13 / 355.

[4] . الزمخشري ، الكشاف ، 4 / 455 .

هـ ـ خُتمت السّورة بالتقابل الثلاثيّ أيضا، لخّصت فيه ما ورَدَ في مضمونها مِن تقابل بين الأصناف الثلاثة، ومآل كلّ صِنْف، فكانت هذه الخاتمة بمثابة العصارة التي تريد ترسيخها في الذّهن، والفكرة التي تعمل على تبليغها من خلال هذه المراتب؛ "فأمّا السّابقون فهُم أهل الدرجات العُلى في الجنّة، وأمّا أصحاب اليمين فيهم سائر أهل الجنّة، وأمّا أصحاب الشّمال فهُم أهْل النّار، وهذه مراتب النّاس في الآخرة"[1].وهو ما يجعل الإنسان يختار مصيرَه الذي يفضّله.

وقدْ استعمل في هذه النتيجة « أمّا» مع كلّ صنف، وهي تفصيليّة شرطيّة؛ تبيّن استقلال كلِّ صنْفٍ عن الصّنفين الآخَرَيْن، وتُنْبئ عن بداية صنف وفكرة جديدة من جهة، ولها دوْر إيقاعي ساهم فيه التكرار من جهة أخرى .

[1] . ينظر: صفوة التفاسير ، 3/ 288 .

الفصل الثاني: التّقابل في الأمثال والقصص في القرآن الكريم

أوّلا: التّقابل في الأمثال في القرآن الكريم.

ثانيا: التّقابل في القصص القرآن الكريم.

ثالثا: التّقابل في الأمثال القصصيّة في القرآن الكريم.

أوّلا: التّقابل في الأمثال في القرآن الكريم:

1 ـ لمحة عامّة عن المثل:

لِلَفْظة"مثل " في اللّغة معانٍ كثيرة ؛من ذلك " مَثَلَ قائما انتَصَب، ورأيته ماثلا بين يديْه ومثّله به شبّهه "[1].والمثل كلمة تسْوية، يقال هذا مِثْله ومَثَله كما يقال شِبْهُهُ وشَبَهُهُ...[2].

ومنه فلَفْظ المثَل يتضمّن معنى الظهور والإيضاح والشّبه والتّسوية .

أمّا اصطلاحا فهُو" قوْل موجز سائر صائب المعنى، تُشْبهُ به حالة حادثة بحالة سالفة"[3].

وقدْ عرّفه الراغب الأصفهاني(ت502هـ)بقوله: " والمثل عبارة عن قوْل في شيء يُشبِه قولاً في شيء آخر، بينهما مشابهة، ليُبيّن أحدهما الآخر ويُصوّره"[4].وعرّفه البلاغيّون بأنّه" اللّفظ المركّب المستعمل في غير ما وُضع له، لعلاقة المشابهة ما بين مورده ومضربه مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي"[5].

وهي تعريفات يلتقي فيها المعنى اللّغويّ بالمعنى الاصطلاحي، وتُقرّ جميعها بأنّ المثل قول مشهور تتناقله الألسنة وتمثّل به، ذلك لأنّفيه تشبيهَ شيءٍ بآخر، أو حالةٍ بأخرى.فالمثل يتضمّن حادثتين أو موقفيْن بينهما علاقة؛ فهُو قوْل يعبّر عن موْقف قديم أو حادثة ماضية يُشبَّه به موقفٌ جديد أو حالة حاضرة . ويُسمّى الموْقفُ القديم موْردا، وهو" الحالة التي قيل فيها ابتداء"[6].أمّا الموْقف الجديد فيسمّى مضربا، وهو" الحالات والمواقف المتجدّدة التي يمكن أنْ يستعمل فيها المثل، لما بيْن الحالتين من التّشابه"[7].إذن فبيْن الحالتين القديمة أو المورد، والجديدة أو المضرب تشابُه وتقارُب، وهما أساس المثل.ومن ثمّ فالمثل قسيم التشبيه أو المتفرّع عنه ليأخذ طريقه بمفرده ، وإنْ بقي يستمدّ منه قوّته وأهميّته وبقي محرّكَه الأساسي.

---

[1]. الزمخشري ، أساس البلاغة ، 2 /193.

[2] . ينظر: لسان العرب ،11/ 610 .

[3] . عبد المجيد قطامش ، الأمثال العربية ، دراسة تاريخية تحليلية ، دار الفكر، دمشق، ط1، 1988، ص 11 .

[4] . الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن،ص 759.

[5] . سميح عاطف الزين ، معجم الأمثال في القرآن الكريم ، دار الكتاب المصري، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، ط2، 2009 ، ص 25 .

[6] . عبد المجيد قطامش ، الأمثال العربية ، ص 14 .

[7] . المرجع نفسه، ص 14 .

هذا وقد عرف العرب الأمثال منذ القديم، وشغفوا بها شغَفهم بالأشعار. ذلك لأنها متّصلة بحياتهم اليوميّة والمعبّرة عن ثقافتهم وتجاربهم، وفيها تتجلّى قدرتهم على الإبداع، وتظهر بلاغة الإيجاز عندهم،"فالمثل إذا أُخذ بمعناه الواسع التشبيه والاستعارة صار من أهمّ دعائم البلاغة"[1]. والتّشبيه " في الأمثال يبلغ قمّة البلاغة، ويحتلّ ذروتها"[2]، وهو ركن هامّ فيهما.

ويظهر شغَف العرب بالأمثال في كثرتها، وكثرة الكتب المصنّفة لها، وفي تنوّعها و استعمالها وتوظيفها والاستشهاد بها في شتّى المواقف، حتى أنّ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ استعْملوها في تبليغ دعواتهم ...حيث أدركوا أهميّتها في التّعبير ودورها في التّأثير، لما تميّزت به من خصائص دلاليّة وأخرى جماليّة فنيّة؛ من إصابة المعنى الذي يبلّغه بسهولة ووضوح، وصواب الفكرة، والتّعبير عن جوانب معرفيّة وأبعاد فكريّة واجتماعيّة صالحة لتربية الأجيال، و من إيجاز، وإيقاع، وتشبيه ...

والمثل يعبّر عن ضمير الأمّة وثقافتها، ومستواها الفكريّ والحضاريّ، وحالتها الاجتماعيّة ... "فالأمثال عند كلّ الشّعوب مرآة صافية لحياتها ... وهي ميزان دقيق لتلك الشعوب في رقيّها وانحطاطها، وبؤسها ونعيمها، وآدابها ولغاتها"[3]. لذلك يُقال: " المثل صوْت الشّعب".

إضافة إلى طابعه القصصي؛ فرغم أنّ المثل موجز مركّز فإنّه " لا يتخلّى عن وظيفته القصصيّة حتى بمعناه الموجز، إذ خلْف هذه الجمل الموجزة قصص أنتجتها أو ارتبطت بها، فكأنّ للمثل مستويات تبدأ بالجملة القصيرة وتنتهي بالقصّة المصاحبة للمثل"[4]، والتي كانت سببا في إظهاره للوجود.وفي هذا الجانب القصصي" وجَد القصّاصون والمسامرون في قصص الأمثال مادّة للسّمر ولاستعادة بعض أحاديث العرب ومآثرها"[5].يقول أحدهم :" وضرب الأمثال فنّ من الأسلوب البياني دقيق المسلك، بعيد الغور... يقرّب البعيد ويُدني الغريب، ويُسهّل الصّعب، ويُوضّح المُبْهم، ويفسّر المُجمَل، ويُبيّن الغامض ويكشف عن الحقائق، ويجعل

---

[1] . محمد العمري ، في بلاغة الخطاب الإقناعي ، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية ، الخطابة في القرن الأول أنموذجا ، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب ، بيروت ، لبنان ، ط 2، 2002، ص 85 .

[2] . عبد المجيد قطامش ، الأمثال العربية ، ص 264 .

[3] . رودلف زلهايم ، الأمثال العربيّة القديمة ، ترجمة : رمضان عبد التواب ، مؤسسة الرسالة ، د ط ، د ت ، ص7 .

[4] . أماني سليمان داود، الأمثال العربية القديمة دراسة أسلوبية سردية حضارية ، المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ، ط1، 2009 ، ص13، 14 .

[5] . أماني سليمان داود ، الأمثال العربيّة القديمة ، ص19 .

المعقول محسوسا، والأبيّ ميّسرا ملموسا والعصيّ طيّعا مستجيبا، يوجز وكأنّه في بيانه أطنب، ويومئ وكأنّه في براعته قدْ أسهب، ويشير وهو أبين معبّر، ويعبّر وهوأخفى رامز، دلالته وحْي، وتعبيره مُفْهِم"[1]. ولعلّ نتيجة لهذه الأهميّة ، وهذا الدّور البلاغيّ الذي يؤدّيه المثلُ، اعتبره بعضُهم " ميزان البلاغة "[2].

كلّ هذه الخصائص تجعل من المثل محبوبا مرغوبا، سريعَ التفهيم، سريعَ الانتشار؛ يستعمله المتكلّم ويتشوّق إليْه السّامع ويتأثّر به، وتجعل له مكانة رفيعة في اللّغة، ودورا بارزا في الإقناع. حتى أنّ الشعر ـ بمكانته ـ والمثل الْتَحَمَا، بأنْ أخَذ كلّ واحد من الآخر وأعطاه؛ " فقدْ عمل الشّعر على اختراق مدوّنة الأمثال، لا من جهة نِسَب الحضور، بلْ من جهة البنْية الشعريّة. وكانت هذه البنى الشعريّة تزاحم العبارة المثليّة وتشاطرها مقام التلفّظ "[3]. وبالمقابل انتشرت العبارة المثَلِيّة في مدوّنة الشّعر العربي، حتى أنّ البلاغيين جعلوا تضمين المثل السائر بابا من أبواب بلاغة الشعر، وامتدحوا استعمال الشاعر للمثل[4].ولعلّ ما يؤكّد ذلك ـ أيضا ـ أنّ هناك عباراتٍ شعريّة انْفصَلتْ عن أبياتها تَدَاوَلهَا الناس أمثالاً، وانتشرت بين الألسن. فنافَسَ المثلُ بذلك الشعرَ وحاول السّيْر إلى جنبه .

والمثل عبارة غير راكدة، بل متطوّرة تندمج مع عصْرها، وتتلاءم مع المجتمع التي هي فيه، وإنْ كانت بعض ألفاظها مهملة في هذا المجتمع، لأنّ الفكرة التي يحملها المثل تتجدّد بتجدّد المواقف." فالسّمة التّصويريّة لا تتوّقف عند التّعبير نفسه، بل تتعدّاه إلى النّاحية الوظيفيّة للمثل، وأشكال استخدامه في الثّقافة العربيّة "[5]. حيث أنّه وإنْ كان أصله قصّة ماضية، فإنّه يتجدّد باستمرار وعَبْر العصور، في كلّ حادثة أو موقف جديد يشبه القصّة الأولى أي المورد. بمعنى" أنْ تحصَل حالَةٌ لها شبَه بالحالة التي صَدَر فيها ذلك القوْل فيَسْتَحْضر المتكلّم تلك الحالَة التي صَدَر فيها القوْل ويُشْبِه بها الحالة التي عرضَت وينطق بالقول الذي كان صدر في

---

[1] . محمد الصادق عرجون ، القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ، دار القلم ، دمشق ، الدّار الشّامية ، بيروت ، ط2 ، 1989، ص102 .

[2] . ينظر: محمود سيد شقير، مع الأمثال القرآنية، المؤسسّة الوطنية الحديثة ، القاهرة ، د ط ، د ت ، ص48 .

[3] . صالح بن رمضان ، الشعر والأمثال في التراث العربي ، أعمال ندوة (قراءات في النص الشعري القديم) منشورات دار المعلمين العليا ، جامعة تونس ، 2004 ، المجلّد: 8 ، ص67 .

[4] . ينظر: صالح بن رمضان ، الشعر والأمثال في التراث العربي ، ص67 .

[5] . أماني سليمان داود، الأمثال العربية القديمة ، ص 24 .

أثناء الحالة المشبه بها ليذكر السامع بتلك الحالة، وبأن حالة اليوم شبيهة بها"[1]، دون أن يغيّر من ألفاظه وتراكيبه شيئا .

والجدير بالذّكر أنّ من الأمثال ما لا تُعْرف مواردها، إمّا أنّ حوادثها الأولى اندثرت، أو أنّ ليس لها موارد أصلا. ولعلّ هذا يجعل شرطَ الحادثة أو القصة في المثل ليس ضروريا.لأنّه قد يُطلَق المثل دون هذه الحادثة. ولعلّهم يعتبرون إطلاقَه في الموقف الأوّل موردا، فيكون بالتّالي" المقصود بمورد المثل إطلاقه أوّلا في موقف ما، سواء أكان هذا الإطلاق في إطار حادثة بذاتها أم لم يكن"[2]. ولعلّ ما يؤكّد ذلك، كثرة الأمثال العربيّة دون موارد، وأمثال (أفْعَل مِن) التي لا موارد لها، والأمثال المأخوذة من أبيات الشّعر، والأمثال التي رُوِيَتْ عن الرسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ[3]. إضافة إلى أمثال القرآن الكريم موضوع مبحثنا.

2 ـ الأمثال في القرآن الكريم :

للأمثال قدْرة على التأثير، ولهَا مكانة في كلام العرب، ومنزلة من بلاغتهم، فهي من أساليب البيان عندهم، والقرآن الكريم نزل بأساليب العرب ... لذلك اهتمّ هذا الأخير بها كثيرا و أعطاها أهميّة وأعدّها بحكمة ودقّة فنيّة وموضوعيّة[4]، وجعلها وسيلة من وسائله الكثيرة في تبليغ دعوته، وخصّص لها نصيبا وافرا فيه، فجاءت منتشرة في مختلف السّور والآيات، وبمختلف الأشكال والمضامين والأساليب. يقول المراغي: " نهَجَ القرآن الكريم نهْج العرب في أساليبها، فضرب الأمثال التي تُجلّي المعاني أتمّ الجلاء ، وتُحدِث في النّفوس من الأثر ما لا يُقدر قدره ولا يسبر غَوره، لما فيها من إبراز المعقولات الخفيّة في معرض المحسوسات الجليّة، وإظهار ما يُنكَر في لباس ما يُعرف ويُشهر"[5].

فقدْ كانت الأمثال جزءا هامّا من القرآن الكريم، تتّحِد معه في الفكرة التي يحملها والغاية التي يريد الوصول إليها، وأسلوبها هو الأسلوب القرآني نفسُه ."ذلك أنّ الأمثال القرآنية تتميّز بالرّوعة والبيان الذي يكشف المعاني الخفيّة فيجعلها جليّة، مصوَّرا ذلك تصويرا بليغا، يحقّق

---

[1] . التحرير والتنوير، 1 /301 .

[2] . عبد المجيد قطامش ، الأمثال العربية ، ص 15 .

[3] . ينظر: المرجع نفســه ، الصفحة نفســه .

[4] . ينظر: محمد ديب الجاجي ، النّسق القرآني دراسة أسلوبيّة ، ص 575 .

[5] . المراغي، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1، 1946، 57/1، 58.

المقاصد المرادة من ذكر الأمثال في القرآن الكريم"[1]. وهي بذلك وسيلةٌ هامّة من وسائله الكثيرة في تبليغ دعوته.يقول الزّمخشري:" ولِضَرْب العَرَبِ الأمْثَال واسْتحْضار العلَماء المثَّل والنظائر شأن ليس بالخفِيّ في إبراز خبِيّات المعاني، ورفْع الأسْتَار عن الحقائق، حتى تُرِيك المتخيّل في صورة المحقّق، والمتوهّم في معْرِض المتيقّن، والغائب كأنّه مشاهَد. وفيه تبْكِيتٌ للخَصْم الألد، وقمْع لسورة الجامح الأبيّ، ولأمْر مَا أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كُتُبِه أمْثالَه "[2].

وتتميّز الأمثال في القرآن الكريم عن غيرها سواء أكان في موضوعها ومضمونها أم في أسلوبها وطريقة عرضها أم في غرضها وهدفها. فالمثل" أسلوب قرآني مبتكر، في أدائه، وطريقته، وغايته فهو لا يحْذو حَذْو غيره ولا يستقي من مورد سابق عليه كما هو معروف في الأمثال العربية " [3].

وفي سبيل هذه الدّعوة الدينيّة وظّف القرآن الكريم اللّغة توظيفا حجاجيّا، واستعمل مختلف آليات الحجاج البلاغية ،والتي منها المثل، وهو- بهذا المعنى -"عقْد الصّلة بين صورتين، ليتمكّن المخاطِب من الاحتجاج وبيان حجته"[4]. حيث كثيرا ما يضرب الأمثال في سياق حديثه عن فكرة ما، فنجد العبارات : واضرب لهم مثلا ، ضرَب الله مثلا، مثلهم مثل، مثله مثل، مثَل الذين ... تتكرّر كثيرا في التعبيرات القرآنيّة .

والمثل يفْهَمه الجميع، " لذلك لما كان القرآن قد خاطب الكلّ، لا فئة خاصّة في النّاس، وخاطب كلّ فئة بالطريقة التي تفقه بها الأمور، فإنّه قد عبّر عن تلك المعاني العوِيصَة بضرب (الأمثال) عليها، لكيْ يُتاح فهْمُها لجميع الناس"[5]. يقول ابن المقفع :"إذا جُعِلَ الكلامُ مثلاً، كان ذلك أوْضحَ للمنطقِ، وأبْينَ في المعنى،وآنق للسّمعِ،وأوْسعَ لِشُعُوبِ الحديثِ"[6].

---

[1] . النقراط ، بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم ، 2 / 1037 .

[2] . الكشاف ، 1/ 43 .

[3] . عبد السلام الراغب ، وظيفة الصورة الفنيّة في القرآنا لكريم، ص 158 .

[4] . عبد الهادي ين ظافر، " آليات الحجاج وأدواته"، الحجاج مفهومه ومجالاته ، دراسة نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة ، الجزء الأول: الحجاج حدود وتعريفات، إعداد وتقديم: حافظ اسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2010، ص 139 .

[5] . راضي حكيم ، فلسفة الفنّ عند سوزان لانجر، دار الشؤون الثقافيّة العامّة ، بغداد ، د ط ، 1986، ص 43 .

[6] . ابن المقفع، الأدب الصغير، قراءة وتعليق: وائل بن حافظ ، دار ابن القيم، الإسكندريّة، مصر، ط1، دت، ص38 .

وضَرْب الأمثال في القرآن يُسْتفاد منْه أمور كثيرة : التّذكير، والوعظ، والحثّ، والزّجر، والاعتبار والتّقرير وترتيب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس[1]. فللأمثال في القرآن الكريم مقاصد وغايات تربويّة ونفسيّة وإصلاحيّة منها: الدّعوة إلى التّوحيد ونفْي الشّرك، إثبات البعث والحساب، إثبات النبوّة والرّسالة،بيان الفرق بين المؤمنين والكافرين ...حيث جاءت متنوّعة الموضوعات والمضامين تنوّع موضوعات القرآن الكريم نفسه، وتناولت " مجالات شتى، فمثّلت الإيمان والكفر، وفضحَت النّفاق والرّياء، ونددّت بالشرّ والباطل، وصوّرت الطيّب والخبيث، وحضّت على البرّ والتقوى ، وأبْرزَتْ الصّالح والطّالح ، وأبرزتْ المعقول في صورة مجسّمة، وألبست المعنويَّ في ثوْب المحسوس، لتهذّب بذلك طبائع النّاس، وتخفّف من غلواء النّفوس، ولتضع الإنسان أمام المصير الذي يختاره بنفسه وبملء إرادته"[2].

وغرضها كلّها إقناع المخاطب بما يدعو إليه والتأثير فيه بهذا الأسلوب الفنّي، وتحقيق غاية واحدة، وهي الإيمان بالله تعالى واتّباع منهجه. ولإقناعنا بهذه المسائل حاول القرآن الكريم عن طريق الأمثال أنْ يقرّب من أذهاننا معنى هذه الغيبيات التي لا نعرفها ولا نشاهدها، فتجعل لنا المعنى محسوسا، والمخفيّ ظاهرا ، والغائب حاضرا .وعن قيمة الأمثال والغرض منها، وسبب كثرتها في القرآن الكريم يقول الفخر الرازي: " إن المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصْف الشّيء في نفسه، وذلك لأنّ الغرض من المثل تشبيه الخفيّ بالجليّ، والغائب بالشّاهد، فيتأكّد الوقوف على ماهيته، ويصير الحسّ مطابقا للعقل وذلك في نهاية الإيضاح، ألا ترى أنّ التّرغيب إذا وقع في الإيمان مجرّدا عن ضرب مثل لهلمْ يتأكّد وقوعُه في القلب كما يتأكد وقوعه إذا مثل بالنّور، وإذا زهد في الكفر بمجرّد الذّكر لم يتأكّد قبحه في العقول كما يتأكّد إذا مثل بالظّلمة، وإذا أخبر بضعف أمْر من الأمور وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ في تقرير صورته من الإخبار بضعفه مجرّدا، ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المُبين وفي سائر كُتُبه أمثاله" [3].

فالأمثال وسيلة فنيّة من وسائل التّربية، وأسلوب تعبيري راق، و" لون من ألوان الهداية الإلهيّة تُغْري النّفوس بالخير وتحضّها على البرّ، وتمنعها عن إتيان الإثم والمعصية، وتدفعها

---

[1]. البرهان ، 1 / 330 .

[2] . بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم ، 2 /1049، 1050 .

[3] . مفاتيح الغيب ، 2 /312 .

إلى الفضيلة دفعا، والامتناع عن النقيصة، مقدّمة لها الوقائع والأحداث والعبر والعظات بآيات ذات أدلّة حسيّة، وأخرى ذات مضامين عقلية، بما يهدي للتي هي أقوم"[1]. وقد ذكر صاحب (دراسات قرآنية) :" أنّ للأمثال في ذاتها جاذبيّة ليست لغيرها من أنواع التّعبير، ذلك لأنّ النّاس تُحبّ المثل وتتأثّر به، أكثر من الصّور المباشرة في التّعبير؛ لأنّ فيه جمالا فنيّا زائدا، فبَدَلاً مِنْ أنْ يعرض المعنى مباشرة، فإنّه يعرض معكوسا من خلال مرآة خاصّة لا كالمرايا العادية فالمرآة العادية تعكس الشّيء في نفس صورته بلا فرْق، ولكنّ هذه المرآة ذات خصيصة غير عادية، فهي لا تعكس الشّيء على صورته الأصليّة، وإنّما على صورة أخرى مشابهة ولكنّها أبْهى رونقا وأكثر وضوحا، وأشدّ جاذبيّة، ومن ثم تُعين على تذوّق المعنى الأصلي بعقْد المقارنة بين الأصل والصّورة، ثمّ إنّ هناك متاعا فنيّا ونفسيّا في هذه العمليّة ذاتها، عملية عقد المقارنة بين الأصل والصورة؛ ومن ثم يتضاعف المعنى في الحسّ حين يصبح أصلا وصورة، كلّ منها قائم بذاته ومتّصل بالآخر في ذات الوقت، ويجد الإنسان متعة في تملي المعنى بخياله بدلا منْ أنْ يتملّاه بذهنه فحسب "[2]. وبهذه الخصائص الجماليّة والدّلاليّة، يكون المثل القرآني قد جمَع بين الهدف الدّيني والهدف الفنّي.

[1] . النقراط ، بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم ، 2 / 1049 .

[2] . محمد قطب ، دراسات قرآنية ، دار الشروق ، القاهرة ، ط 8 ، 2004 ، ص169 .

3 ـ الأمثال المتقابلة في القرآن الكريم .

تمهيد :

الأمثال القرآنيّة كثيرة ومتنوّعة، وما يهمّنا منْها هي الأمثال القائمة على التّقابل." فهناك صِيَغ أسلوبيّة متعدّدة لعرْض المثَل منها: مقارنة ومقابلة بين نموذجيْن أو حالتيْن أو أكثر"[1]. فأحيانا يلجأ القرآن الكريم في أمثاله إلى الجمع بين المتعارضيْن كالمؤمنين والكافرين وغيرهما في مثَل واحد لإجراء الموازنة بينهما وإيضاح الفوارق الجوْهريّة بين الاثنين؛ حيث يضعنا بيْن هذيْن الحالتيْن، وهُما مُتباعِدان حقيقةً، مقترنان في السّياق الواحد، يسوقهما مثَلَيْن مُتقابليْن. فتتضمّن الآيات خصيصتيْن اثنتيْن هُما التّقابل والمثل، فيُضفي كلّ منْهما بعناصره الفنيّة وألوانه البيانيّة وإيحاءاته الدّلاليّة على هذا السّياق،" فيؤدّي ذلك إلى خصْب أكبر، وثراء أكثر في اللّغة الشّعريّة"[2]، لأنّ خَلْطها يُعتبر خروجا عن الصّورة العارية والكلام المتداول. وهو أسلوب له كثير من المزايا الفنيّة، وبه يتمّ تدفّق الخيال وإشباع التّصوير، وخلْق المعنى وتوليده[3].

فالمثل القرآني يعتمد ـ كما سبق ـ على التّشبيه ؛ فهو" قوْلٌ شُبِّه مضربُه بموْرده"[4]، فيتضمّن مشبّها ومشبّها به. وقد يُحذَف الأوّل ويُذكَر الثّاني، فيدخل هذا في باب الاستعارة . وقد تُذكر أداة التّشبيه، وهو ما يُخرِج المثلَ منْ هذه الأخيرة ــ كما يرى البلاغيون ــ يقول البوطي: " ضرْب المثل في غضون الكلام، يُعْتَبر لونا متميِّزا من ألوان التشبيه ويعتبر أحيانا لونا خاصّا من ألوان الاستعارة، فإنْ كان الممثَّل له مذكورا في الكلام كان تشبيها، وإن كان محذوفا فهو استعارة "[5].

وللأمثال المتقابلة دورٌ كبيرة في جمال التّعبير، وروعة التّصوير، وفي تحقيق الدّلالة ... وفيها موازنةٌ وجمْع بين المتناقضيْن، وإظهارٌ للفوارق وتبْيينٌ لعُمْق الهُوّة بين هذيْن الأمريْن، فتكون الآيات أنفذَ إلى النّفس، وأكثر تأثيرا، وأشدّ وقعا، فينْجذب إليْها الإنسان .

هذه الأمثال قد تكون طويلة نوْعا ما، وقد تكون سريعة موجزة، وفيها ـ كثيرا ـ ما يُحذف

---

[1] . محمد ديب الجاجي ، النّسق القرآني دراسة أسلوبيّة ، ص 576 .

[2] . محمد الواسطي ، ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين ، ص 234 .

[3] . ينظر: المرجع نفســـه ، ص 315 .

[4] . التحرير والتنوير، 1 / 307 .

[5] . البوطي، من روائع القرآن، تأملات علميّة وأدبيّة في كتاب الله عزّ وجلّ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، 1999 م، ص181.

الممثّل له، أي المشبّه، لكنّه يُفهم من خلال السّياق. فقد يلجأ القرآن الكريم في أمثاله أحيانا إلى الرّمز، لكنّ هذا الأخير ليس فيه غموض يحجب عن المعنى، وإنّما هو نوْع من الإخفاء الفنّي للمعنى لتحريك العقول والأذهان للبحث عنه وكشفه أكثر[1]. وتدور هذه الأمثال ــ في عمومها ــ بين الإيمان والكفر، وما يدور حوْلهما، وما يتّصل بهما،" فإنّ الغرض من الأمثال المضروبة في القرآن يركّز في اتجاهيْن هامّيْن هُما: تثبيت التّصوّر الدّيني وترسيخه، وتقديم النّماذج الطيّبة والقدوات في مقابل النّماذج الممْجوجة والمرْفوضة "[2]. يقول النقراط:" فإنّ من أساليب القرآن الكريم التّقابل بين الإيمان والكفر وعواقبهما، والفضيلة والرّذيلة، والخير والشرّ، والحقّ والباطل، والآخرة الباقية والدّنيا الفانية. وذلك لتنبيه الذّهن إلى فضائل الأولى فيلتزم بها المؤمن من تلقاء نفسه، ويعرض عن الأخرى وهو قانع بِشَرّها وسُوئها"[3]. ولعلّ في هذا جمْعًا بين علمَيْ البيان والبديع .

والجدير بالذكر أنّ هناك نوْعا آخر في القرآن الكريم ليْسَ مثَلا فقط، ولا قصّة فقط، بل جمَعَ بين المثل والقصّة ، ولهذا أطْلَقْنا عليه اسْمَ (الأمثال القصصية)، وخصّصنا له عُنصرا مستقلّا سنتطرّق إليه فيما بعد .

وأغلب الأمثال في القرآن الكريم يُصرّح بلفظة (المثل) أو (أمثال)، والكثير منها يعتمد على لفظة (ضرب) أو أحَد مشتقاتها (اضرب، يضرب). وتكون هنا بمعنى (دليلا) أو (قصة) أو (إيضاحا) أو (شبيها) أو (مثالا) أو (نظيرا) ...[4].

ولعلّ هذه المعاني تجعل للمثل وقْعَه في إرادة التأثير، وهياج الانفعال، وكأنّ ضارب المثل يريد أن يقرع به أذُنَ السّامع، فينفذ أثره إلى قلبه وينتهي إلى أعماق نفسه[5]. ذلك لأنّه يتضمّن معاني هامّة، وغايات نبيلة، وأغراضا دينيّة جديرة، لأجل إقناع المخاطب بما يدعو إليه والتأثير فيه بهذا الأسلوب الفنّي، خاصّة أنّ المثل يُستعار ــ عموما ــ لكلّ أمْر مُهمّ أوْ حدَث

[1] . ينظر: الراغب ، وظيفة الصورة الفنيّة في القرآن الكريم ، ص 172 .

[2] . عيد سعد يونس ، التّصوير الجمالي في القرآن الكريم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط1 ، 2006 ، ص 147 .

[3] . النقراط ، بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم ، 2 / 1061.

[4] . ينظر: شلتاغ عبود ، أسرار التشابه الأسلوبي في القرآن الكريم ، ص243 . الراغب، وظيفة الصّورة الفنيّة في القرآن الكريم، ص 160 .

[5] . ينظر: سميح عاطف الزين ، معجم الأمثال في القرآن الكريم ، ص 24 .

غريب أو قصّة . يقول الزركشي:" ولما كان المثل السائر فيه غرابة استعير لفظ المثل للحال أو الصّفة أو القصّة، إذا كان لها شأن وغرابة "[1].

وقد ربَط ابن عاشور هذا الشّأن العجيب وهذه الغرابة في التّشبيه المركّب بوجود لفظ (المثل) مع (الكاف)، حيث يقول: "ولمّا شاع إطلاق لفظ المثل بالتّحريك على الحالة العجيبة الشّأن جعل البلغاء إذا أرادوا تشبيه حالة مركبة بحالة مركّبة أعنى وصفيْن منتزعيْن من مُتعدِّد أتوا في جانب المشبه والمشبه به معا أو في جانب أحدهما بلفظ المثل وأدخلوا الكاف ونحوها من حروف التّشبيه على المشبّه به منْهما، ولا يطلقون ذلك على التّشبيه البسيط "[2].

وفي ما يلي تحليلٌ لبعض النماذج المختلفة من هذه الأمثالِ المتقابلة والتي تذكر لفظة (مثل) صراحة :

أ ــ الأمثال الطويلة : وردَتْ الأمثال الطويلة في القرآن الكريم مختلفةً من حيث البداية:

فمن الأمثال التي بدأت بـ (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا)، قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ التّحريم 10 ـ 12.

هذه الآيات خاتمةُ سورةِ (التحريم) تضمّنت مَثَلَيْن متقابلين؛ الذين كفروا ومثلهم امرأة نوح وامرأة لوط، أنموذج الخيانة الإيمانيّة في بيت الرّسالة، والذين آمنوا ومثلهم امرأة فرعون أنموذج إخلاص الإيمان في بيت الكفر، وأنموذج التّقوى. فقدْ سبق الحديث عن المؤمنين والكفّار في الآيات(6، 7، 8، 9). ومن ثمّ قارَن وقابَل بيْن حالتيْهما بأنْ ضرَب مثَلَيْن للفريقيْن بنظيريْن في حاليْهما لتزداد الموعظة وُضُوحا ويزداد التّنويه بالمؤمنين استنارة[3].

فلمّا ضرب الله المثل لِلَّذِينَ كَفَرُوا(التحريم:10) أعْقَب بضرْبِ مَثَلٍ للّذين آمنوا لتحصل

[1] . البرهان ، 1 / 331 .

[2] . التحرير والتنوير، 1 / 299 .

[3] . نفســـه ، 28 / 334 .

التقابل فيتّضح مقصود المثلَيْن معا، وجرْيًا على عادة القرآن الكريم في إتّباع التّرهيب بالتّرغيب[1] أو العكس. ومن ثمّ فالمثل الأوّلُ يُقابل المثلَ الثّاني، والنّتيجة أنّ الأنموذج الأوّل في النّار، والثّاني في الجنّة .

وهُما مَثَلان، وإنْ كان متناقِضَيْن مُتَباعِدَيْن من حيث المعنى، فإنّ السّياق قد ربَط بينهما عن طريق التّمثيل من جهة، وعن طريق التّقابل من جهة أخرى. وهو ما جَعَلَهما مثَلا واحدا مركّبا من أربعة أجزاء متشابكة يتحقّق من خلالها التّناسب، لأنّ "وجود التّناقض في التّركيب إنّما يحقّق في النّهاية نوعا من التّناسب أيضا"[2]. فيعيش الكفر والخيانة في بيت الرّسالة، وبالمقابل يعيش الإخلاص والتّقوى في بيت الكفر. وهو ما" يَهدف إلى بيان أنّ الرّوابط الحقيقيّة هي روابط الإيمان وليس سواها، فكلّ إنسان مسؤول عن عمله وتصرفه"[3]. أيْ أنّ الله لا يَصْرفه عن وعيده وعذابه شيء حتّى وإنّ كانتا زوجتَيْ رسُولين. وبالمقابل لا يمنع من وعده و رحمته شيء وإن كانت امرأة فرعون، لأنّ الخيرَ لصاحبه، لا لغيره، والشرّ على صاحبه، لا على غيره. فعَدْل الله "اقتضى ألّا يتحَمّل مؤمنٌ وِزْر معصيةِ كافرٍ، وأنْ تكون كلّ نفس مسؤولة عمّا تفعل ولا تُحاسَب عمّا يفعله غيرها"[4]. وكان الكفْر في بيئة الإيمان، والإيمان في بيئة الكفر، وعاش الشرّ مع الخير، لكنّه رغم هذا فإنّ صلاحَ الغير لا ينفع المُفسدَ، وفسادَ الغير لا يضرّ المُصْلحَ." فضَرَب مثَلَيْن في الشرّ ومثَلَيْن في الخير"[5]، وامتزج المثلُ بالمثل، والتّقابلُ بالتقابل، وامتزجت المعتقدات، وتداخلت الصّور وتقابلت عناصرُها، فكان مثلا مركّبا، تفاعَلَ فيه المثل الأوّل بالثّاني في سياق السّورة. وفي العناصر المركّبة تكون القيمة الجماليّة أوْضَحَ، والتّأثير أكثر، والمعنى أثْرى وأعْمق .

يقول صاحب(الأمثال في القرآن الكريم):"هذا المثل من الأمثال المركبّة تركيبا متوازنا، حيث نلحظ التقابل بين العناصر المكوِّنة له، ممّا يجعله صورة جماليّة مؤثّرة في النّفس والذائقة الفنيّة، بقدْر ما يحمله من مغزى، وقيمة تاريخيّة وعلميّة"[6]. فالمثل تشبيهٌ، "وجمالُ التّشبيهِ يأتي

---

[1] . ينظر: التحرير والتنوير، 28 / 376 .

[2] . محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان، بيروت، الشركة المصرية العالمية، الجيزة ، ط1، 1994، ص291.

[3] . عبد السلام الراغب ، وظيفة الصورة الفنيّة في القرآن الكريم ، ص195 .

[4] . الشعراوي ، معجزة القرآن ، مكتبة رحاب ، الجزائر، د ط ، د ت ، 1 / 179 .

[5] . التحرير والتنوير، 28 / 377 .

[6] . الصديق بن محمد، الأمثال في القرآن الكريم، دراسة موضوعيّة وأسلوبيّة، دار أبي رقراق، الرباط ، ط1، 2008، ص111 .

من خَلْق الائتلاف بين الأطراف المختلفة"[1]. وهو ما يقوم به التّقابل أيضا. فيتوحّد الاثنان على تجميع العناصر، ويزداد عن طريقهما الارتباط والاتّصال؛ارتباط المتناقضات في السّياق وائتلافها. وفي الوقت نفسه يتجلّى تباعُدُها واختلافها في الذّهن. وهنا تمتزج جماليّة المثَلِ والتّشبيه بجماليّة التقابل، كما يمتزج معنى كلٍّ منْهُما في معنى الآخر.

ومن جهة أخرى:

فقد بدأ كلُّ مثَل بـ ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ... ﴾. وهو تكرار يمثّل مقدّمة إيقاعيّة تُلْفت انتباه السّامع و تحضّر ذهنه لاستقبال أمْر ذي بال، وتُشوّق إلى الكلام وسماع الفكرة وإدراك العِبْرة، وتحقّق له الذّيوع والانتشار وتُكسبُه القيمة ليصبح أمراً واقعاً متداولا كتداول العُمْلة قديما بعد تشكيلها قطعة فضية أو ذهبية[2]. إضافة إلى أنّه يُحافظ على توازن التّقابل، و يُعلم بأنّ المثَلَيْن منفصلان دلاليّا. فيكون له من التّأثير القويّ وتحقيق الغرض ما لا يكون لغيره .

فمِن مقاصد المثل بيانُ الفَرْق بين المؤمنين والكافرين. وهو يخاطب زوجتَيْ النّبيّ . صلّى الله عليه وسلّم . بأن تتّعِظا، و" لا تكونا بمنزلة امرأة نوح وامرأة لوط في المعصيّة وتكُونَان بمنزلة امرأة فرعون ومريم، لأنّ الله جعل حالةَ هاتين المرأتين عِظةً وتنْبيها للّذين كفروا "[3].

وإذا كانت بداية كلّ مثل تكررّت لفْظا، فإنّ النّهاية تكرّرت وزنا وصيغة ﴿... مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ / ... مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾. حيث جاءت الفاصلة موحّدة في الوزن، وفي الصّيغة؛ فكلّ فاصلة تتكوّن من كلمتين؛ الأُولى مِنْهما حركتان فقط «مَعَ،مِنَ»، والثّانية اسم فاعل بصيغة الجمْع، أيْ ينتهي كلّ منهما بـ « ياء ونون ». والفاصلة في القرآن الكريم" غالبا ما تتضمّن رويّ الواو والنّون أو الياء والنّون، وذلك لأهميّة التّطريب واستجلاب القلوب إلى روعة شكله ومضامينه الشريفة "[4].

وقد أطلق بعضُهم على تكرارِ صيغةِ الكلمة ووزنها، والحرفِ الأخير من الفواصل اسمَ

---

[1] . خلدون سعيد صبح ، البنية الجماليّة للتشبيه في معلقة امرئ القيس ، مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ربيع الثاني 1430هـ ، نيسان 2009، الجزء: 2 ، المجلّد: 84 ، ص 448 .

[2] . ينظر: تفسير الشعراوي ، 12 / 7498 .

[3] . ينظر: التحرير والتنوير، 28 / 335 .

[4] . أحمد ياسوف ، دراسات فنيّة في القرآن الكريم ، دار المكتبي ، دمشق ، ط1 ، 2006 ، ص 461 .

"التكرارِ الإيقاعي"، وهو ـ عنده ـ من أنواع الروابط[1]. ومن ثمّ فقد ربَط تكرار البدايَة والنّهاية بين المثلَيْن ربْطا شكليّا ودلاليّا.

وقد ولّد هذا التّكرار الصّوتيّ نغما، فكان له أثره الحَسَن على إيقاع المثل. فالقرآن الكريم يهتمّ بالفواصل كقيمة صوتيّة اهتماما كبيرا، بعد قيمتها المعنويّة .

ومن جهة أخرى فقدْ ساهم التكرار وزنا وصيغة في الفاصلتين في النّهاية الموحّدة أيضا، وهو ما شكّل توازنا بين المثَلَين .

وما ساهَم ـ أيضا ـ في التّوازن الصّوتيّ والدّلاليّ ـ إضافة إلى التّقابل ـ هو أنّه ضرَب المثلَ للذين آمنوا بامرأتين « اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمَ بنَتَ عِمْرَانَ » مِثْلما ضرَب للّذين كفروا « اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ ». فاكتملت للإيقاع والدّلالة عناصرُ؛ التّكرار والتّوازن والفواصل والتّمثيل والتّركيب والتّقابل ... وهي جميعها من قوانين الجمال .

والجدير بالذّكر أنّه قد عبّر هنا بـ « امرأة »، بَدَلًا من « زوجة ». والزَّوْجُ لغة هو الفَرْدُ الَّذِي لَهُ قَرِينٌ، وَالزَّوْجُ: الِاثْنَانِ، فَهُمَا زَوْجٌ[2]. والوَصْف بالزّوج يؤْذِن بملازمته لآخر وعدم إهماله له، فلذا سمّي بالزّوج قرين المرأة وقرينةُ الرّجل[3]. وهو ما يوحي بالعلاقة الصافية والوثيقة بين الزّوجين. أمّا كلّ زوجيْن مذكوريْن في الآيات فالعلاقة بينهما غير متساوية، وفيها خلل يُفسِدها. فقد تعطّلت آيتُها من السّكن والمودّة والرحمة، بتبيان العقيدة؛ كامرأة فرعون...[4]، وبخيانة دينيّة كامرأتَيْ نوح ولوط ـ عليهما السّلام ـ . ومن ثمّ صلاح الزّوج وفساد الزّوجة، وفساد الزّوج وصلاح الزّوجة، وكلاهما يعبّر عن خلَل في العلاقة .

ومن الأمثال الطويلة التي بدأت بـ (مثل)، والتي تعني هنا (الشأن) أو(الحال)[5] قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ

---

[1] . ينظر: جمعان بن عبد الكريم ، إشكالية النص دراسة لسانية نصيّة ، النادي الأدبي بالرياض ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط1 ، 2009 ، ص364 .

[2] . ينظر: لسان العرب ، 1 / 291.

[3] . التحرير والتنوير، 14 / 218 .

[4] . ينظر: عائشة عبد الرحمن ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنيّة لغويّة وبيانيّة، دار المعارف ، القاهرة ، ط3 ، د ت ، الصفحات 229 ، 230 ، 231 .

[5] . ينظر: شلتاغ عبود ، أسرار التشابه الأسلوبي في القرآن الكريم ، ص42 .

وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ البقرة 261 ـ 265 .

ففي الآيات مَثَلان تضمّن كلٌّ واحد منْهُما تشبيهًا:

المثل الأول: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴿٢٦١﴾ ﴾. البقرة 261 .

المشبــه: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

المشبه به: ﴿ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ .

ففي هذا المثل شبّه تعالى الذي يُنفق مالَه في سبيل الله بالفَلَّاح المزارع يبذر الحبّ في الأرض متوكّلا على الله، مخلصا في برّه وإحسانه بارك الله له فيما زرع، فأخرجت الحبّة ساقا تشعب منه سبع سنابل، في كلّ سنبلة مائة حبّة، فصار الحاصِل من حبّة واحدة (سبعمائة حبّة) وهذا تمثيل لمضاعفة الأجر، لِمَنْ أخلص في صدقته وإحسانه[1]. وهو مثلٌ يتضمّن صورة بلاغيّة جماليّة مؤثّرة تبعث في النّفس الرّغبة في الإنفاق، والإكثار من الصّدقات[2].

المثل الثاني: ﴿ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴿٢٦٤﴾ ﴾ البقرة 265 .

المشبّــه: ﴿ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ ﴾ .

[1] . ينظر: الصّابوني ، الإبداع البياني في القرآن العظيم ، ص47 .

[2] . ينظر: الصديق بن محمد ، الأمثال في القرآن الكريم دراسة موضوعيّة وأسلوبيّة ، ص 75 ، 76 .

المشبّه به:﴿صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ والصّفوان هو" الحجر الكبير الأملس"[1].

أراد سبحانه وتعالى أنْ يبيّن أنّ الإنفاق مع الرّياء ومع المنّ والأذى لا يثمر شيئا، ولا نتيجة له؛ فالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ كإبطال المنافق الذي يرائي بإنفاقه ولا يريد به رضا الله تعالى ولا ثواب الآخرة ... فَمَثَلُهُ في إنفاقه كَمَثَلِ حجر أملس عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ مطر عظيم القطر. فَتَرَكَهُ أملس نقياً من التّراب[2]. وفي هذا دلالة على غفلة قلب المنافق وبلادته وخلوّه من الخير والجمال فهو سائر من ضعف إلى ضعف حتى ينتهي إلى زوال[3]. يقول المعطي:" هذا المثل صورة أدبية مستوفية العناصر والأركان. موفية بالغرض أحكم وفاء. هي تشبيه تمثيليّ مثِّلت فيه أعمال الكافرين بتراب منثور على حجر من الصّوان الأملس. فهطلت عليه الأمطار فحملته وذهبت به كلّ مذهب فلم يبق منه فوق الحجر شيء"[4].

فقد جمعت الآيات بين التّشبيهين في سياق واحد، وفي الوقت ذاته تتكوّن من مثَلَيْن متقابلين شكّلا صورتين إطارهما العام هو" المقابلة بين نفوس خسيسة لا تنوي من إنفاقها سوى كسْب رضا الناس، ونفوس طيّبة باعثها على الإنفاق مرضاة الله سبحانه"[5]. ومن ثمّ فهاتان الصّورتان متكاملتان، لأنّهما معا يُصوّران حالتيْن متناقضتيْن، شكّلتا صورة واحدة ذات عناصر متناسقة وأجزاء متّسقة عن طريق التقابل." فهذا هو الوابل مشتركا بين الحالتين ، ولكنه في الحالة الأولى يمحو ويمحق ، وفي الحالة الثانية يربي ويخصب. وفي الحالة الأولى يصيب الصفوان، فيكشف عن وجه كالح كالأذى، وفي الحالة الثانية يصيب الجنّة، فيمتزج بالتّربة ويخرج أكلا "[6]. فالمصدر واحد والنّتائج مختلفة تمام الاختلاف، بسبب اختلاف النّوايا والمقاصد. وهذه الأخيرة أساسُ العبادة .

فكلّ مثل بَيّن المشبّه وقَرّبه إلى الأذهان والأفهام، خاصّة أنّ المشبّه به في كلّ تشبيه هو من بيئة العرب الطبيعية «الحبّة، السنابل، الصَفْوَانِ، التُرَابٌ، الوَابِلٌ، الجنة، الربوة» والتي عرَفَها

---

[1] . الشوكاني ، فتح القدير، 1 / 327 .

[2] . ينظر: البيضاوي ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، 1 / 158 .

[3] . ينظر: محمد أبو موسى ، التّصوير البياني ، منشورات جامعة قار يونس ، بنغازي ، ط1 ، 1978 ، ص112.

[4] . عبد العظيم المطعي، خصائص التّعبير القرآني وسماته البلاغية ، 2 / 221 .

[5] . صالح ملّا عزيز، جماليات الإشارة النّفسيّة في الخطاب القرآني ، دار الزمان ، دمشق ، ط1، 2010 ، ص 101.

[6] . محمد كريم الكواز ، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ليبيا، ط2 ، 2008 ، ص395 .

وعايَشها الجميع،" فالقرآن يستخدم من الأمثال التي كان في مقدور العرب فْهمَها والاقتناع بها والقياس عليها، ومن ثمّ اكتسبت طاقة حجاجيّة عالية على الإقناع وقوّة التأثير"[1]، إذْ لا يحقّق التشبيهُ والتمثيلُ غايتَه إلّا إذا كان المشبّه به معروفا في ذهن السّامع و ملموسا لديه ، ومعيشا عنده .

وكلّ مثَل يُشَكّل بنْية تركيبيّة ودلاليّة مستقلّة عن الآخر، فهُما متنافران دلاليّا. والذي يجمع بينهما هو التقابل، حيث يُقابِل مَثَلُ الإخلاص مثَلَ الرّياء ." وفي هذا ترغيب لهُم بالإخلاص مع ترهيب من الرّياء ونحوه فهو وعْدٌ ووعيد"[2]، لتظهر نتيجة كلٍّ منهما، والفرقُ بينهما، وهو" فمَنْ زرَع في أرض خصْبة طيّبة التّربة، نبَت زرعُه، وطاب ثمرُه، وجنَى ثمَرةَ ما زَرَع، ومن زرَع في أرض صَخْريّة ملْسَاء، ونزل عليها قليل من الماء، أذهب كلّ أثر للزرع، لأنّ الأرض ليست صالحة للزّرع، فكيف إذا نزل عليها الغيْث الدّافق، والصّيْب الماحق؟ "[3].

وإذا كان التّشبيه يجمع بين متقاربيْن وهُما المشبّه والمشبّه به، وفيه تظهر الجماليّة ويتجلّى المعْنى، فإنّ في الجمْع بين المتنافريْن . وهي وظيفة التّقابل . جماليّةٌ أكثر، ومعنى أدقّ، وتأثير أعمق، وإقناع أقوى. وهنا تظهر أهميّة الضدّ ودوره في التعبير. ولعلّ هذا ما جعل بعضَهم يعتبره" أكثر خطورة على البال من الشّبيه وأوضح في الدّلالة على المعنى منه"[1]. ولعلّ ذلك راجع إلى أنّ الشّبيه لا يُظهِر شبيهَه ولا يُميّزه، بقَدْر ما يُظهِره الضدّ ويميّزه، وقديما قيل "بضدّها تتميّز الأشياء". وفي هذا تتداخل العناصر الفنيّة وتتضافر لأداء التّعبير وتحقيق الجماليّة وإنتاج الدّلالة وتعميق المعنى والخروج عن المألوف، والوصول إلى التّأثير... وهو ما يوفّره هذا المثل المعتمد على التّقابل المتداخل مع التّشبيه .

لأنّه ما كان للإنسان أنْ يُدْرِك حقيقةَ أجرِ المنفقين في سبيل الله دون المشبّه به المعروف والملموس، وهو حبّة الزّرع التي ﴿أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ ﴿٢٦١﴾﴾ .

وما كان له أيْضا أنْ يُدرك حقيقةَ خسارة الذي يُنفِق رئاء النّاس دون المشبّه به المعروف والملموس أيضا، وهو ﴿صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ ﴿٢٦٤﴾﴾." فالمُرائي يشبه صورة الزّارع على صخرة ملساء، عليها تراب رقيق. وهو رمز للرّياء المبطل للأعمال، فينزل المطر

[1] . محمود المصفار، سيميائية القرآن بين الحجاج والإعجاز، ص 52 .

[2] . الشّوكاني ، فتح القدير، 1 / 328 .

[3] . ينظر: المرجع نفسه ، ص 49 .

من السّماء فيجرف الطبقة الرقيّة من على الصّخرة"[2].

ومن جهة أخرى، ما كان لِيَعْرف الفارقَ الشّاسع بين المنفقيْن دون هذا التقابل .

هذه النّتائج يُظهِرها التّشبيهُ والتّقابل جليّةً قريبةً إلى الذّهن، من خلال المقارنة بينهما في قسميْن متكامليْن، يتضمّن كلّ واحد منهما جزئيات متناسقة تشكّل جميعها لوحة فنّية متشابكة. يقول سيد قطب:" وإذا كان القلب الصّلد وعليه سِتارٌ من الرّياء يمثّله صفوان صلْد عليه غشاء من التّراب، فالقلب المؤمن تمثّله جنّة. جنّة خصبة عميقة التّربة في مقابل حفنة التّراب على الصّفوان. جنّة تقوم على ربوة في مقابل الحجر الذي تقوم عليه حفنة التّراب، ليكون المنظر متناسق الأشكال. فإذا جاء الوابل لم يذهب بالتّربة الخصبة هنا كما ذهب بغشاء التّراب هناك. بل أحياها وأخصبها ونماها... إنّه المشهد الكامل، المتقابل المناظر، المنّسق الجزئيّات، المعروض بطريقة معجزة التناسق والأداء، الممثّل بمناظره الشّاخصة"[3].

وهي آيات جمعت بين التّشبيه والمثل والتّقابل، بما تضمّنته من متقاربات ومتناقضات، فالقرآن الكريم"يتّخذ من الأسلوب التّشبيهي والتّمثيلي وسيلة للبيان والتّهذيب، والتّربية والإصلاح، والمدح والذمّ، والإرشاد والتّوجيه"[4]. فقدْ جمعت بالتّالي بين التّضاد والتّصوير؛" فالتّضاد بين الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ... والذين ينفقون رئاء النّاس ولا يؤمنون بالله، جعلنا أمام تشبيه كامل بطرفيْه إزاء تشبيه آخر بطرفيْه، المؤمنون وإنفاقهم في تشبيه كامل، والمنافقون وإنفاقهم في تشبيه آخر"[5]. وذلك لتنبيه الذّهن إلى فضائل الأولى فيلْتزم بها المؤمن، ويعرض عن الأخرى وهو قانع بشرّها، فاندمج فيها علم البيان بعلم البديع. يقول الشيخ الشعراوي:" في هذا المثل يَعقد الله مقارنة بين الذي ينفق في سبيل الله وقلبه يملؤه الإيمان، وبين ذلك الذي ينفق مراءاة للنّاس وقلبه فيه الكفر... ليقرب إلى أذهاننا الفرق الرّهيب بين الجزاء الذي ينتظر المؤمن، والجزاء الذي ينتظر الكافر على نفس العمل ... ولكنّ أحدهما يقوم به وفي قلبه إيمان ويقصد به وجْه الله ... والثّاني يقوم به وفي قلبه كفر ويقصد به النّاس أو الدنيا "[6].

---

[1] . عبد العزيز عتيق ، علم البديع ، ص 63 .

[2] . أحمد الراغب ، وظيفة الصّورة الفنيّة في القرآن الكريم ، ص 185 .

[3] . ينظر: في ظلال القرآن ، 1 / 309 .

[4] . عبد العظيم المطعي ، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، 2 / 279 .

[5] . ينظر: شلتاغ عبود ، أسرار التشابه الأسلوبي في القرآن الكريم ، ص 242، 243 .

[6] . محمد متولي الشعراوي ، معجزة القرآن ، مكتبة رحاب ، الجزائر، د ط ، د ت ، 1 / 110 .

فالرّبط بالتّشبيه عن طريق التّقارب والتّعالق ، والرّبط بالتّقابل عن طريق التّنافر والتّباعد، يقرّب المعنى ويُعمّقه، ويُكثّف الدّلالة، ويظهر جماليّة التّعبير والتّصوير من خلال هذا التّداخل بيْن العناصر المتشابهة والمتنافرة. لأنّ الضدّ يستدعي ضدّه إلى الذّهن كما يستدعي الشّبيهُ شبيهَه." لأنّه في تداخل والتّشبيه يتمّ تدفق الخيال وإشباع التّصوير. وفي إدماج أحد هذين الأسلوبين في الطباق يتمّ خَلْق المعنى وتوليده"[1]. فكثيرا ما يلتقي التّشابه والتّقابل، فيؤدّي ذلك إلى خصب أكبر، وثراء أكثر[2]. يقول أبو حيان:" لما ضرب مثل من أنفق ماله رئاء الناس، وهو غير مؤمن ذكر ضدّه بتمثيل محسوس للذّهن، حتى يتصوّر السّامع تفاوت ما بين الضّديْن، وهذا من بديع أساليب فصاحة القرآن، ولمّا وصْف صاحب النّفقة بوصفيْن قابل ذلك هنا بوَصْفيْن، فقوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴿٢٦٥﴾﴾ ، مقابل لقوله: ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴿٢٦٤﴾﴾ وقولُه : ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴿٢٦٥﴾﴾ مقابل لقوله : ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴿٢٦٤﴾﴾"[3] .

إنّ تحقّق التشبيه بين إيذاء المؤمن بتصدّقه ومماراة الكافر بإنفاقه يجعلهما متعادليْن دلاليّا، على الرّغم من انضواء كلّ منْهما تحت قطب دلالّي مستقلّ. إلّا أنّ كوْن الأوّل يُمثّل الجانب الإيجابيّ في قيمة سلبيّة أدّى إلى تقارب دلاليّ كبير بينهما. وبهذا يكون التّشبيه الأوّل في هذا التّصوير قدْ حقّق تداخُلا بين الإيمان والكّفر في نفس المؤمن المرائي، فبدَلا من أنْ تحقّق الإفادة منَ التّصدّق، تحقّق الإيذاء. وهكذا يكون التّصدّق قد كَشَف لنا عن حقيقة معيّنة [4]. وفي هذا خروجٌ عن المألوف وتقديم المعنى بطريقة فنيّة مؤثّرة ومقنعة .

ومن الأمثال التي بدأت باستفهام ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ... ﴾ قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ إبراهيم 24 ــ 27.

---

[1] . الواسطي ، ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين ، ص 351 .

[2] . المرجع نفسه ، ص 234 .

[3] . أبو حيان ، البحر المحيط ، 2 / 322 .

[4] . ينظر: عشتار داود محمد ، الإشارة الجماليّة في المثل القرآني، اتحاد كتاب العرب ، دمشق ، د ط ، د ت ، ص 76.

كما هو معلوم أنّ للكلمة دورا كبيرا وأثرا عميقا في حياة الفرد والبشريّة عامّة،"فالكلمة أحيانا تقوم مقام السّيف والقذيفة وأكثر، وأحيانا تهوي بصاحبها في النّار كما ترفعه أو تخفضه"[1]. فكلّ شيء يقوم بها؛ فالكلمة تُسعِد وتُشقِي وتُقيم وتمنح و تَمنع و تبني و تهدّم ...[2]

.

لذلك ففي هذه الآيات ضرَب الله مثلين متقابليْن لِنَوعَيْ الكلمة؛ الطيبة والخبيثة، وكلّ مثَل يتضمّن تشبيهًا. والمثلان هما:

المثل الأول **المثل الثاني**

[(الكلمة الطيبة) **تشبه** (الشجرة الطيبة) **] يقابل [** (الكلمة الخبيثة) **تشبه** (الشجرة الخبيثة)**]**.

ويمكن تحديدهما وتوضيحهما أكثر في الجدول الآتي :

المثلان ← ↓	**التشبيه 1**	**التشبيه 2**
التقابل 1	الكلمة الطيّبة	الكلمة الخبيثة
التقابل 2	كالشجرة الطيبة	كالشجرة الخبيثة

فالكلمة الطيبة ـ كلمة الحقّ ـ تشبه الشّجرة الطّيبة؛ أصْلُها ثابت لا تُخلخله ظروف أو أحداث، فرْعها في السّماء، تؤتي أُكلَها، سامقة مثمرة، لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل ولا تقوى عليها معاول الطغيان. والكلمة الخبيثة ـ كلمة الباطل ـ تُشْبه الشّجرة الخبيثة؛ مُجْتثَّة من فوق الأرض، ليس لها قرارولا بقاء[3]. يقول جيروم ستولينتز(G. stolynz):"إنّ الكلمة ليست مجرّد شكْل على الورق أوْ صَوْتا نسْمَعه إذا كانت منطوقة، وإنّما هي لا تكون كذلك إلّا بالنّسبة إلى الطّفل الصّغير، أو شخْص لا يعرف اللّغة "[4].

وهو تشبيهٌ يُبيّن أثر الكلمة طيّبةً وخبيثةً على الإنسان كما يبيّن تعاظمَها شيئا فشيئا كالشّجرة العظيمة التي تبدأ بغصن." ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى للكلمة السّيادة في الدّنيا"[5]، لأنّ لها سلطةً على السّامع، وهي في حقيقتها أصواتٌ طيّبةً أو خبيثةً لها أثرٌ كبير على نفسيّة

---

[1] . في ظلال القرآن ، 6 / 3911 .

[2] . ينظر: الشعراوي ، أمثال القرآن الكريم ، إشراف أحمد الزعبي ، دار القلم ، بيروت ، د ط ، د ت ، ص53 وما بعدها.

[3] . ينظر: في ظلال القرآن ، 4 / 2098 . تفسير الشعراوي ، مطابع أخبار اليوم ، د ط ، 1997 ، 12 / 7509 .

[4] . جيروم ستولينتز، النقد الفنّي دراسة فنية وفلسفية، تر: فؤاد زكريا، مطبعة جامعة عين شمس، ط 2 ، 1974، ص 84 .

[5] . الشعراوي ، أمثال القرآن الكريم ، ص53 .

الإنسان إيجابا وسلبا، و" لأنّ الأقوال هي في الواقع أمّهات الأعمال. فالكلمة الطيّبة قد تطفئ حربا وتنشر سلاما وأمنا. والكلمة الخبيثة قد تفسد أمّة وتنشر كذبة وإشاعة وتنشر وبَاء فكريّا يقضي على البشر الذين يقعون فريسة لها "[1].

وقد قارن ابن القيم بين المشبّه والمشبّه به في هذا المثل بقوله:" أنّ الشّجرة لا بدّ لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر فكذلك شجرة الإيمان والإسلام ليطابق المشبّه المشبّه به فعُروقُها العلم والمعرفة واليقين وساقُها الإخلاص وفروعها الأعمال وثمرتها ما تُوجبُه الأعمال الصّالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق الزكيّة والسّمت الصالح والهدى ... و أنّ الشّجرة لا تبقى حيّة إلا بمادّة تسقيها وتنميها فإذا قطع عنها السّقي أوْشَك أنْ تيْبَس فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يَتَعاهَدْها صاحبها بسقيْها كلّ وقْت بالعلم النّافع والعمل الصّالح، والعود بالتّذكر على التّفكر والتّفكر على التّذكر وإلّا أوشك أنْ تيبس"[2].

ومنه فالفارق بيْن النّوعيْن يظهر شاسعا:" فالأولى:أمْنٌ وأمان في الدنيا والآخرة. والحالة الثانية: ظُلْم بضلال، وقلَق بضَنك، وفي الآخرة لهُم عذاب أليم"[3]. فالكلمة ــ وهي معنى مجرّد غير ملموس ــ قدّمتها الآياتُ شجرةً بجذورها وأغصانها وأوراقها وأُكلُها؛ طيّبةً وخبيثةً ... والقرآن الكريم هنا " لا يعني بنفاسة المشبّه به، إنّما يعني العناية الكاملة باقتراب الصّورة في النّفس وشدّة وضوحها وتأثيرها"[4]، ما جعل المعنى مجسّدا مفهوما. وهو دور الأمثال في القرآن الكريم عامّة؛" ففي ضرْب الأمثال زيادة إفْهام وتذكير وتصوير للمعاني، وذلك لأنّ المعاني العقليّة المحضة لا يقبلها الحسّ والخيال والوهم، فإذا ذكر ما يساويها من المحسوسات ترك الحسّ والخيال والوهْم تلك المنازعة وانطبق المعقول على المحسوس وحصل به الفهْم التّامّ والوصول إلى المطلوب"[5]. يقول عبد السلام الراغب:" فالأمثال تُعدّ من أقوى طرق الاستدلال والموازنة العقليّة في إثبات الحقائق الدينيّة وإقامة الحجّة والبرهان على الخصوم "[6].

وهكذا فنَحْن أمام تشبيهَيْن بائتلاف طرفَيْهما، وتقابُلَيْن باختلاف قِسْمَيْهما، تحت مثَلَيْن

---

[1] . فؤاد علي رضا ، من علوم القرآن ، دار اقرأ ، بيروت ، ط1 ، 1982 ، ص 159 .

[2] . ابن القيم ، تفسير القرآن الكريم ، تح: إبراهيم رمضان ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ط1، 1410، ص 342، 343 .

[3] . ينظر: تفسير الشعراوي ، 12 / 7512 .

[4] . طالب محمد الزوبعي ، ناصر حملاوي ، البلاغة العربيّة البيان والبديع ، ص 57 .

[5] . الرازي ، مفاتيح الغيب ، 19 / 92 ، 93 .

[6] . عبد السلام الراغب ، وظيفة الصورة الفنيّة في القرآن الكريم ، ص 448 .

ربط السّياق بينهما. فإذا كان التّشبيه في كلّ مثل قد ربط بين المشبّه والمشبّه به، فإنّ التقابل قد ربط بين المثليْن، فظهرا وكأنّهما مَثَلٌ واحد متكامل بعناصره المتداخلة، وأجزائه المتلاحمة. فالكلمة الطيبة تُشبه الشّجرةَ الطيبة، وتُقابِلُ الكلمةَ الخبيثةَ، والكلمة الخبيثة تُشبه الشّجرةَ الخبيثةَ، وتُقابلُ الكلمةَ الطّيبةَ." إنّه تناسق في الصّورة الجزئيّة وتقابل في المشهد الكلّيّ يُوحي بالأبعاد المتوازنة التي تستقرّ جمالياتها في الوجدان والإدراك"[1].

وبهذه الصّورة ذاتِ الأجزاء يزداد المشبّه في كلّ تشبيه وضوحا وتجليّة بتقريبه بالمشبّه به من جهة، و في الوقت نفسه يظهر الفارق الشاسع بينهما عن طريق التقابل. يقول ابن عاشور:" فالمشبّه هو الهيئة الحاصلة من البهجة في الحسّ والفرح في النّفس، وازدياد أصول النفع باكتساب المنافع المتتالية بهيئة رُسوخ الأصل، وجمال المنظر، ونماء أغصان الأشجار. ووفرة الثِمار، ومُتْعة أكلها. وكلّ جزء من أجزاء إحدى الهيئتين يقابله الجزء الآخر من الهيئة الأخرى، وذلك أكمل أحوال التّمثيل أنْ يكون قابلاً لجمع التّشبيه وتفريقه. وكذلك القول في تمثيل حال الكلمة الخبيثة بالشّجرة الخبيثة على الضدّ بجميع الصفات الماضية من اضطراب الاعتقاد، وضيق الصدر، وكدَر التّفكير، والضرّ المتعاقب. وقد اختصر فيها التّمثيل اختصاراً اكتفاءً بالمضادّ، فانتفت عنها سائر المنافع للكلمة الطيبّة"[2]. خاصّة أنّ الأمثال القرآنيّة تستمدّ عناصرها من الكون والبيئة والحياة والإنسان، لتظلّ قريبة منه، وتؤثّر فيه؛ فكانت ــ من أجل ذلك ــ روعة التصوير التي بدت فيها ضروريّة لها، وهو يتّخذ من الطبيعة ميْدانا، يرسم منها صورة، فمِنْ نباتها نجِدُ الحبّة التي تُنبِت سبْع سنابل، ونجِد الشّجرة الطيبّة، والشّجرة الخبيثة، وغيرها[3].

ومن جهة أخرى ، فقد بدأ بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ... ﴾ وهو استفهام غرضه إيقاظ الذّهن ليترقّب ما يرِدُ بعد هذا الكلام[4]. فالاستفهام أسلوبٌ يثير السّامع ويشوّقه للسّماع. ومِنْ ثمّ فغرضُه التّشويق وجلْب الانتباه إلى هذا المثل بما يتضمّنه من معان سامية وأمر هامّ.

---

[1] . النقراط ، بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم ، 2 /1062.

[2] . التحرير والتنوير، 13 / 224 ، 225 .

[3] . النقراط ، بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم ، 2 / 1043 .

[4] . ينظر: التحرير والتنوير، 13/ 223 .

هذا وقد أطال الحديث عن الشّجرة الطيّبة في إظهار صفاتها؛ أصلِها، فرعِها، أكلِها... وفي هذا اهتمامٌ بها، ومدْح لها، ورفْعٌ من شأنها، وتنبيهٌ على بقائها وبقاء ما تمثّله، وهو الإيمان . أمّا الشّجرة الخبيثـة فقدْ جـاء الحديث عنها موجزا: ﴿ **ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ** ﴿٢٦﴾ ﴾، واكتفى باجتثاثها من فوق الأرض، وترَك بقيّة التّفصيلات للخيال، كيْ يستحضر عناصر التّصْوير ويُكملها، فلمْ يَعُدْ هناك داع لذِكْر تفاصيلها بعد استئصالها[1]. وفي هذا ذمّ ضمنيّ لها، وتهْوين من أمرها، وتنبيه على زوالها، وزوال ما تمثّله وهو الكفر. كلّ هذا يُظهر الفارق الشّاسع بين المتقابليْن .

فالتّعبير اللّفظي يتساوق مع ظلال السّورة وجوّها العامّ؛ فهذا المثل أعْقَب المقطع الأوّل من مقطعَيْ السّورة، والذي يتضمّن بيانَ حقيقة الرّسالة وحقيقة الرّسول ـ صلّى الله عليه وسلم ـ ، ويُصوّر المعركة بين أمّة الرّسل وفرقة المكذّبين في الدّنيا وفي الآخرة[2]. وهو دلالة على أنّ البقاء للرّسل والإيمان والصّلاح، والفناء والاجتثاث للمكذّبين والكفر والفساد. والمثلُ في هذا يتَماشَى مع سياق السّورة ...

وما يلاحظ في المثلَين هو اختلافُ البدايتين: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ... ﴿٢٤﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ... ﴿٢٦﴾** ﴾. فلم يكرّر ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ...** ﴾، وهو ما يوحي بالانفصال التّام والفارق الشّاسع بينهما؛لأنّ الأوّل يمثّل الكلمةَ الطيّبة والثّاني الكلمةَ الخبيثة، فهُما بعيدان كلّ البعد. ولعلّ مل يؤكّد ذلك هو أنّ المثل الأوّل خُتم بتعقيب أغْلَقه وأعْلَن عن نهايته ﴿**وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾** ﴾، وأعْلَن أيضا عن بداية فكرة جديدة مختلفة عن الأولى يَحْملها المثَلُ الثاني.

وبناء عليه، فالمثَلُ الثّاني لا يشْمله الاستفهامُ ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ...** ﴾، ما يوحي" بأنّ ذلك غير مقصود بالضّرب والبيان وإنّما ذلك أمْر ظاهر يعرفه كلّ أحد"[3]، وهو ما يُبعده عن التّشويق وجلْب الانتباه، خلافا للمثل الأوّل. فهُما مختلفان، متناقضان، متباعدان، جمَع بينهما السّياق ليكشف لنا عن مميّزات كلّ نوع، ولنختار ما أعْجَبَنا وأثّر فينا." وهكذا يوظّف التّصوير

[1] . ينظر: عبد السلام الراغب ، وظيفة الصورة الفنيّة في القرآن الكريم ، ص 173 .

[2] . ينظر: في ظلال القرآن ، 4 / 2082 .

[3] . روح المعاني ، 7 / 203 .

بإيحاءاته ولدلالاته المتعدّدة في خدمة المعنى الذي يقوم على التّضاد . فالتّضاد وحْده لا يُعبّر عن عُمق حِسّ ولا شفافيّة شعور ما لمْ يوضع في سياق بلاغيّ تقوم أدواته على التّعبير غير المباشر، بما فيه من إثارة ودعوة للتّأمل وإطلاق ملكات التخيّر والتّفسير"[1].

ب ـ الأمثال السريعة:

في القرآن الكريم أنواع أخرى من الأمثال قصيرةً وسريعةً تعتمد هي الأخرى على التقابل. من ذلك يقول تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ الأنعام: 122.

يقول ابن عاشور في هذه الآية:" الكلامُ جارٍ على طريقة تمثيل حال من أسْلَم وتخلَّص من الشّرك بحال من كان ميّتا فأُحْيِي، وتمثيل حال منْ هو باق في الشّرك بحال ميّت باق في قبره"[2].

فالآيات هنا لم تذكر المعنى الممثّل له، أي المشبّه فيكون" في هذه الحال مطويًّا، يُشار إليه في تضاعيف المثال ذاته، بحيث لا يجهل السّامع أو القارئ المعنى الكلّي الذي سيق له"[3].

فقد حُذف المشبّه في كلّ التشبيهات، واكتفى بذكر المشبّه به، وهو ما يكون في الاستعارة، ومن جهة أخرى ذكر أداة التشبيه « الكاف »، وهو وما يكون في التشبيه. ولعلّ هذا الذي جعل الآراء تختلف حوله. يقول ابن عاشور:" أنّ في نظم الكلام تشبيهين مركَّبين. ولكنّ وجودَ كاف التّشبيه ... مع عدم التّصريح بذكر المشبَّهَيْن في التّركيبين أثارَا شُبهة: في اعتبار هذين التّشبيهين أهو من قبيل التّشبيه التّمثيلي، أم من قبيل الاستعارة التّمثيلية؛ فَنَحَا القطب الرّازي في (شرح الكشاف) القبيلَ الأوّل، ونحا التفتزاني القبيلَ الثّاني، والأظهر ما نحاه التفتزاني: أنّهما استعارتان تمثيليتان"[4]. ويقول الصّابوني:" الموت والحياة، والنّور والظلمة كلّها من باب الاستعارة فقد استعار الموت للكفر والحياة للإيمان وكذلك النّور والظّلمات للهدى والضّلال"[5].

---

[1] . شلتاغ عبود ، أسرار التشابه الأسلوبي في القرآن الكريم ، ص 246 .

[2] . التحرير والتنوير، 8 / 44 .

[3] . البوطي ، من روائع القرآن ، ص 182 .

[4] . التحرير والتنوير، 8 / 44 ، 45 .

[5] . صفوة التفاسير، 1 / 386 ، 387 .

فقدْ نظر هؤلاء إلى أحد جزئَيْ الآية؛ فالأوّل نظر إلى جزء التشبيه، والثّاني نظر إلى جزء الاستعارة، والأصل أنّ الصورتين امتزجتا، فتضمّنت الآية استعارة وتشبيها في الوقت نفسه، فكان في هذا المثل جمْعٌ بينهما، ولعلّ هذا ما تميّز به التعبير القرآني. ولعلّه أيضا يُبيّن تداخل الصّور البلاغيّة، خاصّة أنّ بينهما علاقة وطيدة باعتبار أنّ أصلَ الاستعارة تشبيهٌ. وبالتالي فقد جمعت الآيات الاستعارة والتشبيه والتقابل في مثل سريع خاطف، فتكون العبارة أكثر إيجازا، ويكون المعنى أشدّ تجسيدا، و الصّورة أعمق وأجمل. وهو ما يبيّن أيضا تداخل البيان والبديع.

فالسّياق يُضفي بظِلاله على المثَل، فيُوضّحه ويفتح مغاليقه، ويَكشِف جمالياته من خلال علاقاته بالآيات القريبة و جوّ السّورة عامة." حيث لا تتجلّى عظمة الأمثال في القرآن إلّا في سياق السّورة الموجودة فيها، وفي الموضع المرسوم لها بين آيات هذه السّورة"[1]. ومن ثمّ يكتشف هذا السّامع أو القارئ ما لم يُذكر في الآيات، وما ترمي إليه هذه الأخيرة. لذلك يمكن أنْ نكتشف المشبّه هنا، وهو ـ كالمشبّه به ـ مجموعةٌ رغم قِصَر المثلِ وسرعته، في جملةٍ من التّشبيهات،وفي جملةٍ من التّقابلات أيضا" فإنّ المثل القرآني قد أُوتي من هذا الإيجار حظّا فاق به كلّ كلام سواه"[2]. فيكون في الآيات أربعة تشبيهات، وأيضا أربعة تقابلات متشابكة هي:

- القسم الأوّل : المؤمن كالحيّ والمشرك كالميّت .

← تشبيهٌ مركّب : المؤمن كالحيّ ، والمشرك كالميّت .

← تقابُلٌ مُركَّب : المؤمن ↔ الكافر، والحيّ ↔ الميّت .

- القسم الثاني : دين الله كالنور والكفر كالظلمات .

← تشبيه مركّب : دين الله كالنور، والكفر كالظلمات .

← تقابل مركّب : دين الله ↔ الكفر، والنور ↔ الظلمات .

يمكن أنْ نلخّص ذلك كلّه في الجدول الآتي :

القسم 1 ← ↓	**التشبيه 1**	**التشبيه 2**	**القسم 2** ← ↓	**التشبيه 3**	**التشبيه 4**
التقابل 1	المؤمن	المشرك	**التقابل 3**	دين الله	الكفر
التقابل 2	كالحيّ	كالميّت	**التقابل 4**	كالنور	كالظلمات

[1] . سميح عاطف الزين ، معجم الأمثال في القرآن الكريم ، ص7 ، 8 .

[2] . عبد المجيد قطامش ، الأمثال العربية ، ص131 .

فكلّ تشبيه من هذه التشبيهات طرفاه (المشبّه والمشبّه به) مرتبطان؛ فالإيمان حياة، والشّرك موت، ودين الله نور والكفر ظلمات .

والتشبيهان الأوليان في القسم الأوّل مرتبطان عن طريق التقابل، لأنّ المشبّهين في كلّ تشبيه متقابلان، وأيضا المشبّه به. والتشبيهان الثالث والرابع في القسم الثاني مرتبطان عن طريق التّقابل أيضا، لأنّ المشبّهين في كلّ تشبيه متقابلان، وأيضا المشبّه به .

والقسْمان الأوّل والثّاني بعناصرهما مرتبطان؛ ذلك أنّ المؤمن يعيش في نور دينِ الله، وبالمقابل أنّ المشْرِك يعيش في ظلماتِ الكفر. ومَنْ يعِشْ في النّور فهُو حيّ مُبصِر، ومن يعِش في الظّلمات، فهُو ميّت أعمى .

فتكون بالتّالي الألفاظ متجاورةً والعناصرُ متشابكةً، والصّور متفاعلة، والعلاقات متلاحمة في إطار السّياق العام،" لأنّه يُبنى التّشكيل اللّغوي للصّورة من مجاورة مفردات عدّة، تقوم بينها علاقات على نحو ما يتحدّد من خلالها المعنى الجزئي، كما يقوم بينه وبين المضمون الكلّي ارتباط وعلاقات"[1]. وفي هذا التّشابك والتّفاعل يتجلّى تعميق المعنى ويتحقّق التماسك وتظهر الجماليّة. فإذا كان التّشبيه يجمع بين العناصر المتآلفة، فإنّ التّقابل أيضا يجمع بين العناصر المتخالفة ويساعد على رسْم الصّورة القرآنيّة التي الأصل فيها التلاحُمُ والعلاقات المتشابكة والتآلف، لا التّجزيء والتّوزيع والتّنافر.

وقدْ جمَع بين هذا كلّه المثل القرآني الموجز السّريع في صورة مجسّدة من الواقع تتضمّن تضادًّا ينفي المشابهة بين منْ أسلم وبين منْ بَقي في الشّرك، ويُوضّح الفروق الشّاسعة بين الإيمان والكفر. فالسّياق هنا في تنفير المسلمين عن اتّباع المشْركين[2]. فالقرآن الكريم في هذه الأمثال" يقيم التّوازن في الأذهان بين النّور والظلمات، وبين الحياة والموت، فتتّضح الفوارق البعيدة بين الإيمان والكفر من خلال هذه الموازنة بين العنصرين"[3]. وهي في هذا كلّه، وعلى اختلافها لوحاتٌ فنيّة رائعة لتصوير مشاهد الطّبيعة بأشكالها وأنواعها المختلفة، وفي هذه اللّوحات مشاهد أَلِفَتْها العرب وعرفتها في حياتها[4]، ولا يمكن الاستغناء عنها في حياة الإنسان .

---

[1] . عدنان حسين قاسم ، التّصوير الشعري لبلاغتنا العربيّة ، الدار العربية ، د ط ، 2000 ، ص 58 .

[2] . ينظر: الشوكاني ، فتح القدير، 2 / 181 .

[3] . عبد السلام الراغب ، وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم ، ص 171 .

[4] . ينظر: البوطي ، من روائع القرآن ، ص 182 .

وفي هذا يقول ابن عاشور:" ولقد جاء التّشبيه بديعاً: إذْ جعَل حالَ المسلم، بعد أنْ صار إلى الإسلام، بحال مَنْ كان عديم الخير، عديم الإفادة كالميّت، فإنّ الشّرك يَحُول دون التّمييز بين الحقّ والباطل، ويصرف صاحبه عن السّعْي إلى ما فيه خيره ونجاته، وهو في ظلمة لو أفاق لم يعرف أيْن ينصرف، فإذا هداه الله إلى الإسلام تغيرّ حاله فصار يميّز بين الحقّ والباطل، ويعلم الصّالح من الفاسد، فصار كالحيّ وصار يسعى إلى ما فيه الصّلاح، ويتنكّب عن سبيل الفساد، فصار في نُور يمشي به في النّاس. وقد تبيّن بهذا التّمثيل تفضيل أهل استقامة العقول على أضدادِهم... وقد جاء المركّب التّمثيلي تامًّا صالحاً لاعتبار تشبيه الهيئة بالهيئة، ولاعتبار تشبيه كلّ جزء من أجزاء الهيئة المشبّهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبّهِ بها، كما قد علمته وذلك أعلى التّمثيل"[1]. والقيمة الجماليّة للصّورة تكمن في أنّها تذكر مرحلتين من مراحل حياة الإنسان؛ المرحلة الأولى كان فيها ميّتا رغم أنّه حيّ، وهو في الثانية حيّ، ما يعطي للموت مفهوما جديدا [2]، وهو موت الرّوح والانحراف عن الفطرة ، والانغماس في الكفر.

ولعلّ ما زاد المثلَ تشويقا، والصّورةَ جمالا وتأثيرا البدايةُ باستفهام: ﴿ أَوَمَن ... ﴾ الغرض منه نفي الشّبه بين الحيّ والميّت، والنّور والظّلمات، واستبعاد التّسوية بينهما .

و من الأمثال القصيرة التي بدأت بـ ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ...﴾ قوله تعالى :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الزمر 29 .

في هذه الآيات يضرب الله المثل للعبد الموحّد والعبد المشرك بعبْد يملكه شركاء متخاصمون، وهو بينهم موزّع، كلّ منهم يوَجِّهه، ويكلّفه وهو بينهم حائر، غير مستقرّ، ولا يستقيم على طريق ولا يستطيع إرضاء أهوائهم المتنازعة المتعارضة . وعبد يملكه سيّد واحد، وهو يعلم ما يطلبه منه، ويُكلّفه به، فهو مستريح مستقرّ على منهج واحد صريح إنهما لا يستويان[3].

وهو مثَل يُوضِّح الفارق الكبير بيْن مَنْ يعبد الله وبين من يعبد أربابا سواه. ويُصوِّر حقيقة

---

[1] . التحرير والتنوير، 8 / 45 .

[2] . ينظر: صالح ملّا عزيز، جماليات الإشارة النفسيّة في الخطاب القرآني ، ص 100 .

[3] . ينظر: في ظلال القرآن ، 5 / 3049 .

التّوحيد، وحقيقة الشّرك. ولم يذكر هنا العبدَ الموحّدَ والعبدَ المشرك؛ "فالمعنى المقصود مطوِيّ في المثل"[1] فُهِم من خلال سياق الآيات وعن طريق المشبّه به أو الممثّل به. فهذا الأخير يدلّ على المشبّه أو الممثّل له .

التشبيه الأوّل:[(المشرك الذي يعبد آلهة شتى) **يشبه** (العبد الذي يملكه شركاء متخاصمون)].

التشبيه الثاني:[(المؤمن الذي يعبد إلها واحدا) **يشبه** (العبد الذي يملكه سيّد واحد)].

فالتشبيهُ الأوّل يقابل التشبيهَ الثاني .

فإذا كان التّشبيه الأوّل يجمع بين المشبّه وهو«المشرك» والمشبّه به « العبد الذي يملكه شركاء متخاصمون»، ويبيّن الحالة المتذبذبة لهذا المشرك، لأنّ المشبّه به وضّحه وقرّبه إلى الأفهام، والتّشبيه الثّاني يجمع بين المشبّه وهو« المؤمن » والمشبّه به « العبد الذي يملكه سيّد واحد »، ويبيّن الحالة المستقرّة لهذا المؤمن. فإنّ التّقابل قد ربَط بين التّشبيهيْن ليظهر الفارق الكبير بين الرّجلين؛ بين مَنْ يعبد الله وبين مَنْ يعبد أربابا شتى. " فكذلك لا يتساوى المؤمن الموحّد مع الوثنيّ المشرك. وهو مثل ضُرب في غاية الحُسْن في تقبيح الشّرك وتحسين التّوحيد، وفي غاية الوضوح والبيان"[2].

فالذي يخضع لسيّد واحد ينعم بالرّاحة، ووحدة الاتّجاه، ووضوح الطريق... والذي يخضع لسادة متشاكسين، معذّبٌ قلقٌ لا يستقرّ على حال ولا يُرضِي واحدا ... وهذا المثل يصوّر حقيقة التّوحيد وحقيقة الشّرك في جميع الأحوال[3]، عن طريق تقديم دليل من واقع الحياة يعرفه النّاس ويعايشونه يوميّا. يقول النقراط: " فهي لا تعكس الشّيء على صورته الأصليّة، وإنّما على صورة أخرى مشابهة ولكنّها أبهى رونقا وأكثر وضوحا، وأشدّ جاذبية، ومن ثمّ تُعين على تذوّق المعنى الأصلي بعقد المقارنة بين الأصل والصورة، ثمّ إنّ هناك متاعا فنيّا ونفسيّا في هذه العمليّة ذاتها، عمليّة عقد المقارنة بين الأصل والصورة، ومن ثمّ يتضاعف المعنى في الحسّ"[4].

بدأ المثل بقوله تعالى: ﴿ **ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا** ...﴾ بقَصْد التّشويق إلى هذا المثل، وللتّنبيه على

---

[1] . البوطي ، من روائع القرآن ، ص 183.

[2] . الصابوني ، الإبداع البياني في القرآن العظيم ، ص 281 ، 282 .

[3] . ينظر: في ظلال القرآن ، 5 / 3049 .

[4] . النقراط ، بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم ، 2 / 1045 .

أنّ بعْدَه أمْرٌ هامّ،" ذلك أنّ الأمثال تؤثّر في المدعوِّين عن طريق ترغيبهم بالخير والثواب، وترهيبهم من الشرّ والعقاب، فذلك أدْعى لأنْ يتفاعل مع واقع المثل المضروب الأمثال"[1]. ومن ثمّ يستعدّ إليه كلّ الاستعداد .

يقول عنه الصّابوني:" مثل مِن أروع وأبدع الأمثلة، ضربه الله عز وجلّ للمؤمن الصّادق، يعبد إلها واحدا، وللمشرك الوثنيّ يعبد آلهة شتىّ، وهذا المثل في غاية الوضوح والبيان وهو (تشبيه تمثيلي)، وتوضيح المثل: عبد مملوك يملكه رجال مختلفون متنازعون شرسو الخُلُق والطباع، هذا يأمره بأمر، وذاك يأمره بضدّه، وهو متحيّر موزّع القلب، لا يعرف لمن يرضي ... ورجل آخر لا يملكه إلّا شخص واحد، حسن الأخلاق، فهُو عبد مملوك لسيّد واحد، يخدمه بإخلاص، ويتفانى في خدمته، ولا يلقى من سيّده إلّا كلّ خير وإحسان..."[2].

وخلاصة القول أنّ أمثال القرآن الكريم"على اختلافها، لوحات فنيّة رائعة لتصوير مشاهد الطبيعة بأشكالها وأنواعها المختلفة ... فالقرآن إذْ يضرب الأمثلة بهذه المشاهد المنتزعة من مظاهر الكون وصوره، يؤلّف بين القيم والمبادئ المجرّدة التي تنزل من أجلها، والمشاهد الطبيعيّة التي يعيش الإنسان في أكنافها"[3].

فإذا كان للأمثال عامّة دور كبير في تقريب المعنى إلى الذّهن، وفي التأثير، ولها خصائص دلاليّة وجماليّة، ومن ثمّ فقد اتّخذها القرآن الكريم وسيلة من وسائل تبليغ دعوته. فإنّ للأمثال المتقابلة دورا أكير في التّقريب والتّبليغ، لأنّها أمثال مركّبة تجمع بين التّمثيل والتّقابل.

ففي الأمثال المتقابلة تشبيهٌ يُقرّب المعنى إلى ذهن السّامع ويجسّده، ويُجلي الخفيّ، واستدلال وحجّة على الفكرة المقدّمة وجمعٌ بين العناصر المؤتلفة. وفيها أيضا تقابلٌ يتضمّن موازنة ومقارنة بين متناقضيْن يظهر من خلالها الفارق الشّاسع بينهما ليكون دليلا للتّأثير والإقناع، وجمعٌ بين هذه الأشياء المتناقضة والعناصر المختلفة." إنّ جملة التّشبيه والتّمثيل في القرآن غنيّة بالمعاني الإضافيّة التي تُقوّي من المعنى الذي من أجله صيغ التّشبيه أو التّمثيل"[4]. وفي هذا التّركيب وهذا الجمع تكمن الجماليّة والدلاليّة .

---

[1] . بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم ، 2 / 1043.

[2] . الصابوني ، الإبداع البياني في القرآن العظيم ، ص281 ، 282 .

[3] . البوطي ، من روائع القرآن ، ص 182 .

[4] . المطعي ، خصائص التعبير القرآني ، 1 / 281 .

" فكلّ مثَل من أمثال القرآن الكريم يشرح للناس حقيقةً من حقائق الاجتماع، أو ضربا من عجائب الطبيعة، أو حجّة دامغة لإثبات أمر انصرف عن إدراكه كثير من الناس"[1]. ومن ثمّ فقد دار معظم هذه المقارنات والموازنات في الأمثال حول الإيمان والمؤمنين والكفر والكافرين وما يدور في فَلَكِهما، وما هو متّصل بهما، فتدعو ــ بالتّالي ــ إلى الأوّل، وتحذّر من الثّاني، وتُرغّب في الفضائل، وتنفّر من الرذائل ... " فإنْ كانت وقائع المثل سيّئةً حملَهم العقل على اجتنابها وأخْذ طريق غير طريق من ضُرب عليهم المثل أو ضُرب المثل بهم، وإنْ كانت وقائع المثل حسنةً طيّبة، دعاهم العقل إلى الأسْوة والقدْوة والمقدرة على الاتباع الصحيح بالمضروب هذا المثل"[2].

وفي التقاءِ التّشبيهِ بالتّقابل، يقول أحدهم :" فإذا كان الشاعر في التّشابه يلجأ إلى الخطوط والألوان والظلال فيُشكل الصّورة ويركبها ليكشف عن المعاني، فإنّه في التّقابل يجمع بين الشّيء وضدّه من أجل الغاية نفسها. وكثيرا ما يلتقي التّشابه والتّقابل... فيؤدّي ذلك إلى خصب أكبر، وثراء أكثر في اللّغة الشعرية"[3]. وإذا كان التّصوير في القرآن الكريم له طرق كثيرة ومتنوّعة، فإنّ"التقابل طريقة من طرُق التّصوير... والتّعبير القرآني يُكثر من استخدامها في تنسيق صوره التي يرسمها بالألفاظ على نحو دقيق"[4]. ومن ثمّ يُشَكّل التّشبيه والتّمثيل غاية في التّأثير والإقناع. فالمثل" أسلوب تعبيريّ يجمع بين الهدف الدينيّ والفنّي معا"[5]. ولعلّ هذا الجانب الفنّي جعل بعضَهم يرى أنّ الإعجاز القرآني إنّما يطلّ من هذه الأمثال من ناحيتيْ الأسلوب والمضمون، لأنّ المعنى مهْما ألبس ثوْبا مطرّزا من البيان والإشراق، فإنّه يظلّ بعيدا عن مرأى العين والخيال حتى يتجسّد في مثَل[6].

---

[1] . عبد المجيد قطامش ، الأمثال العربية ، ص 136 .

[2] . النقراط ، بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم ، 2 / 1044.

[3] . الواسطي ، ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين ، ص 233 ، 234 .

[4] . سيد قطب ، التصوير الفنّي ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط8 ، 1983 ، ص 96 .

[5] . محمد ديب الجاجي ، النّسق القرآني دراسة أسلوبيّة ، ص 575 .

[6] . ينظر: البوطي ، من روائع القرآن ، ص 189.

ويستمدّ المثلُ القرآني صورَه من البيئة والحياة، حتى تكون هذه الصّوَرُ معروفةً ملموسةً، مؤثّرةً مشاهَدة، وكأنّه يقدّم المعنى والدّليل عليه، مع العناصر الفنّيّة، وجماليات التعبير..." وهي تعتبر من دلائل القوّة في الحجاج لبنيتها المنطقيّة وصياغتها الفنيّة وكفايتها الجماليّة الغالبة"[1].

إضافة إلى ذلك، ففي الأمثال المتقابلة تشبيهٌ يقرّب المعنى منْ ذهن السّامع ويجسّده، ويجلّي الخفيّ، واستدلال وحجّة على الفكرة المقدّمة، وفيه أيضا تضادّ موازنة ومقارنة بين متناقضين يظهر من خلالها الفارق الشّاسع بينهما لتكون دليلا للتأثير والإقناع . فتَعْرِف كيف تصل إلى النّفس البشريّة وإقناعها بما تدعو إليه ، فتُحقّق الغاية وتصل إلى الهدف .

ثانيا: التقـابل في القصص في القرآن الكريم :

1 ـ لمحة عامّة القصة: القصّة لغة منقصّ أثره يقصّه: تتبّعه ، فالقصّ اتّباع الأثر... وقصّ عليه الخبر قصصا: أعلمه به وأخبره ، والقاص مَن يأتي بالقصة على وجهها كأنّه يتتبّع معانيها وألفاظها ... والقصص: البيان ...[2]. ويقال قصَصْت الشّيء: إذا تتبّعت أثرَه شيئا بعد شيء، والقصّة الخبر والأمر والحديث[3].

ومنه فإنّ كلمة (قصة) مشتقّة من قصّ يقصّ قصّا وقَصصا، وأنّ لها معاني هي: تتبّع الأثر، والإعلام ، والخبر،والبيـان .

وهي في الاصطلاح " وسيلةٌ من وسائل التعبير الفنّي ينثرها الكاتب فيبرز بها ما يشغل الناس من أمور الحياة، وما تتصف به نفوسهم من خلال، وأخلاق، ليُنْصح أو يرشد أو يعظ أو ينقد أو يلاحظ ، وهي بهذا، لوحة فنيّة جميلة، تتمدّد صفحتها ألوان حياةالبشر وأنماط سلوكهم وصورة أفعالهم بكلّ أنواعها المتقاطعة والمتوازية، المتطابقة والمتضادّة،ومرآة صافية للحياة،إذا أحسن نصبها أعطت أفضل المناهج لتقويم الحياة ونخلها من الشوائب"[4].

ومنه يتّضح التقاء المعنى اللّغوي للقّصة بمفهومها الاصطلاحي، ويتجلّى دورها في الحياة وفي التربية والتّذكير والموعظة.يقول عبد الكريم الخطيب: " نحن حين ننظر في المعنى اللّغويّ للقصّة نرى أنّ أصْل اشتقاقها يتلاقى مع المفهوم الذي قام عليه أصْل التّسمية للقصص

---

[1] . محمود المصفار، سيميائيّة القرآن بين الحجاج والإعجاز، ص 52 .

[2]. مرتضى الزبيدي ، تاج العروس ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د ط ، د ت ، 4 / 421 وما بعدها.

[3]. لسان العرب ، مادة (قصص) ، 7/ 73، 74 .

[4]. خالد أبو جندي، الجانب الفنّي في القصة القرآنيّة منهجها وأسس بنائها (نظرية بناء القصة الفنية في القرآن الكريم)، دار الشهاب ، باتنة ، د ط ، دت ، ص 126 .

القرآني... فالقصّة مشتقّة من القصّ وهو تتبّع الأثر ... والاشتقاق اللّغويّ أو القصّ هو الكشف عن آثار وتنقيب عن أحداث نسيَها النّاس أو غفلوا عنها، وغاية ما يراد بهذا الكشف هو إعادة عرضها من جديد لتذكير النّاس بها ، وإلْفاتهم إليها ليكون لهُم منها عبرة وموعظة "[1]. ولا يكون تتبّع الأثر إلّا حقيقة، ولا تكون العبرة والموعظة إلّا من واقع ، لذلك فأحداث القصص القرآني حقيقة واقعة .

فالقصّة من الفنون الأدبية التي لها قدرة كبيرة على تحليل الواقع والتّعبير عنه، ولها أثر فعّال في جلب انتباه النّفوس،لما فيها من تشويق وتلهّف لمعرفة النّهاية وارتياح لحلّ العقدة وحبّ وتشوّق للاستطلاع[2]،ولعلّها أكثر هذه الفنون قدرة على التّصوير والتأثير. فهي تتّسع لأغراض شتى في الحياة، وتتناول موضوعات كثيرة ومختلفة، وتتمتّع بحرية في المعالجة، وفي التنقّل بالأشخاص والحوادث. ففيها يرى الإنسان الأحداث تتحرّك وتتطوّر، والعقدة تتأزّم وتتصاعد، والأشخاص تتنقّل وتتصارع...يراها مشخّصة أمامه، ويقيمها الحوار أمام عينيه حاضرة حيّة،فالحوار هو الحاضر- كما يرى توفيق الحكيم[3]- فيعيشها جميعا ويتجاوب معها ويتأثّر بها.

لذلك كانت القصّة هي الأسلوب المفضّل لدى الإنسان في القديم والحديث، فسحَرتْ نفسَه وأسرتْ قلبه، ووجد فيها ما يريحه ويستهويه. وكان العرب لشغفهم بالقصص يطلبون إلى النبيّ - صلّى الله عليه وسلّم -أن يبسط لهمْ بعض ما كانوا على علْم به كقصّة أهل الكهف وغيرها[4].

وهذا ما جعل القرآن الكريم يهتمّ بالقصّة اهتماما كبيرا ويخصّص لها مساحة واسعة منه ،حيث جاءت كثيرةَ العدَدِ، متعدّدة الموضوعات، متنوّعة من حيث الطّول والقصر، فكان لها نصيب كبير فيه، فلا يكاد يخلو جزء أو قصّة منها،ومحْور القصص القرآني هو أوسع المحاور القرآنية[5]،فراعى بذلك الميْل الفطريّ للإنسان نحو القصّة وغيرها[6].وتردّدت كلمة (نقصّ) وبعض

---

[1]. عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، دار المعرفة ، بيروت ، د ط ، د ت ، ص 44 وما بعدها .

[2]. ينظر: محمد الدالي ، الوحدة الفنّية في القصة القرآنية ، دون دار نشر ، ط1 ، 1993، ص 18 .

[3]. ينظر: توفيق الحكيم ، فنّ الأدب ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط2 ، 1973، ص 149 .

[4]. ينظر:عبد العزيز عتيق ، في النقد الأدبي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط2 ، 1972 ، ص 237.

[5]. ينظر: محمد الغزالي ، المحاور الخمسة للقرآن الكريم ، دار الهدى ، د ط ، د ت ، ص101.

[6]. ينظر: عبد السلام الراغب ، وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم ، ص 259.

مشتقّاتها كثيرا فيه، وسُمِّيت إحدى قصصه الطويلة باسم (القصص)، فاتّخذها وسيلة لتبليغ دعوته وشرْح مبادئها وتحقيق مقاصده وأغراضه .

ومن ثمّ فهْي جزء غير منفصل من القرآن الكريم ، ولا تخرج عن الطّابع العامّ لأغراضه . فالذي يتتبّع القصص القرآن يجد أحداثه كلّها تدور في محيط الدّعوة إلى الله بمعناها العامّ، كما يجدها تابعة للقرآن الكريم، خادمة لأغراضه، مقرّة لما أقرّه من عقائد وقيم سامية، رافضة لما رفضه من كفْر وشرك وأخلاق سيئة، يقول عبد الكريم الخطيب: " لقد كانت القصّة في القرآن ركيزة قويّة من ركائز الدّعوة الإسلاميّة القائمة على الإقناع العقليّ والاطمئنان القلبيّ بما تدعو إليه من الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر"[1].

فالقرآن الكريم حين ذكر قصص الأمم الغابرة ووقائع التّاريخ القديم لم يهدف إلى التّرفيه والتّسلية، إنّما هدفه هو دعوة النّاس إلى النّظر في تاريخ مَنْ قبْلَهم والاستفادة من عوامل فنائهم وبقائهم، وأنّ السّعادة لا تكون إلّا بالإيمان . فقِصَص القرآن قِطعٌ من الحياة الماضية استرجعها الوحْي الأعلى للتّعليم والاعتبار[2].فهو يتّخذ من أحداث التّاريخ ووقائعه مجالا للاتّعاظ والاعتبار، وللدّلالة على صحّة رسالة سيّدنا محمد ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وأساسا للدّعوة في سبيل الله . أمّا الأحداث التي لا تُحْدِث هذا الأثر، ولا تخدم مشروع الدّعوة فلا يهتمّ بها. فالقصّة القرآنيّة مليئة بالعبر والعظات، حافلة بالمواقف بمختلف أنواعها الرُّوحيّة والنّفسيّة والاجتماعية وغيرها."فهي ـ وإنْ تكن سماوّية المطلع ـ بشريّة السّورة، إنْسانيّة المنازع والعواطف تتحدّث عن النّاس إلى النّاس، وتأخذ من الحياة للحياة، وينتفع بها الناس"[3].ومن ثمّ فهي تربّي النّفس البشريّة وتسمو بالإنسان في كلّ النواحي لتضمن سعادته في الدّنيا والآخرة .

2 ـ التّقـابل في القصص في القرآن الكريم :

إنّ التقابل ـ كما رأينا ـ مظهرٌ من مظاهر هذا الكون، وبما يمثّله من تضـاد ومفارقة وتناقض يُشكّل أساسَ النفّس البشرية و أساسَ الحياة كلّها، ويعكس واقعَها. ولعلّ أفضل الفنون الأدبية تعبيرا عن هذه الحياة هي القصة ، وذلك للأسباب التي ذكرناها سابقا.

---

[1]. عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، ص8.

[2]. ينظر: محمد الغزالي، المحاور الخمسة للقرآن الكريم ،108.

[3]. القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، ص 73.

وإذا كان الإبداع عامّة يعتمد على هذا التقابل باعتباره تعبيرا عن الواقع، و"إنّ مِساحَة غير قليلة من خُيُوط الصّراع الفكريّ والنّفسيّ في الأعمال الأدبيّة الحديثة في فنون الشّعر والقصّة والمسرحيّة تقوم على تقابل المواقف والأفكار والخطط، أو التّضاد بين الدّاخل والخارج، أو بين ما حَدَث مِنْ قبل، وما يَجْري الآن، وهذا هو أساس المقابلة"[1]، فإنّه في القصّة يظهر أكثر لاعتمادها عليه، وذلك لالتصاقها بالواقع أكثر من جهة، ولقدرتها على التّعبير عن هذا التّناقض، وعلى كشْفِه، وتبيين الفروق الشّاسعة بين طرفيه من جهة أخرى. فالقصة ـ أساسا ـ تقوم على الصّراع الذي هو عمودها ومحرّكها، والصّراع في الأصل هو تقابلُ بين المواقف والتصرّفات والشّخصيات في القصّة، ومنْ ثمّ فمحرّك القصْة هو الصّراعُ، ومحرّكُ هذا الأخير التقابلُ .

والتّقابل في القرآن الكريم كثيرٌ ومتنوّع، ولا تخرج قصَصُه عن هذا الحكم؛ فالتّقابل في القصص القرآني" منْ أبعاده الثّريّة، وامتداد طبيعي للأسلوب القرآني في عرض الحدث، وتصوير المشاهد، ورصْد حركات الشّخصيّة، وحالاتها النّفسيّة، وهي تنع من طبيعة الأحداث المتناقضة، والمواقف المتخالفة"[2]التي تعبّر عنْها القصّة وترمي إلى كشفها.ومن ثمّ يتعدّى التّقابل فيها مستوى الكلمات والجمل والعبارات إلى مستوى المواقف والشّخصيات وتحرّكاتها، وإنْ كان هذا المستوى يظهر في كلمات وجمل وعبارات .

وإذا كان للقصّة القرآنيّة أغراضٌ كثيرة تسْعى إلى تحقيقها،وأهداف تريد الوصولَ إليها، فإنّ كلّ موضوعات القصّة، وتحرّكات شخصياتها، ومواقفهم، وصراعاتهم منصبّةٌ حول هذه الأغراض، والتي أساسُها دينيّ ومحْورُها العامّ همَا الإيمان بما يمثّله من إيجابيّة، والكفر بما يمثّله من سلبيّة." فتصوير الأحداث في القصّة يعتمد على عرض قضيّة الإيمان والكفر منذ فجر البشريّة. ويعاد عرْض هذه القضيّة في كلّ قصص القرآن، لأنّها هي القضيّة الأساسيّة في الأديان جميعا "[3].

ومنْ ثمّ فهي ذاتُ محْوريْن متقابليْن تتفرّع عن كلٍّ منْهما قضايا أخرى كثيرة متّصلة بها مثل: الحقّ والباطل، الطاعة والمعصية، الإخلاص والنّفاق، التّواضع والتكبّر، الفضيلة والرّذيلة

[1]. شفيع السيد ، البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د ت ، ص221 .

[2]. يادكار لطيف الشهرزوري ، جماليات التلقي في السرد القرآني ، ص 261.

[3]. الراغب ، وظيفة الصورة الفنّيّة في القرآن الكريم ، ص 265 .

، نصرة المؤمنين وهزيمة الكافرين، عاقبة الظلم والظّالمين، ثواب العاملين وعقاب الخائبين ... ومن ثمّ فتتقابل هذه القضايا هي الأخرى، وتتَصَارع من خلال هذين المحْوريْن المتقابليْن، وتلتقي في سياق واحد.ومن ثمّ " تتمثّل الإيجابيّة المكثفة في التّقوى، والأمانة، والسّلم، واللّغة الليّنة في الحوار، ومحاربة الفساد والموقف الصّارم تجاهه في مقابل السّلبيّة المكثفة للطّرف الآخر المتمثّلة في التّكذيب، وعدم التّقوى، الفساد الشّنيع، الانحراف الجنسي، والأخلاقي، العدوانيّة العنيفة الجارحة. وفي الاتيان بأبعاد الطرفيْن الضّديْن بهذا الشّكل التقابلي دور كبير في إبراز القيمة الإيجابية التي يحملها الطّرف الإيجابي، وتعرية البنيان المتهالك للقيمة السّلبيّة التي يحملها الطّرف السلبي"[1].

ويبرز التّقابل في هذه الأغراض بقوّة،كونه يتجلّى في هذا الصّراع وفي هذه المواقف المتناقضة، وهو بالتّالي له القدرة على تصويرها. ومن ثمّ فهذه الأغراض تمثّل عاملا مشتركا بين القصة والتّقابل، فيساهمان معا في تحقيقها، " إذْ يجد المتلقّي مواقفَ إيجابيّة في مقابل مواقف سلبية، وترتكن عمليّة التّمييز بين الموقفين أو استشفاف التّضاد بينهما على البؤرة السّرديّة التي قدّم السّرد من خلالها الحدث إلى المتلقي"[2]، وأثّر فيه، وأقْنَعه بفِكْرتها.

ومن جهة أخرى، فلِلْقصّة القرآنيّة منْهج " يقوم على تحليل النّفوس وتصويرها في حالات شتّى: من حيرة وقلق، وعجز ونفاق وخوْف وفزع ، ومكر وخبث، ويقابلها بِصُور النّفوس الزّكيّة المطمئنّة العاقلة الواعية، المجبولة على تقوى الله وحبّ الخير، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ويتيح الفرصة لخيال المتلقّي أنْ يتملى ويتصّور ويرسم الهيئة ويجسّمها في مخيلته كيفما شاء"[3]. خاصّة أنّ نوعيْ هذه النّفوس هما إيجابيّة وسلبيّة، وأنّ الحوار الجاري بينهما من أهمّ الوسائل السّرديّة التي أبرزت إيجابيّتهم، وذلك للطّبيعة الجدليّة التي تتّسم بها علاقة الإيجابيّة بالسّلبيّة، فقوّة نصوع الشّيء يتوقّف على مخالفته أو تضاده مع نصوع الأشياء الأخرى في المحيط [4].

وتأتي القصّة القرآنيّة لتجسّدَ هذا كلّه وتعبّر عنه من خلال نماذج بشريّة من واقع الحياة ماضيا وحاضرا، أي زمن الدّعوة عن طريق أحداث وحركات، ومواقف وتصرّفات، وحوار

---

[1]. يادكار لطيف الشهرزوردي ، جماليات التلقي في السرد القرآني ،ص 94 ، 95.

[2]. المرجع نفســـه ، ص 275.

[3]. محمد الدّالي ، الوحدة الفنيّة في القصة القرآنيّة ، ص 17 ، 18.

[4]. ينظر: جماليات التلقّي في السّرد القرآني ،ص 94.

وصراع وحبكة فنّية...وحينها يكون التّقديمُ أجملَ، والقبولُ أسهلَ، والتأثيرُ أكثرَ... " لأن القصّة من أكثر الأساليب الفنيّة تأثيرا في النّفوس يرى فيها الإنسان ما يراه في حياته من أحداث وأشخاص وحوار، فسحرت بذلك النّفوس وأسرت القلوب "[1].

فحين تُعرض قضيّة الإيمان والكفر وما يتّصل بها يزيد الموضوعَ وضوحا والفكرة جلاءً. والهدف هو إظهار محاسن الأولى وفوائدها، وكشف مساوئ الثانية وعواقبها على الإنسان،" فهناك نماذج كثيرة يرسمها القرآن لأناس طيبين، كرماء، شجعان، أتقياء ومخلصين، وهي نماذج مرسومة للترغيب في الاقتداء بها .وهناك نماذج أخرى لأناس فاسدين، وشرّيرين، يتمثّلون في نمـوذج (الكافر)، وهـو نموذج يرسمه القرآن، ليقابل نموذج المؤمن، لتوضيح الفروق بينهما "[2]، ومن ثمّ التّرغيب في الأوّل، والتّنفير من الثّاني.

وهي نماذج بشريّة يجمع بينها القرآن الكريم كثيرا في القصّة، وفي السّياق الواحد. والأصل في القصّة أنْ تعبّر عن هذه الشّخصيات المتصارعة والصّفات المتقابلة والمواقف المتناقضة، وهو ما يهدف إليه القرآن الكريم.يقول عبد السلام الراغب: " فقد بدأ القرآن الكريم من أوّل سورة فيه (البقرة) بتقسيم النّاس إلى فئات ثلاث : مؤمنة وكافرة ومنافقة ...وإنّما هو تقسيم جديد يعتمد على قاعدة أساسية، وهي موقف النّاس من العقيدة الإسلامية، ثم راح القرآن بعد ذلك يرسم صورا لهذه الفئات الثلاثة، محدّدا معالم كلّ فئة لتعرف بها، في الفكر والشّعور والسّلوك حتى غدتْ كلّ فئة من هذه الفئات نمطا مألوفا في الحياة البشريّة، كل نمط يُعدّ نموذجا حيّا لمجموعة من البشر، نموذجا مكرّرا في كلّ زمان ومكان لا تكاد تخرج البشريّة عن هذه النماذج الثلاثة إلى يومنا هذا"[3].ومن ثمّ فطبيعي أنْ تكون الصّفات متقابلة."ولمْ يقتصر الفنّ القصصي القرآني على ذلك، بل تعدّاه إلى كشف النّفوس السّويّة وغير السّويّة وقسّمها إلى: النّفوس الأمّارة بالسّوء، والنّفوس المطمئنة، والنفوس الزّكيّة، والنّفوس اللّوّامة والنّفوس الباطنيّة "[4].

ولعلّ قصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مع أقوامهم المكذّبين تدخل ضمْن هذا التقابل، لأنّها تمثّل هذا الصّراع بين الإيمان والكفر،وتُقسّم النّاسَ فريقيْن متقابليْن: مؤمنين مصدّقين وكافرين مكّذبين من جهة أخرى، وتعكس الفارق الشّاسع بينهما من جهة أخرى، خاصّة أنّ"

---

[1]. الراغب ، وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم ، ص 259 .

[2]. المرجـــع الســابق، ص 305 .

[3]. المرجــع الســابق ، ص 301 .

[4]. محمد الدالي ، الوحدة الفنيّة في القصة القرآنية ، ص 52.

السّرد القرآني يعْمَد إلى إيجاد أرضيّة للمتلقّي تُمكّنه من إدراك الشّخصيات السّلبيّة إدراكا تاما، ويتمّ هذا عن طريق عقد المقارنة من خلال التّقابل غير المباشر، وذلك بإيراد قصّة أو موقف للشّخصيات السّلبيّة في محيط من قصص أو مواقف للشّخصيات الإيجابيّة "[1].من ذلك قصص سيّدنا إبراهيم، سيّدنا نوح ، سيدنا لوط ... ـ عليهم السّلام ـ .

وفي ما يلي سنتناول قصّتيْن مختلفتيْن نبيّن فيهما ما أشرنا إليه، وهما قصّة سيّدنا يوسف ـ عليه السلام ـ ، وقصّة قابيل وهابيل :

3 ـ التقابل في قصّة سيّدنا يوسف ـ عليه السلام ـ :

قصّة سيّدنا يوسف ـ عليه السلام ـ قصّة مكتملة في سورة واحدة من بدايتها إلى نهايتها، ولم تتوزّع على سوَر أخرى كغيرها. وهي مليئة بالمتقابلات ذات العلاقة بالنّص القصصي وبحبكته، ولها دور رئيس فيه رغم أنّها لا تظهر على شكل ثنائيّات أو فقرات كما رأينا في غير القصّة. ولعلّ هذا يعود إلى طبيعتها التي لا يلائمها الأسلوبُ التّقريري المباشر، وإنّما تتضمّن صراعات ومواقف متقابلة عميقة تظهر لمَنْ يتأمّلها. ورغم هذا فإنّ التّعبيرات المتقابلة موجودة بشكل لافت للانتباه .

أ ـ التقابل في الشخصيات:

الشّخصيات عنْصر هامّ من العناصر الفنيّة للقصّة، والمحرّك لأحداثها،والمسيّر لمجرياتها، والمفْصِح عن موضوعها. وكما هو معلوم أنّ الشّخصيّات تتنوّع في القصّة بتنوّع العواطف والمواقف والتصرفات، وتتقابل وتتناقض،فتتأجّج عقدة القصّة ويلتهِب صراعُها.ومنْ خلال الحوار والسّرد، وتحرّك الشّخصيّة في محيط القصّة، وتتبّع القارئ لهذا التحرّك ... من خلال هذا كلّه تفصِح عن نفسها وعن نوعها، ونعرف حقيقتَها، " حيث بيّنت السّرديّة الحديثة أنّنا نتعلّم الكثير حول الشّخصيّات بمجرّد تتبّع طرائق تفكيرها، ومعرفة أفكارها "[2].

وفي قصّة سيّدنا يوسف ـ عليه السلام ـ يتجلّى عنصر الحبّ الأبويّ؛ حبّ يعقوب ليوسف وأخيه ولبقيّة أبنائه...وعنصر الغيرة والتّحاسد بين الإخوة ...وعنصر المكر والخداع ؛ من مكر إخوة يوسف به، إلى مكر امرأة العزيز بيوسف وبزوجها وبالنّسوة.وعنصر الشّهوة ونزواتها والاستجابة لها بالاندفاع أو بالإحْجام. وبالإعجاب والتمنّي، والاعتصام

---

[1]. الشهرزوري ، جماليات التلقي في السّرد القرآني ، ص 153، 154 .

[2]المرجع نفســه ، ص 93.

والتأبّي.وعنصر النّدم في بعض ألوانه، والعفو في أوانه. والفرح بتجمّع المتفارقين...[1].وهي كلّها مفارقاتٌ ومتناقضات وصراعات تعبّر عنها القصة ، ويتجلّى فيها التقابل .

فإذا كان سيّدنا يوسف ـ عليه السّلام ـ يمثّل الطهارة ، والصّدق، والوفاء، والعفة، والعلم، والحكمة، والصّبر، وقوة الإرادة، والعفو... فإنّ إخوته وامرأة العزيز يمثّلونالخيانة، والكذب، والشّهوة، والحسد، والمكر... وهو ما يمثّل الصّراع بين الحقّ والباطل، وما يتّصف به كلّ جانب من صفات تعكس حقيقته . وفي الوقت نفسه فإنّ كلّ جانب يمثّل بمفرده تقابلا ، ذلك لأنّ كلّ شخصيّة في الجانبين لم تثبت على حال ، بل تطوّرت وفق الأحداث وضمن الحبكة الفنيّة، وفي إطار الصراع القصصي.ولعلّ في هذا التنوّع والتقلّب يكْمُن عنْصر التشويق والمفاجأة في السّرد القصصي وتكمن الجماليّة ، " فقدْ يرجع التّشويق في القصّة إلى تعدّد مشاهدها، وتنوّع حوادثها وتباين أشْخاصها "[2]. وأهمّ هذه الشّخصيات هي :

• سيّدنا يوسف وأبيه ـ عليهما السّلام ـ :

سيّدنا يوسف ـ عليه السّلام ـ شخصيّة إيجابيّة في كامل القصّة، فقدقرّرت آيات السّورة ثباته على العفاف والوفاء والخلق والصّدق، رغم أنّ حالتَه قد تقلّبت ولم تثبت، فكانت الامتحانات وما يقابلها تلاحقه،فتقابلتْ عنده المننُ والمحنُ. " إنّ سيّدنا يوسف وأباهـ عليهما السّلام ـ يمثّلان نموذج الشّخصيّة الإيجابيّة المتكاملة،حيث ينطلقان من المنطلق الإيجابي في مراحل القصّة كافة وفي كلّ أدوارها، سواء أكانا في محْنة أو ضيق، أمْ في نعمة وسعة، فلا تفارقهما الإيجابيّة، ويوصل النّص بالمتلقّي إلى أنْ يربط هذه الإيجابيّة بعلاقتهما المتينة بالسّماء"[3].

فمِنْ مِحَنِسيّدنا يوسف عليه السلام ـ غيابات الجبّ وقعْرِه وغوْرِه[4].وعذابه الشّديد وظلمته ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ ﴿١٥﴾﴾يوسف: 15. إلى رفاهيّة القصْر ونُورِه :﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾يوسف: 21.

---

[1]. في ظلال القرآن ، 4/ 1962.

[2]. الراغب ، وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم ، ص 259 .

[3]. الشهرزوردي ، جماليات التلقي في السّرد القرآني ، ص 72 .

[4] . ينظر: صفوة التفاسير، 2/ 38.

والمثوى مكان الثوي والمبيت والإقامة، والمقصود بإكرام مثواه إكرامه... وهي مبالغة في الإكرام في مقابل مثواه في الجبّ وما حوله من مخاوف وآلام[1]. فيعيش في القصر وتنقلب محنته منحة . لكن هذه الأخيرة لم تَدُم طويلا، وتتجدّد ـ بعْد هذا الفرج ـ المحنةُ في امرأة العزيز التي راودته فامتنع.﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾يوسف: 32.فأتُّهِم وأُدْخِل السّجن، وتأتي معه المعاناة والعذاب، وتستمرّ المحنة، لكنه كان دائما يعالجها بالصبر والإيمان والثبات .

وبعْد هذا السّجن يخرج سيّدنا يوسف عليه السّلام ـ بسَبَب تفسيره لرؤية الملك، وتظهر براءته جليّةً باعتراف الجميع بها، ويصبح مسْتخْلَصا للملك مكينا أمينا:﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾يوسف: 51 – 55 .

وتنقلب محنته ثانية إلى منحة، وشقاؤه إلى راحة؛ فمِنْ عذاب السّجن والضّعف إلى نعيم القصر والقوّة، ومن العبودية والإهانة إلى السّيادة والزّعامة على خزائن الأرض ... وهو مصير المؤمنين والصادقين المخلصين في النهاية.فقد" كانت منّة الله تعالى على يوسف بالجمال الرائع مكمَنا لمحنته. ومحنتُه مكمنا للمنّة العظيمة عليه، وعلى آله ، وعلى أهل مصر، وجميع الأمم التي تقرب من مصر "[2].

فقد تقلّبت شخصيّة سيّدنا يوسف ـ عليه السّلام ـ من عجز الطفولة وضعفها وما رافقها من تعب ومشقّة إلى قوّة الشّباب وقدرته، والمطاع في أوامره، فلم تثبت حالته في القصّة، فكانت" تسير بين محوريْن فنيين تحكما في حركتها على مسرح القصّة وهما: حتميّة عجز الطفولة، وحتميّة قوة قادرة بنفسها، وعلمها، وحكمتها "[3].

---

[1] . ينظر: في ظلال القرآن ، 4/ 1978 .

[2]. عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء ، تح عبد الله بدران وعلي عبد الحميد ، دار الخير، دمشق، ط1، 1995، ص 140.

[3]. خالد أبو جندي ،الجانب الفنّي في القصّة القرآنيّة منهجها وأسس بنائها ، ص 172 .

ولعلّ الشكل الآتي يُحَوْصِل ذلك كلّه ويوضّحه :

الصّبَى والعجْز والفراق وغيابة البئر(**محنة)** ← رفاهيّة القصر (**منحة**) ← الاتّهام وعذاب السّجن (**محنة**) ←بلوغ الأشدّ والقوّة والزّعامة على الخزائن واللّقاء (**منحة**) .

ومن جهة أخرى "فقد يتّكئ السّرد القرآني على تقابلات الجمل في تصوير المشاهد وإبراز حصافة شخصيّة من الشّخصيات "[1]. ولعلّ هذه الآيات تبيّن ذلك ، حيث يقول تعالى:

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾يوسف:58–61 .

و يظهر التّقابل من خلال الجدول الآتي :

الآيــة	مقــابلُهــا
فَعَرَفَهُمْ ....﴿٥٨﴾	وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴿٥٨﴾
ائْتُونِي ....﴿٥٩﴾	فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي ....﴿٦٠﴾
أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ ....﴿٥٩﴾	فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي ....﴿٦٠﴾
وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾	وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾

وهو ما يبيّن حصافةَ سيِّدنا يوسف ـ عليه السّلام ـ وذكاءَه وقدرته على التّصرّف في المواقف وقوّته .

أمّا الأب فقدْ فَقَدَ بصرَه من شدّة الحزن في بداية القصّة، بسبب فُقْدان ابنه. ويعود إليه هذا البصر في الآخر، من شدّة الفرح بسبب ظهوره .وبيْن فقدان الابن وظهوره، وفقدان البصَر وعودته، وشدّة الحزن، وشدّة الفرح ...بقي متماسكا طول القصّة، يمثّل الشخصيّة الإيجابيّة التي لا تزعزعها صروف الدهر. والسرّ في كلّ هذا هو الإيمان .

- **امرأة العزيز:**

إذا كانت هذه الشّخصيّة تمثّل المكْر والخيانة والكذب ... في البداية، فإنّها مع تطوّر أحداث القصّة تغيّرت إلى ما يقابل ذلك. يقول أحدهم عنها: " تتحرك من خلال قانونيْن عامييْن متناقضين: حتمية السّلوك الغريزي الوحشي، وحتميّة السّلوك الرّوحاني للنّفس البشريّة المستوحى

[1]. الشهرزوردي، جماليات التلقي في السرد القرآني ،ص 274.

من يقظة الضّمير المتهذّب بالدّين. وقدْ استعرض المنْهج الفنّيّ هذه الشّخصيّة، وهي تمارس هذه الصّفات بصورة فنيّة وجليّة وواضحة، فكان سلوكها يمتاز بالصّخب، والضّجيج، والوحشيّة والقسوة أوّلا، والهدوء والعقل ثانيا"[1]. ولعلّ هذا ما يدلّ على وجود بذْرة الخير والشرّ في النّفس البشريّة .

ويتجلّى هذا التّغيّرُ في قوله تعالى :

﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾يوسف:51 ـ 53 .

لقد كان قولُها هذا اعترافا صريحا ببراءة سيّدنا يوسف ـ عليه السّلام ـ منْ جهة، ودليلا على تغيّر شخصيتها من جهة أخرى . ومن ثمّ يُظهرها امرأةً أخرى بشّخصيّة جديدة تناقض الشّخصيّة الأولى؛ من شخصيّة سلبيّة إلى أخرى إيجابيّة .

- **إخوة سيّدنا يوسف:**

فقدْ كانوا في البداية رمزا للمكر والحسد والكذب والخيانة، أقلّها أنّهم كانوا " يحسّون برابطة الأخوة بينهم إحساسا قويّا قوّة إحساسهم بغربة يوسف وأخيه إذْ يصفون أنفسهم بلفْظ عصبة و يجعلون هذا الوصف مقابلا ليوسف وأخيه مرّة وليوسف فقط أخرى﴿ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ ﴾يوسف: 8. وكذلك﴿ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾يوسف: 14"[2].

وهمْ أيضا يمثّلون التغيّر في القصّة، ذلك لأنّهم بعد أنْ كانوا رمزا للسّلبيّة في بدايتها انقلبت شخصياتهم وندموا على أفعالهم في نهاية القصّة وطلبوا المغفرة . ويتجلّى ذلك في قوله تعالى على ألسنتهم في الآيتين التّاليتين :

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾يوسف:91.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾يوسف:97.

---

[1]. خالد أبو جندي ،الجانب الفنّي في القصة القرآنيّة منهجها وأسس بنائها ، ص 195 .

[2]. تمام حسان، البيان في روائع القرآن، دراسة لغويّة وأسلوبيّة للنّص القرآني ، عالم الكتب ،القـاهرة ، ط1، 1993،ص 578 ، 579 .

يقول أحدهم: " وهكذا الحال بالنّسبة لقصّة يوسف مع الشّخصيّة الجماعيّة (إخوة يوسف) وشخصِيَتَيْ (امرأة العزيز والنّسوة) إذْ ظهروا جميعا بملامح سلبيّة في بداية القصة، وانتهوا بملامح إيجابية"[1].ولعلّ هذا ما يدلّ على استعداد النفس البشريّة للخير والشرّ، وأنّ هذين الأخيرين مركوزان فيها تحتاجان إلى إيقاظهما .

وإذا كان الصّراع بين الحقّ والباطل موجودا إلى يوم القيامة ... وأنّ الحقّ لا بدّ أن ينتصر في الأخير، فإنّ الباطل لا بدّأنْ يُراجع نفسَه، ويعترف بالحقّ ويرجع إلى الجادّة.وهو ما مثّلته امرأة العزيز وإخوة سيّدنا يوسف . ولعلّ هذا ما أرادت القصّة الوصولَ إليه، وما أراد التّعبيرُ القرآني الحثَّ عليه، والتّرغيب فيه، لأنّ عدم التّمادي في الباطل، وعدم الإصرار عليه هو اعتراف بالحق ورجوع إليه، وهو ما يُغتَفر.

يقول تمام حسان عن القصّة كلّها :" فأوّل القصّة خطيئة وآخرها مغفرة لهذه الخطيئة وفيما بين هذه الخطيئة، وتلك المغفرة نجد صراع الشّهوة والفضيلة كما نجد مقابلة الرقّ بالسّيادة والخمول بالتّفوّق والفشل بالنّجاح واليأس بالفرح والمرض بالشفاء، وبين كلّ قطب من أقطاب التّقابل وصاحبه إضافة منطقيّة عضويّة إلى نسيج القصّة لا يستغني تركيبها عنها لأنّ كلّ زوج تقابلي ممّا سبق له دور حيويّ هامّ في بناء القصّة "[2].

ب ـ بناء السّورة على التقابل:

ولمّا كانت شخصيات القصّة بهذه الصّفة التي رأيناها من التّناقض والتّصارع والتقابل، فإنّ تعبيرات السّورة عكست هذه الحالة،فكان من نتائج ذلك أنْ بُنيت على تعبيرات كثيرة متقابلة وبطريقة فنّيّة.وهي في مجملها تعبيرات تكرّرت، تؤلّف جزءا من جوّ السّورة وشخصيتها، ومنْها:

- **تقـابلات بين العلم والجهل :**

وردَ ذكرُ العلم وما يقابله من الجهل وقلّة العلم في مواضع شتّى[3]، وعلى مستويين؛ الآية الواحدة،أي في السّياق الواحد،والآيات المتباعدة، أي في السّياقات المختلفة. وسنُمثّل للنّوعيْن:

المستوى الأوّل :

ويظهر في الآية الواحدة، من ذلك بين:

---

[1]. الشهرزوردي ، جماليات التلقي في السّرد القرآني ،ص 61.

[2]. تمام حسان ، البيان في روائع القرآن ، ص558 ، 559 .

[3]. ينظر: في ظلال القرآن ، 4/ 1966.

ـ « ذو علم /لا يعلمون»:

﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾يوسف: 86 .

ـ«أعلم /لا تعلمون»:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾يوسف: 86، ووَرَد ذكْرها أيضا في الآية: 96.

ـ « علمتم/ جاهلون » :

﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩﴾يوسف:89.

المستوى الثاني:

ويظهر بين آيات متباعدة في السّورة منها :

آيــاتُ إثباتِ العلم	آيــاتُ نفيِ العلم
•﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ ﴾ يوسف: 22. •﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ ﴾يوسف: 37. •﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ ﴾يوسف: 101.	•﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾يوسف:21 . •﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ يوسف:40. •﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ يوسف: 44 .

إلى غيرها من الآيات التي جمَعتْ بين العلْم الذي يتّصف به سيّدنا يوسف ـ عليه السّلام ـ، ومن ثمّ المؤمنون المخلصون، ونفْيِه عن مقابله وعن غيره من الكافرين الجاحدين. ومن ثمّ يظهر الفارق وتنجلي الهوّة بين الفريقيْن. وهي ظاهرة بارزة تلفت النّظر إلى بعض أسرار التناسق ولطائفه في هذا الكتاب الكريم[1]التي منْ بينه قيام القصة على هذا التّقابل الجليّ .

• **تقـابلات مختلفـة:** إضافة إلى آيات العلم والجهل،هناك نماذج أخرى من المتقابلات المختلفة، وقد ذكرنا بعضها في عنصرِ(شخصيّة سيّدنا يوسف)، وهذه آيات أخرى منها:

[1]. في ظلال القرآن ، 4/ 1967.

ـ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ يوسف: 26–27 .

وهو تقابل يُحقّق في الظالم والمظلوم، ركّز عليه السّرد القرآني ليجعله دليلا على صدق سيّدنا يوسف، وكذِب امرأة العزيز، لأنّ الآية التي قبلها صرّحت بقوله تعالى:﴿ **وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ** ﴾ يوسف:25.فقَد برّأت آية التّقابل سيّدنا يوسف ـ عليه السّلام ـوقدّمت حلاّ للأزمة، ذلك" لأنّ الهاجم على المرأة ، وهي تدافعه، إنّما يظهر أثر دفاعها في مقدمة قميصه. والهارب من المرأة العالقة بثوبه، إنّما يظهر أثر ذلك من الخلف؛ لأنّه يكون مستديرا لها، وهي تجاذبه من خلف"[1].ومن ثمّ كانت هذه الآية عنصرا هامّا، ومحرّكا فعّالا لأحداث القصّة التي ارتبطت " بالقميص في كلّ مراحلها حتّى أصبح قميص يوسف عُنْصرا من عناصرها"[2].

ولعلّ ما يؤكّد ذلك أنّه ورَد في أربع مواضع متقابلة في القصّة؛ أوّلا فقدْ ظهر في بداية القصّة ونهايتها، وثانيا:أنّ القميص الأوّل الملطّخ بالدّم كان مصدر الهمّ والألم والوجع لسيّدنا يعقوب، وأمّا القميص الثّاني فكان مصْدَر شفاء وفرحة له. وثالثا: أنّ القميص الأوّل كان دليلا على الافتراق والانقطاع، فيما جاء الثّاني ليكون الأمل والإشراقوالحياة الجديدة المنفتحة على سعادة لمّ الشّمْل مِن جديد. ورابعا: أنّ قميص يوسف الملطّخبدم كذب، يُبْطل أثَره قميصٌ آخر فيه ريح صدق[3].

ـ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾يوسف:31 . ففي قولهنّ هذا، نَفْيٌ البشريّة عن سيّدنا يوسف وإثباتٌ له غيرها، أي الملكيّة، لما رَأيْن مِنْ جماله .

ـ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾يوسف: 39.وهو غير صريح، ذلك لأنّ«أرباب متفرقون»لا تقابل « الله الواحد» معجميّا، وإنّما هو تقابل أفْرَزه السّياقُ؛ فهما مَعبُودان متقابلان،ومَن يعْبُدْهما متقابلان، فعابِدُ الأوّل، أي الأرباب هو الكافر، وعابد الثّاني، أي الله الواحد هو المؤمن .

---

[1]. عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، ص 143.

[2]. تمام حسان ، البيان في روائع القرآن ، ص581 .

[3]. ينظر: المرجع نفســه ، ص 575.

ـ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ ﴿٤١﴾﴾ يوسف:41.هذا تأويل سيّدنا يوسف للرؤيا التي رآها صاحباه في السّجن، ومعناه أنّ أحدهما يُعفى عنْه والآخر يُقتل.وهو تقابل ـ أيضا كسابِقِه ـ غيرُ صريح. ومن جمالياته "أنّه يُفعّل العلاقة بين النّص والمتلقّي، لأنّ التّضاد هنا خفيّ غير ظاهر، يتطلّب من المتلقّي جُهدا وتأمّلا وتأنّيا في كشْفِه ، فالنّصّ يفاجِئ القارئَ بما لا ينتظره حرفيّا "[1].

ـ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ ﴿٤٣﴾﴾ يوسف:43.وهذه المتقابلات كانت "هي المكوّنات الرئيسة للرّؤيا، وهي المفتاح الذي أُعْتُمد عليه للإفصاح عن المكنون، وللوصول إلى التأويل المؤدّي إلى فكّ اللّغز، وتأمين الحلّ للمعضلة قبل ظهورها"[2]، ذلك لأنّ سيّدنا يوسف له قدرة على تأويل الرّؤى، ما جعله خلاصا للملك وللبلاد ولغيرها، وخلاصا لنفسه من هذه المحن وتمكينه من القوّة والخزائن والملك،خلافا للأولى التي ظهرت في بداية السّورة، والتي ظهرت مع الضّعف وبدأت معها المحن،" فجعل الله الرؤيا أوّلا ليوسف بلاء وشدّة، وجعلها آخرا بشرى ورحمة ظهورها"[3]. وبين الرؤيتيْن الأولى والثّانية تسلْسَلَتِ الأحداث واشْتدّ الصّراع، وتقابلت المواقف والشّخصيات .

ـ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ يوسف:67. وهو حشْدٌ للكثير من المتقابلات المتنوّعة في التّعبير عَكَس المتناقضات في القصّة، وعكَس التّقابل في شخصياتها ومواقفها وتصرّفاتها، ووضّح الفوارق بينها... وأهميّة اجتماع هذه المتقابلات تكمن في تصوير المشهد تصويرا ناطقا، وفي ترابط وتماسك النّص القصصي، إضافة إلى" أنّ هذا الحشد و التّنوع من المتقابلات لينطوي على جماليّة المبنى الفنّي للعنصر القصصي الذي يوظّفه النّص لبلورة الهدف"[4]الذي يسعى إلى توضيحه وتبليغه.يقول أحدهم:" الفنّ في القصص القرآني في المقابلة بين التّرغيب والتّرهيب والوعد والوعيد، وإنّ الجنّة والنّار ليتقابلا في أكثر القصص، وإبراز سنة الله في الكافرين"[5].

---

[1]. الشهرزوري ، جماليات التلقي في السرد القرآني ، ص 271.

[2]. المرجع نفسـه ،ص267.

[3]القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ،9/ 198.

[4]. جماليات التلقي في السّرد القرآني، ص 263.

[5]. محمد الدالي ، الوحدة الفنيّة في القصة القرآنية ، ص 10.

وقد تقابل التأويل بالرؤيا في آخر القصّة، حيث بدأت بالسّجود وانتهت به أيضا، لكن الأوّل كان رؤية والثّاني كان حقيقة﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ ﴿١٠٠﴾﴾يوسف: 100.

وهكذا فقصّة سيّدنا يوسف عليه السّلام ـ تُقدّم لنا درسا في المتقابلات؛ الرّجل والمرأة، العفة الصافية والشّهوة الجامحة، الصّدق والكذب، الوفاء والخيانة،الإخلاص والسّمعة، الشّرف والذلّ، هَمّ التّرك، وهَمّ الفِعل، الصّبر والثبات والاندفاع والتّقلّب، العلم والجهل، الرّخاء والقحط، التّرف والبؤس، البداوة والحضارة...وعبّرت عن مصير الإيمان والإخلاص،وهو النّصر والخلاص بعد المحن، والقوّة بعد الضعف...وهو ما يدلّ على حمايته سبحانه وتعالى لعباده ورعايته لهم.

فمِنْ فوائد ذكْر القصص في القرآن الكريم العظة والعبرة لكلّ من الفريقين؛ المؤمنين والكافرين، والتي تدفع الكافرين إلى الإيمان لئلّا يصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم، وتدفع المؤمنين لزيادة التّمسّك بدينهم، والتّفاني في نشر تعاليمه، وتحمّل الأذى في سبيله لينالوا من النّعيم ما أعدّ الله لهم ولأمثالهم من السّابقين[1]. وهو ما عبّرت عنه قصّة السّورة التي خُتِمتْ بعبرة القصص القرآني كلّه، يحملها للنبي ـ صلى الله عليه وسلمـ والقلّة المؤمنة معه، ومعَها التّثبيت والتّسرية والبشرى،ويحملها للمشركين المعاندين، ومعها التّذكير والعظة والنّذير...[2]. وهي غاية السّورة وهدفها، وغاية غيرها من القصص، وغاية القرآن الكريم كلّه. يقول تعالى في خاتمة السّورة :﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾يوسف:111.

4 ـ التقابل في قصة قابيل وهابيل:

يقول تعالى:﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ ۖ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى

[1] . ينظر: موسى شاهين لاشين، اللآلئ الحسان في علوم القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط1 ، 2002، ص 265.

[2]. في ظلال القرآن ، 4/ 1966.

ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾المائدة:27- 32.

وسنُوضّح ذلك في الجدول الآتي[1]:

هـــابيل	قـــابيل
إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا	إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ
قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾	قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ ﴿٢٧﴾
مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ	لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي ﴿٢٨﴾
إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾	—
إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ	—
ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾	—
	فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾

هذه القصّة تمثّل الصّراع بين الخير والحقّ ويمثّلهما (هابيل) والشرّ والباطل ويمثلهما(قابيل).وقد وردت قبلها قصّة بني إسرائيل وعصيانهم لقتل الجبّارين.وإنْ كان بين القصتين تشابه، فإنّ بينهما تقابلا، ولعلّ ما يهمّنا هنا هو الأخير. يقول ابن عاشور عن مناسبة التقابل بين القصّتين والذي سَوّغ مجاورتَهما :"فإنّ في إحداهما إقداماً مذموماً من ابنيْ آدم، وإحجاماً مذموماً من بني إسرائيل، وإنّ في إحداهما اتّفاقَ أخَوَيْن هُمَا موسى وأخوه على امتثال أمر الله تعالى، وفي الأخرى اختلاف أخَوَيْن بالصّلاح والفسَاد"[2]. ولعلّ هذا يوافق ما قيل في مناسبة الآيات، من ذلك أنّه "لّما ذكر تعالى تمرد بني إسرائيل وعصيانه مل أمر الله في قتال الجبارين، ذكَر قصّة ابني آدم وعصيان(قابيل) أمْر الله وإقْدامه على قتْل النّفس البريئة التي حرَمَها الله، فاليهود اقتفوا في العصْيان أوّل عاصٍ لله في الأرض، فطبيعةُ الشرّ فيهم مستقاةٌ

[1]- الآيات في الجدول غير مرتّبة ترتيبها الأصلي، وذلك لتداخل التقابل فيها .

[2]. التّحرير والتنوير، 6 / 168.

من ولد آدم الأوّل، فاشتبهت القصّتان من حيث التمرّد والعصيان"[1]. ونحن هنا ما يهمّنا هو قصة ابنيْ آدم، لاعتمادها على الاختلاف، ومن ثمّ التقابل؛فإذا كان بين قصّة ابنيْ آدم وما قبلها تقابلٌ فإنّها في الوقت نفسه تضمّنت تقابلا داخليّا. يقول سيد قطب :" هذه القصة تقدّم نموذج اًلطّبيعة الشرّ والعدوان ونموذجاً كذلك من العدوان الصّارخ الذي لا مبرّر له. كما تقدّم نموذجاً لطبيعة الخير والسّماحة ونموذجاً كذلك من الطيبة والوداعة. وتقف هنا وجهاً لوجه، كلّ منْهما يتصرّف وفْق طبيعته. وترسم الجريمة المنكرة التي يرتكبها الشرّ، والعدوان الصارخ الذي يثير الضّمير"[2].

من خلال الآيات والجدْول يمْكن أن نسجّل الملحوظات الآتية:

أ ـ لقد بدأ سبحانه وتعالى القصة بقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ﴿٢٧﴾﴾، ما يوحي بأهميّة هذا الخبر، ولفْتِه للانتباه، لأنّ النبأ لا يُطلق على الخبر العادي، فهو"خبَرٌ ذو فائدة عظيمة يحصل به علْم أو غلبة ظنّ... وحقّ الخبر الذي يقال فيه نبأ أنْ يتعرّى عن الكذب"[3]. فأصْل النّبأ أنْ يكون مُخبِرا مفيدا مُعْلِما صادقًا. وهي مهَام تجعل منْه مُهِمّا لافتا للنّظر ومن ثمّ مؤثّرا. ولعلّ قوله :﴿نَبَأَ ٱبْنَيْ ﴾ تمهيدٌ لوجود نمطيْن مختلفيْن من الشّخصيّة، وهو ما أظهره الحوار لاحقا .

ب ـ الحوار بين الأخوين: ما جرَى بين الأخوَيْن؛ قابيل وهابيل مِنْ حِوار قبل وُقُوع الجريمة كَشَف شخصيّتَيْهما، وعن نفسيّة كلّ واحِدٍ منْهما، فأظهر لنا نوعيْن متقابلين من الشّخصيّة، وكشَف أيضا ما يُريد القرآن الكريم تبليغَه :

• قال قابيل:﴿لَأَقْتُلَنَّكَ ...﴿٢٧﴾﴾ .

في قوله هذا تصميمٌ على القتل وقرار به، حيث أنّه أكّده بـ«اللام والنّون »، وهو ما ينفي عنه صفةَ التّراجع ونفّذه بالفعل، لكنّ هذا التّصميم جاء بعْد تردّد وحيرة. ولعلّ ما يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴿٣٠﴾﴾.إذْ كشف السّرد تردّدَ قابيل أثناء تنفيذه لعملية القتل، من خلال الفعل « طوّع »الذي يدلّ على حدوث تردّد في نفسه ومغالبة بين دافع الحسد

[1]. صفوة التفاسير، 1/ 311 .

[2]. ظلال القرآن، 2/ 874.

[3]. الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، ص 788، 789 .

ودافع الخشْية . بمعنى أنّ نفس قابيل سَوّلت له قتْل أخيه بعد مُمانعة[1]. فتصارعت ملكتا الخير والشرّ فيه، وتغلّبت الثّانية أخيرا عليه . وهو صراع يدلّ على بقيّةٍ منْ آثار النُّبوة، فالشّرّ في الأخيار ينْحدر، وفي الأشرار يصعد[2]. يقول أحدهم:" كان قابيل رجلا ذا شخصيّة مريضة تمتزج بها عناصر الشرّ وتُسيْطر على تصرفاتها دواعي الطّمع والإثم والتّمرّد على حكم الحقّ، وكان أخوه هابيل رجلا صالحا تقيّا يطمئنّ للحق، وقد وقَع بينه وبين أخيه خلافٌ وصراع يقع مثله عادة بين البشر ويتكرّر على مدى الحياة أبدا، إنه صراع بين الخير والشرّ انتهى بأنْ قتَل قابيل أخاه هابيل "[3].

• اتّسَم حوار (هابيل) بالمرونة واللّين رغم عُنْف أخيه (قابيل) وشدّة حواره. ويظهرالتقابل بين التعبيرين في قوله تعالى:﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾. وهو استسلام للقتل[4]، وعذم ردّ الفعل؛ فقد استعمل « الباء »المؤكّدة للنفي، حتى يفيد أنّه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع[5].وهو ما لا يُقبِل عليه هابيل، ولا يفّكر فيه . بل في قوله ما يدلّ على نفوره التام من ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء .

ففي حديثه عن أخيه قدّم الجار والمجرور«إلَيّ» على المفعول به «يدَكَ»، وعبّر بالفعل « بسَط».أمّا عن نفسه فقدْ أجرى الكلام على الأصل؛ فقدّم المفعول به «يدَي» وأخّر الجار والمجرور«إليك » ، وعبّر بِاسْم الفاعل «باسط». والجملة التي مسندُها فعْلٌ تدلّ على الحدوث ـ كما يقول النحاة ـ ، أما التي مسندها اسم فتدلّ على الثبوت[6]. وهو ما يبيّن أصالة وثبوت الخير فيه، وحدوث الشرّ في أخيه، حتى أنّه تَردَّدَ في القتْل ـ كما سبق ـ .ويعْكس الفارق الشّاسع بين الأخويْن. والقرآن الكريم في كلّ هذا يُعطي التّعبير حقّه والسّياق ما يلائمه .

فهابيل رمْز التّقوى، الإخلاص، الوداعة، التّسامح، الخوف من الله ... وقابيل رمْز المباهاة،والبطش،والحسد، والانتقام ... فقابلَتْ الصّفاتُ الأولى الثانيةَ في القصّة، وكان الصّراع

---

[1]. ينظر:التحرير والتنوير، 6 / 172.

[2]. ينظر: تفسير الشعراوي، 3078/5.

[3]عفيف عبد الفتاح طبارة ، مع الأنبياء في القرآن الكريم قصص ودروس وعبر من حياتهم، دار العلم للملايين، ط 26، 2010 ، ص 53 .

[4]. ينظر: محمد صديق الحسيني ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن ، 3 / 396 .

[5]. ينظر: الكشاف ، 1/ 626 .

[6]. ينظر: فاضل صالح السامرائي ، معاني النحو ، شركة العاتك ، القاهرة ، د ط ، د ت ، 1/ 15 .

بينهما، وهو صراع يستمرّ في كلّ زمان ومكان إلى قيام السّاعة .يقول ابن عاشور: "وكان قابيل فلاّحاً في الأرض، وكان هابيل راعياً للغنم، فقرّب قابيل من ثمار حرْثه قُرباناً وقرّب هابيل من أبكار غنمه قرباناً ...فتقبّل الله قربان هَابيل ولم يتقبّل قربان قابيل... وإنّما لم يتقبّل الله قربان قابيل لأنّه لم يكن رجلاً صالحاً بل كانت له خطايا"[1]، وأيضا " أنّ قابيل قدّم شِرار زرعه، وهابيل قدّم خيار ماشيته"[2]. وهو ما أثار في نفسه الغيرةَ والحسدَ والانتقام، فاستعدّ لعمل أيّ شيء ولو قتَلَ أخاه."فالقصّة عرضٌ للإنسانيّة بشطريها: الطيّب والخبيث،على وجْهَيْها المُشْرِق والمظْلِم، وفي جانبَيْها: الملائكي والشّيْطاني، فالحسَد والغيْرة وغريزة التملّك، والغريزة الجنْسيّة علّة التّنافس فيها، وسبب احْتِدَام الصّراع بين الأخوَيْن"[3].

ج ـ هدّد قابيل أخاه هابيل بالقتل:﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.وهو تهديد قصير جدا، ذلك لأنّ القتْل هو قمّة التّهديد ويغطّي عن كلّ الأقوال، وعن أيّ تهديد آخر. ومن جهة أخرى فالسّرد أراد الدّلالةَ على معان أخرى، وأنْ يحقّق أبعادًا من خلال الحوار بين الأخوين.وهو ما يُوحي به ردُّ هابيل، حيث كان طويلا .يقول تعالى على لسان هذا الأخير:﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فقد تقابَل الردّان طُولا وقِصَرا؛حيث ألقى السّرد ضوْءا خافتا على قوْل الطّرَف السّلبي وهو قابيل، إذْ ترَك له مساحة سرديّة ضيّقة جدا،وذلك فمِن أجْل فرْز هذا الفعْل الشّنيع . وفي المقابل أعطى مساحة سرديّة كبيرة لأقوال الطرف الإيجابي هابيل، ليكون السّلوك السّلبي والشّخصيّة السّلبيّة بارزتين مشخّصتين[4].وفي هذا ـ أيضا ـ اهتمامٌ بالمؤمنين المتّقين المخْلصين وبَسْط الحديث عنْهم، ودعوة إلى اتّخاذ مواقفِهم والعملِ بأعمالهم، وإهمالٌ لغيرهم و نبْذ ما يصْدُر عنهم." لقد قام الحوار بإبراز رؤيتي الأخوين، وهُما رؤيتان متضادّتان؛ الأولى تنظر إلى

---

[1]. التحرير والتنوير، 6/ 169 .

[2]. تفسير الشعراوي، 5/ 3074.

[3]. محمد الدالي، الوحدة الفنية في القصة القرآنية ، ص 47.

[4]. ينظر:جماليات التلقي في السرد القرآني ، ص 156.

الآخر نظرة إيجابيّة، فلا تضمر له حقدا، ولا تنوي له شرّا، والثانية تنظر إلى المقابل نظرة حَسَدٍ وكراهيّة وعدوانيّة، ومع أنّ الآخر أعلن له موقفه السّلميّ، وإمساكه عن إلحاق الأذى به"[1].

و هكذا يظهر الفرق بين الأخوَيْن هابيل وقابيل من خلال هذا التقابل في :

ـ قبول القربان / رفض القربان .

ـالتقوى والإخلاص /عدم التقوى والإخلاص .

ـ التبرّؤ التّام من القتل / الاستعداد التّام للقتل وتنفيذه .

ـ الخوف من الله ومن اقتراف الذّنب / عدم الخوف منهما .

يقول سيد قطب:" وهكذا يرْتَسم نموذج من الوداعة والسّلام والتّقوى في أشدّ المواقف استجاشة للضمير الإنساني وحماسة للمعتدَى عليه ضدّ المعتدِي وإعجاباً بهدوئه واطمئنانه أمام نذْر الاعتداء وتقوى قلبه وخوفه من ربّ العالمين. ولقد كان في هذا القول الليّن ما يفثأ الحقد ويهدّىء الحسد، ويسَكّن الشرّ، ويمسح على الأعصاب المهتاجة ويردّ صاحبها إلى حنان الأخوة، وبشاشة الإيمان، وحساسيّة التقوى"[2]. وهو ما يعكس التقابل بين نموذجين من البشر، كثيرا ما تقوم به القصة في القرآن الكريم ." وهكذا نرى أنّ الصورة ترسم النماذج البشرية بقصد التأثير، وهي نماذج خيّرة، وأخرى شرّيرة، نماذج للاقتداء، ونماذج للابتعاد عنها والتنفير منها، وبهذا تتحقّق الوظيفة الدينيّة من خلال تصوير النّماذج القرآنية "[3].

ثالثا : التقابل في الأمثال القصصيّة في القرآن الكريم .

قد يأتي المثل القرآني في إطار قصّة، حيث يصرّح في البداية بلفظ (المثل)، ثم يدخل في سرد الأحداث." فهي قصة ذات تفصيل وأحداث ومراحل، ولكنها سيقت مساق المثل فكانت مثالا من أمثلة القرآن، وكانت في الوقت نفسه قصّة واقعة يجب التّصديق بها"[4]. فهي نوع يمتزج فيه المثلُ بالقصّة، ومن ثمّ فهي ليست أمثالا بحتة، ولا قِصصا صرفة، بل اشترك فيها الاثنان، لذلك خصّصناه بعنصر مستقلّ. فأخذت مزاياهما، واتّصفت بجماليّات كلٍّ منْهما. ولعلّ هذا ما يجعل هذا النّوع أكثر تأثيرا .

---

[1]. المرجع نفســه ، ص 137، 138.

[2]. في ظلال القرآن، 2/ 876.

[3]. عبد السلام الراغب ، وظيفة الصّورة الفنيّة في القرآن الكريم ، ص 320 .

[4] . البوطي ، من روائع القرآن ، ص 188 .

ونتيجة لهذا فقدْ أطلق عليها أحدُهم الأمثال القصصيّة، وهي تتناول ـ كما قال ـ" شخصيّتيْن متناقضتيْن لإظهار الفكرة الدينيّة من خلال التناقض بين الشّخصيتيْن في السّلوك والتفكير"[1] يقدّمها على شكْل مثَل في إطار قصصي يُصَوّر فيه أحوال الصّالحين وأحوال المعاندين، فيرسْم الصّفات المتناقضة، والأفكار والمعتقدات المتعارضة، فتتقابل الشّخصيات والمواقف. فالمثل هنا يُضرب عبر مظهر قصصيّ يضفي على النّص القرآنيّ طابعا سرديّا يعايش من خلاله المتلقّي الأحداث بكل أبعادها الزمانيّة والمكانيّة [2].

وفي هذا النّوع من الأمثال يقول البوطي:" فهو مثل وقصة بآن واحد، وإنّما عدّدناها في الأمثال لا في القصص لأنّها سيقت مساق المثل، إذْ جردت من تفاصيلها القصصيّة واعتصرت منْها معالم العبرة مكثفة موجزة، ولأنّ الله سمّاه مثلا "[3].

ومثال ذلك قصّة الرّجليْن في سورة الكهف. يقول تعالى:

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرٗا ٤٣ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤﴾

الكهف 32 ـ 44 .

ففي هذا المثَل القصصي يَعرض سبحانه وتعالى أنموذجين بين رجلين اثنين؛ أحدهما كافر غنيّ طاغ مغرور بأمواله وأولاده . والثاني مؤمن فقير واثق بما عند الله . وهي هنا أحداث

[1] . عبد السلام الراغب ، وظيفة الصورة الفنيّة في القرآن الكريم ، ص 190 .

[2] . ينظر: صالح ملّا عزيز ، جماليات الإشارة النفسيّة في الخطاب القرآني ، ص55 .

[3] . البوطي ، من روائع القرآن ، ص 187.

وقعت، وحقيقة حصلت ـ كما يُروى ـ " والأمثال في مضامينها، هي إشارة موجزة قصص الأمم السابقة، وما وقع للجماعات الإنسانية على طول المسيرة على الأرض ولأفرادها من هدى أو ضلال، وما كان إليه مصير هؤلاء وهؤلاء"[1]. يقول سيد قطب: " قصة الرجلين والجنتين تضرب مثلا للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنّفس المعتزة بالله. وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبر التي تسيطر على أقدار الناس والحياة. ويحسب هذه النّعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه. وصاحبه نموذج للرّجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النّعمة دليلا على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره "[2].

فاختلط الكفرُ بالغنى الفاحش، والإيمان بالفقر المدقع؛ ورغم هذا الغنى وهذه النّعم فصاحبُه متكبّر متجبّر منْكِر للنّعم. وبالمقابل، ورغم هذا الفقر وهذا الحرمان فصاحبه مؤمن متواضع مُقِرّ بنعم الله عليه. فيظهر بالتّالي الفرْقُ بين العمَلَيْن والنّموذجين، وتظهر الهوّة بينهما، وتظهر العبرة في أنّ الغنى ليس دليلا على رضا الربّ ـ سبحانه وتعالى ـ ، وأنّ الفقر ليس دليلا على بُغضِه." إنّ القيم الحقيقيّة ليست هي المال، وليست هي الجاه، وليست هي السلطان. كذلك ليست هي اللّذائذ والمتاع في هذه الحياة... إنّ هذه كلّها قيم زائفة وقيم زائلة"[3].

فالفقر والغنى ما هُما إلا مقياس دنْيَوي عاجل، ليس له دخل في الآخرة وفي السعادة الحقيقيّة. والمقياس الحقيقي هو الإيمان بالله ، والدّنيا لا تدوم على حال. لذلك أردفه بمَثَل آخر قصير يبيّن ويؤكّد حقيقةَ أنّ الدنيا تشبه هذه الجنّة:

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ الكهف: 45 .

ومن جهة أخرى فقد بدأ المثلَ بقوله تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا ﴾. وهي مقدّمة غرضها التّحضير للموضوع الهامّ وتهيئة الذّهن للسّماع، ليشرع بعدها في سرد أحداثه و تبيين مواقف وسلوكات الشّخصيتَيْن المتناقضتين، ليراها السّامع أمامه تتحرّك، متجسِّدةً في شخصيات

[1] . النقراط ، بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم ، 2 / 1044.

[2] . في ظلال القرآن ، 4 / 2270.

[3] . المرجع نفســه ، 4 / 2267 .

ملموسةً، عن طريق التّصوير الفنّي والجمالي الذي يتحقّق "في القصّة القرآنيّة في أمريْن هاميّن أوّلهما مواطن التّصوير، حيث قوّة العرض ورسم الشّخصيات، وتمثيل العواطف والانفعالات، وبلاغة الحوار، وثانيهما هي وسائل وتقنيات التّصوير التي تتمثّل في تقنيات التّصوير اللّغويّ من بلاغات وصياغات لغويّة"[1]. فتضمّنت الآيات فنّيات القصّة في إطار التّصوير بالمثل القرآني، وزاده الطابعُ القصصيّ الذي قُدِّم به جاذبيّةً وشوقا لسماع الأحداث، فالصّورة والقصّ إلى جانب الإيقاع ظواهر فنيّة [2]. فيقوم السّامع بالمقارنة بين الموقفين، ويتعرّف على ما آلت إليه كلّ شخصيّة، ويصل في الأخير إلى اختيار طريقِ شكْرِ النِّعم والإيمان. فكانت" للمثل دلالته الفنيّة التي تجسّم الأفكار، وترسم الصّور، وتُقرّب إلى الأفهام ما هو بعيد عنها"[3]. فجمعت الآيات بين مزايا المثل ومزايا القصّة ومزايا التقابل .

وإذا كان قد بدأ مثّله بوصْف الجنّتين:﴿ ... وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا ﴿٣٣﴾﴾ الكهف 32. وهو مشهدُ فخرٍ وكفْرٍ بالنّعمة، وإعمار، فإنّ نهاية المثل كانت ألَما وحسْرة وخرابا ودمارا ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾﴾ الكهف 43 . فتقابلتْ نهايةُ المثل مع بدايته لتُعْلِن الغرضَ:﴿ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾﴾ الكهف44 .

وبين النّهاية والبداية صورٌ جزئية متنوّعة ومتشابكة، مُندمِجة مع سياق مَثَلِها، وسياقِ سورتها وغرضِها، والغرضِ العام للقرآن الكريم." وهكذا تتقابل المشاهد في المثل الواحد، لرسم لوْحة فنّية، تجمع صورا متناقضة وحالات متباينة، لتحقيق الغرض الدّيني من تصوير المثل"[4]. وقد تجسّد هذا الغرض الدّيني من خلال هذا المثل القصصيّ الذي تناول شخصيّتين متقابلتيْن متناقضتين، وهُما صاحب الجنّتين وصاحبه المؤمن، ليُظهر من خلالهما الفارق الشاسع بينهما إيمانا وتصرّفا وموقفا، جاعلا من الجانب الجماليّ وسيلةً لغايته الإرشاديّة.

ومن جهة أخرى، فكثيرا ما نجد في القرآن الكريم قصّةً تُمثِّل جانبا سلبيّا ضمن قصص ذات جانب إيجابيّ في سياق واحد، فيكون هذا الأخير أكثر تعبيرا، وتكون السّلبيّة فيه أجْلَى

[1] . عيد سعد يونس ، التصوير الجمالي في القرآني الكريم ، ص 198 .

[2] . ينظر: سلامي العماري، الإعجاز البياني والحداثة، كليّة الآداب والعلوم الإنسانية، سوسة، تونس، د ط ،2007، ص152.

[3] . فتحي أحمد عامر، المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، د ط ، د ت ، ص 445 .

[4] . الراغب ، وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم ، ص193 .

وأعمق تنفيرا، وبالمقابل تظهر الإيجابيّةُ أوْسَعَ وأكْثَر ترغيبا... وهو ما وجدْناه في سورة هذا المثل القصصي (الكهف)، فقد تضمّن هذا الأخير تقابلا بين صاحب الجنّتين وصاحبه المؤمن من جهة، وفي الوقت ذاته تقابلَ « صاحب الجنتين » بطل المثل القصصي بـ « ذي القرنين» بطل قصّة أخرى في السّورة نفسِها.

فإذا كان التملّك عنصرا مشتركا بين « صاحب الجنتين » و« ذي القرنين»، فإنّ الرؤية إلى هذا التملّك تختلف بين الشّخصيتين؛ فـ « صاحب الجنتين » مَلَكَ مزرعتين وتَشبَّثَ بزينة الحياة الدّنيا، وشكّك في قيام السّاعة، وقال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ الكهف: 36. أمّا مقابلُه « ذي القرنين» فقدْ ملَك أكثر منه، مشرق الأرض ومغربها، ولم يتشبّث بزينة الحياة الدنيا، وقال:﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ الكهف: 98. ومن ثمّ ذكرت السّورة بُعْديْن مختلفيْن من أبعاد التّملّك تجمَعُهما علاقة تقابل، والمتلقّي يضَع اليَد على هذا التّوازن والتّقابل بين موقفيْن مختلفيْن، ويتوصّل إلى مدى التّخالف بين الشّخصيتيْن، ومدَى المفارقة في موقف رجل بَهَرَتْهُ زينة الحياة الدّنيا، مع أنّه لا يملك منها إلا مزرعتين، مقارنة بموقف آخر لم تُبْهِرْه هذه الزّينة[1].

[1] . ينظر: جماليات التلقيّ في السّرد القرآني ، ص 154 .

الفصل الثالث: التّقابل وألوان البديع في القرآن الكريم

مدخل.

أوّلا: التّقابل وألوان البديع الإيقاعيّة.

ثانيا: التّقابل وألوان البديع الدلاليّة.

مدخل :

أطلق البلاغيون اسمَ البديع على القسم الثالث من أقسام البلاغة. والبديع " هو العلم الذي تُعْرف به المحسّنات الجماليّة المعنويّة واللفظيّة المنثورة، الَّتي لم تُلْحَقْ بعلم المعاني، ولا بعلم البيان"[1]. وقد أطلقوا على ألوانه الكثيرة والمختلفة « المحسّنات البديعية »، وهو اسم يناسب ما قصَدَه هؤلاء البلاغيون منْ أنّ دور هذا القسم البلاغي التّحسين فقط ـ كما سبق ـ . ومن ثمّ فقدْ قسّموا هذه المحسّنات إلى لفظيّة، والتي منها الجناس والسّجع والتّوازن وغيرها ... ومعنويّة ومنها الطباق والمقابلة والتّورية وغيرها ... وقلنا في المدخل أنّ التّقسيم ينافي طبيعة اللّغة التي لا يُمكن فصْلُ عناصِرِها بعضها عن بعض، ولا يمكن فصْل اللّفظ عن المعنى، اللّذين هُما وجْهَان لعُمْلة واحدة، وهُما متعانقان لأداء الوظيفة. ومن ثمّ لا نتصوّر في إطار التّواصل لفظا دون معنى، ولا معنى دون لفظ، رغم أنّنا نستطيع أنْ نحكم بتغليب أحَدِ الجانبيْن ـ اللفظ والمعنى ـ على الآخر في البديع . وهذا حسب طبيعة اللّون البديعي، وحسب تركيبة أصواته وما يؤدّيه في الكلام. ولعلّ تسمية كلّ لون من هذه الألوان البديعية جاءت بناء على وظيفته الغالبة عليه في الكلام، مع عدم إهمال الجانب الآخر أو محاولة الانتقاص من دوره . ولعلّ القدماء راعوا هذا الجانب في بناء تقسيمهم البديعي على أساس اللّفظ والمعنى .

لذلك فنحْن لمّا قسّمنا في هذا الفصل؛ العناصر الإيقاعيّة والعناصر الدّلاليّة في البديع، لا نقصد الفصل بين المجموعتين، وإنّما من باب التّغليب، ولغاية منهجيّة؛ فإذا كانت المجموعة الأولى يغلب عليها الإيقاع لطبيعتها، فإنّها لا تَعْدِم الدّلالة، وإذا كانت الثانية تغلب عليها الدّلالة لطبيعتها ـ أيضا ـ ، فإنّها لا تعدم الإيقاع. ومن ثمّ لا يمكن الفصْل بين الإيقاع والدّلالة في الواقع، فهُما يتضافران لأداء التّواصل والتّبليغ، خاصّة أنّ الإيقاع يمثّل الجماليّة من صوْت ومبنى ومِنْ ثمَّ البنية، والدّلالة تُمثّل المعنى، ومِنْ ثمَّ الوظيفة، ولا يمكن فصْل المبنى على المعنى، أو البنْية على الوظيفة .

ومن جهة أخرى فالإيقاع لا ينحصر في الجانب اللّفظي، بل يتعدّى إلى المعنى، وهو في المحسّنات البديعيّة عامة واضحٌ جليٌّ،" فهو أبرز خصائصها الفنيّة لأنّ نظرة سريعة في

[1]. الميداني، البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها ، 2 / 369 .

تكوينها اللّفظي أو المعنويّ تجعلنا نُدرك أنَها تقوم أساسا على نُظُم إيقاعيّة "[1] بِنَوْعَيْها الصَوتيّة والدّلاليّة؛ والتي لا يمكن فصْل بعضهما عن بعض، " فالنّاحية الدّلاليّة تتلَبّس بعمليّة الكشف البديعي، وإنْ تجلّت أحيانا في مظاهر صوتيّة، أو إيقاعيّة"[2].

وعليه فإنّه إلى جانب الإيقاع الصّوتي اللّفظي، هناك " إيقاع معنويّ يُشَخّص في ذهن المتلقّي وعقله من خلال ما يتّصل بالسّياقات الدّلاليّة "[3]. وهو ما نجده في التّقابل الذي يقوم إيقاعه " على فكرة التّقابل بين الألفاظ والمعاني، وتضاد الدّوال في مدلولاتها "[4]، كما أنّ الطباق ـ وهو تقابل ـ " يقوم على عنصر إيقاعيّ له أهميّته ألا وهو التّضاد والمخالفة في المعنى"[5]. فإذا كان المعنى في النّص يُقابله آخر، لا يزيد عنْه ولا ينقص، فإنّ لفظهُ، كَبِنْية ـ أيضا ـ يقابله آخر لا يزيد عنه ولا ينقص، ليكون التّوازن والانتظام اللّفظي والمعنويّ بين طرفيْ التّقابل. فهو رغم أنّه مبنيّ على التّضاد الدّلالي، إلّا أنّه يُشكّل وحدات صَوْتيّة تقابلها وحدات صوتيّة أخرى ، أيْ أنّه علاقات صوتيّة ، وأخرى دلاليّة . ومن ثمّ فهُو محسّن لفظيّ ومعنويّ[6]. وبالتالي يجمع بين الإيقاع اللّفظي والمعنوي. ولعلّ هذا ما جعل بعْضَهم يُطلق على أمثال الطباق والمقابلة والتكافؤ، والسّلب والإيجاب والتّرديد اسمَ « محسّنات الإيقاع الدّلالي »، لأنّها ـ كما يرى ـ تقوم على التّقابل والتّوازن المعنويّ عن طريق التّضاد بين الألفاظ والجمل وأشباهها[7]. وخاصّة إذا اندمج هذا التّقابل مع بعض ألوان البديع الصّوتيّة كالتّوازن والسّجع والجناس والتّكرار، فتلتقي فيه المخالفةُ الدّلاليّة بالانسجام الصّوتي .

---

[1] . ابتسام أحمد حمدان ، الأسس الجماليّة للإيقاع البلاغي في العصر العباسي ، دار القلم العربي، حلب ، سوريا ، ط1، 1997 ، ص 289 .

[2] . محمد عبد المطلب ، بناء الأسلوب في شعر الحداثة ، ص 8 .

[3] . أماني سليمان داود ، الأمثال العربية القديمة دراسة أسلوبية سردية حضارية ، المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ، ط1 ، 2009 ، ص 97 .

[4] . المرجع نفسه ، ص 98 .

[5] . محمود عسران ، البنية الإيقاعية في شعر شوقي ، مكتبة بستان المعرفة ، كفر الدوار ، د ط ، 2006 ، ص 409 .

[6] . ينظر: طالب محمد الزوبعي ، ناصر حلاوي ، البلاغة العربية البيان والبديع ، ص 194 ، 195.

[7] . ينظر: محمد صالح الضالع ، الأسلوبية الصوتية ، دار غريب ، القاهرة ، د ت ، د ط ، ص 45 .

وعليه، فإذا كان التّقابل هُو الجمْع بين المتناقضات، وبين الشّكل والمضمون في الكلام ، " فإنّ الإيقاع هو النّقطة التي تلتقي عندها المتناقضات، ويتّحِد عندها الشّكل والمضمون"[1]. وتكون النتيجة بالتّالي هو الْتِقاء التّقابل بالإيقاع .

فالبديع عامّة مَهْما كان لوْنه، له جانب إيقاعيّ صوتيّ، وآخر معنويّ دلاليّ، لأنّه يمثّل اللّغة التي هي لفْظ ومعْنى، والتي لا يُمكن الاستغناء عن أحدهما في عمليّة التبليغ . والبديع ـ أصلا ـ يبحث في العلاقات اللّفظيّة والمعنويّة بين المفردات داخل التركيب .

وفي هذا الفصل الثالث سندرس التّقابل وبعض الألوان البديعيّة الإيقاعيّة والدّلاليّة .

[1] . صالح ملا عزيز، جماليات الإشارة النفسيّة في الخطاب القرآني ، ص 270 .

أوّلا: التّقابل وألوان البديع الإيقاعيّة .

تمهيـد :

عرَّف أصحاب المعاجم الإيقاع بقولهم:" الإيقاع من إيقاع اللّحن والغناء وهو أن يُوقِعَ الألحان ويبينها"[1]. وقد ورد عن ابن سيدة قولُه:" الإيقاع حركات متساوية الأدوار لها عودات متوالية واللّحن صوت ينتقل من نغمة إلى نغمة أشدّ وأحط والطبقة : حدّ مختار للصّوت ينبغي أنْ توضع الألحان فيما شاكَلها من الأشعار؛ فمنْها ما يبكي ويرقّق... ومنْها ما يُطرب... ومنْها ما يُشوّق وترتاح له النّفس ... ومنْها ما يَسرّ ويُفرح ويَحثّ... ومنْها ما يُشجّع... وغير ذلك. وهذا كلّه يُدْعى غناء"[2]. ومنه فالإيقاع بمعنى إحداث اللّحن والغناء وتبيينه وتوضيحه، عن طريق النّغمات التي هي غير ثابتة .

أمّا اصطلاحا فالإيقاع هو" توظيف خاصّ للمادّة الصّوتيّة في الكلام، يظهر في تردّد وحدات صوتيّة في السّياق على مسافات متقايسة بالتّساوي أو بالتناسب لإحداث الانسجام وعلى مسافات غير متقايسة أحيانا لتجنّب الرتابة "[3].

ومنه فالإيقاع هو تلوين صوتي ونغمة متكرّرة في العمل الأدبي، نتيجة توالي حركات وسكنات وكلمات بشكل منتظم ومسافات متساوية ـ عموما ـ . ما يجعله يحمل السّمات الآتية:

ـ النغمة الصوتيّة .

ـ قِيامُه على الحركات والسّكنات ، وأساسُه الحروف والكلمات والجمل .

ـ الإعادة والتكرار .

ـ تساوي مسافات الوحدات الصوتية ـ غالبا ـ .

ـ الخروج عن هذا التّساوي ـ أحيانا ـ للتّنويع و تَجنُّبِ الرّتابة والمَلل .

وهي جميعا سماتٌ للتآلف والانسجام والانتظام ، مع التّنويع أحيانا ، ومصدرٌ للذّة والمُتعة، تجعل الإيقاعَ عنصرا هامّا من العناصر الجماليّة الأساسيّة التي تكوّن العمل الأدبي .

هذا وقد قسّم الباحثون الإيقاع قسمين؛ خارجي تحكمه الأوزان الخليليّة المعروفة بِبُحور الشّعر، إضافة إلى القافية والرويّ . وهو ـ بالتّالي ـ إيقاعٌ يحْكمه قانونٌ وضوابط ، ويُسَيّره

---

[1] . لسان العرب ، مادة (وقع) ، 8 / 408 . وينظر: الفيروزابادي ، القاموس المحيط ، ص 773 .

[2] . ابن سيده ، المخصّص ، تحقيق : خليل إبراهيم جفال ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط1 ، 1996 ، 4 / 9 .

[3] . محمد الهادي الطرابلسي ، في مفهوم الإيقاع ، حوليات الجامعة التونسيّة ، العدد: 32 ، السنة : 1991 ، ص 7 .

نظام معيّن، ولا يكون إلّا في الشّعر. وإيقاع داخلي تحكمه قيَمٌ وتلوينات صوتيّة متناثرة داخل نسيج النّص، وبهنْدسة تشكّل ألفاظا متآلفة الحروف والحركات، وجُملا وعبارات متجانسة متناسقة الكلمات، فيتولّد البناء الموسيقي الفنّي لهذا النّص، وتظهر النغمةً العذبة فيه التي مصْدرُها تلاؤُم هذه الأصوات، وتجانُسُ الألفاظ وحُسْنُ اختيارها، وتناسُق العبارات وانتظامها... وهُو ــ بما يمثّله من تغيّر ــ حريّة وهندسة موسيقيّة غير مقيّدة . والنّظام الصّوتي الثّريّ للّغة يوفّر ما نقص من موسيقى في غياب الوزن .

وإذا كان الإيقاعُ نَغْمةً، فإنّه لا يُدْرك هذه النغمةَ إلا السّمع، لأنّ الإيقاعَ جمالٌ صوتيٌّ تشعر وتحسّ به الأذن منذ البداية. ولهذه الأخيرة دورٌ كبير في استقبال المعاني والتأثّر بها من خلال أصوات اللّغة. ولا يكون هذا الجمال الصّوتي وهذا الوقع والتأثّر إلّا إذا كانت هذه الأصوات منتظمة متآلفة منسجمة، في تركيب خاصّ سليم يجمع بين السّهولة في النّطق والبُعد عن التّنافر وانسجام الأصوات، وانتظام الوحدات، وتساوي الجمل. وهي مجموعة من العناصر الصّوتيّة المتآلفة والملتحمةٍ فيما بينها، ذات النّسيج الموَحّد والبناء المتكامل، والمُشَكِّلَة للجمال والمُنْتِجة للدّلالة، والمُساهِمة في التأثير. ومن ثمّ تكون لإيقاعها وظيفة جماليّة وأخرى دلاليّة. لأنّ غايته" لا تَقِف عند حدود التّأثير الصّوتي الصّرف الذي تخلفه الألفاظ مفردةً ومؤتلفة في الأسماع، إنّما يتجاوز ذلك إلى الإسْهام في توضيح المعاني وإفْهامها إلى المتلقّي"[1].

وإذا كان أبرز ما يميّز القرآن الكريم هو النّغمة الموسيقيّة والقيمة الإيقاعيّة المتنوّعة، فإنّنا سنختار هنا من ألوان البديع ما له صلة أقوى بالإيقاع، واندمج مع التّقابل، وهي الزّاوية التي استغلّها القرآن الكريم استغلالا كبيرا، والتي تُوَفّرُها هذه الألوان، وتَظهر فيها بشكل جليّ وهي : التّكرار والتّوازن والتّجانس والفاصلة. وقبلها سنبدأ بالحديث عن اهتمام القرآن الكريم بالإيقاع .

1 ــ اهتمام القرآن الكريم بالإيقاع :

اهتمّ القرآن الكريم بالإيقاع اهتماما كبيرا، حيث جعله وسيلة من وسائل الإقناع والتّأثير وتوضيح المعاني. ولعلّ هذه النّغمة المُدَوّية للإيقاع هي التي جعلت العرب يؤمنون به، فالكثير منْهم أسلموا تحت تأثير القرآن الكريم، وكان فيهم البلغاء مثل سيّدنا عمر بن الخطاب وأبي ذر الغفاري والوليد بن عقبة وغيرهم [2]. حتّى كفّارهم الذين لم يؤمنوا به ارتاحوا لِسَماعه وتلذّذوا به،

[1] . عبد القادر هني، نظرية الإبداع في النقد العربي القديم ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، د ط ، 1999، ص226.

[2] . ينظر: بلقاسم بغدادي ، المعجزة القرآنية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، ط 2 ، 1992 ، ص 160 .

فالوظيفة الإيقاعيّة هي أشدّ تأثيرا في المتلقّين. ولعلّ هذا ما جعل أيضا الشّعراء والكتاب في مختلف العصور، وخاصّة شعراء الحداثة يَسْعون إلى توفير الإيقاع في أشعارهم وفي أمثالهم وحِكَمهم وغيرها .

وجمال القرآن الكريم مُختلِف الأشكال الإيقاعيّة وأرقاها. فهُو لا يسير على وتيرة واحدة لأنّ من سمته التّنوّع والتّجدّد حتى لا يملّ السّامع من جهة، ويعطي كلَّ معنى إيقاعَه المناسب من جهة أخرى، فأسلوبه " الموسيقيّ الإيقاعيّ يتنوّع بتنوّع الأجواء التي تطلق فيها"[1]. ونتيجة لهذا الأسلوب فقدْ لحظ العلماء والنّقاد أنّ شدّة الانسجام يَصِل في بعض الأحيان إلى أنْ تتّفق الآية مع وزن بحر من الشّعر[2]. فيكون القرآن الكريم قد تحرّر من قيود الشّعر، فجمَع بالتّالي بين خصائص الشّعر وخصائص النّثر. ولعلّ هذا ما جعل بعْضَهم يعتبر القرآن الكريم جنْسا من القوْل فريدا يختلف عن الشّعر وعن النّثر، أمثال سيّد قطب وطه حسين[3]. فقدْ استغلّ القرآن الكريم من الشّعر والنّثر محاسِنَهما وطاقاتِهما التّعبيريّة المختلفة، واستغنى عمّا يُعِيبُهما. وبالتّالي فهو ليس شعْرا خالصا، ولا نثرا خالصا .

ومنْه فأبْرز ما يميّز القرآن الكريم أنّ له نغمةً موسيقيةً خاصّةً وإيقاعا فريدا من نوعه، جعَلا منْه ذا أهميّة في التّعبير وفي التّأثير." فقد اتّفقت كلمة الدّارسين المحدثين على أنّ القيمة الإيقاعيّة التي تحملها الألفاظ ليست ممّا يستهان به في التّعبير الأدبيّ وفي النّظم القرآني، لأنّ لها أثرا في تحريك النّفوس وتهيئتها لتقبّل المعاني. وذهب كثير منْهم إلى أنّ جزءا كبيرا من روعة القرآن ينبع من جمال الإيقاع في نظمه"[4].

وعناصر الإيقاع كثيرة ومتنوّعة، ساهم النّقد الحديث في توضيحها وتحليلها. فالعمل الأدبيّ قبل أنْ يكون نصّا، فهُو حرَكات وأصْوات وكلمات وتراكيب مُشَكِّلة للموسيقى الدّاخليّة، والتّي

---

[1] . طالب محمد الزوبعي ، من أساليب التعبير القرآني ، دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النص القرآني ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط1، 1996، ص 390 .

[2] . أحمد بدوي ، من بلاغة القرآن ، مكتبة نهضة مصر ، ط 3 ، 1950 ، ص 245 .

[3] . يقول طه حسين: " القرآن ليس نثرا ، كما أنّه ليس شعرا، إنّما هو قرآن ، ولا يُمكن أن يُسمّى بغير هذا الاسم . ليس شعرا، وهذا واضحٌ ، فهو لم يتقيّد بقيود الشعر. وليس نثرا، لأنه مقيّد بقيود خاصة به، لا توجد في غيره ، وهي هذه القيود التي يتّصل بعضها بأواخر الكلمات، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة". (من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، القاهرة، ط12، د ت ، ص 25) .

[4] . أحمد أبو زيد ، التناسب البياني ، ص 243 .

" تتبعث في النّص الكريم من الحركة ومن الحرف ومن اللّفظ المفرد في كلّ آية فتلقى ظلالها بجرسها ونغمها على التّركيب فيستقلّ بتصوير لوحة كاملة "[1].

وبناء على ذلك فالإيقاع تحْكُمُه قوانين تتمثّل في النّظام والتّغيّر والتّساوي والتّوازن والتّلازم والتّكرار[2] والتّجانس والفواصل والتّناسب ... وهي في مجملها تشكيلٌ لفظيّ وألوانٌ بديعيّة وعناصرُ صوتيّة تُكوّن الإيقاع ، وتندمج في القرآن الكريم مع التّقابل، وتُشكّل معه جماليّةً وتُسَهّل الاتّصال، وتُنتج الدّلالة، وتُسهم في التّأثير والإقناع،" فالإيقاع شطير الصّورة في تكوينه لبنْية النص ... الجماليّة والدّلاليّة "[3].

[1] . أحمد طالب الزوبعي ، من أساليب التعبير القرآني ، دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النص القرآني ، ص 359 .

[2] . عز الدين اسماعيل ، الأسس الجماليّة ، ص 187 .

[3] . نعيم اليافي ، أوهاج الحداثة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، سوريا ، 1993 ، ص 222 .

2 ـ التّقابل والتّكرار :

التّكرار لغة "مصدر كرّر إذا ردّد وأعاد"[1]، وكرّ عليه كرّا وتكرارا عطف عنه ورَجَع [2]. فالكرّ الرّجوع والعطْف، وكرّر الشّيءَ وكركره أعادَه مرّة بعد أخرى، ومنه التّكرار[3]. وفـي التّعريفات هو " الإتيان بشيء مرّة بعد أخرى "[4].

ومنه فالتّكرار في اللّغة يحمل معنى الرّجوع والعطف والتّرديد والإعادة .

ومن تعريفاته في الاصطلاح:" دلالة اللّفظ على المعنى مردّدا"[5]. وأيضا: " أن يأتي المتكلّم بلفظ، ثم يعيده بعينه، سواء أكان اللفظ متفق المعنى أم مختلفا، أو يأتي بمعنى ثم يعيده، وهذا من شرط اتّفاق المعنى الأوّل والثاني. فإنْ كان متّحد الألفاظ والمعاني، فالفائدة في إثبات تأكيد ذلك الأمر، وتقريره في النّفس. وكذلك إذا كان المعنى متّحدا، وإنْ كان اللّفظان متّفقيْن والمعنى مختلفا، فالفائدة في الإتيان به الدّلالة على المعنييْن المختلفين"[6]. وهو هنا يتحدّث عن التّكرار المحْض، وتكرار المعنى دون اللفظ أو ما يسمّى التّرادف، وتكرار اللّفظ دون المعنى أو ما يُسمّى « الجناس »، وفائدة كلّ نوع .

والتّكرار لون بلاغيّ، وظاهرة أسلوبيّة هامّة، تذكر الكتُب أنّه لا يخلو من فائدة، وأنّ له مزيّة كبيرة في الخلق الشّعري وفي غيره من الفنون[7]. ويُعدّ من العناصر الأساسيّة في الإيقاع، ومن مظاهر الجمال في العمل الأدبيّ، ومن مقوّماته الفنيّة الأساسيّة. فإذا كان العمل الأدبي يقوم على الإيقاع والدّلالة، فإن" التّكرار أحد عمد الإيقاع"[8]، ومكوّن من المكوّنات الدّلاليّة. ومن ثم فهُو ضروريّ في أيّ عمل، ولا يُمكن الاستغناء عنه. فهو" وسيلة تعبيريّة وتقنيّة فنيّة بالِغة الأهميّة "[9] في تفعيل النّص، بشرط أنْ يكون ذا استخدام فنّي. ولهذا فقدْ استعمله العرب في

---

[1] . البرهان ، 3 / 9 .

[2] . ينظر: الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، ص 469 .

[3] . ينظر: لسان العرب ، 5 / 135 .

[4] . الجرجاني ، التعريفات ، ص 65 .

[5] . المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، 3 / 3 .

[6] . أحمد مطلوب ، معجم النقد العربي القديم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط1 ، 1989 ، 1 / 370 .

[7] . محمد الواسطي ، ظاهرة البديع دراسة بلاغيَة نقديَة ، ص 237 .

[8] . محمود عسران ، البنية الإيقاعيَة في شعر شوقي ، ص 292 .

[9] . نعمان بوقرة ، قراءة لسانية نصيّة في مجموعة (تراتيل الغربة)، مجلّة الأثر، جامعة ورقلة، ع:2، ماي 2003 ، ص270.

كلامهم، وعبّروا به في نقل أفكارهم، والإفصاح عن مكنونات نفوسهم. يقول أحمد ابن فارس (ت 396هـ):" سنن العرب التّكرير والإعادة إرادةَ الإبلاغ بحسب العناية بالأمر"[1].

لذلك يلجأ المتكلّم إلى هذا التكرار، سواء أكان في الحرف،أم في الكلمة، أم في الجملة، وذلك لتحقيق غايات جماليّة ودلاليّة، والوصول إلى إقناع المخاطَب وتثبيت الفكرة في ذهنه. فاللّغة العربيّة تستعمل التّكرار وتعتمد عليه في بناء كلماتِها وجملِها ونصوصِها. والتّكرار ليس عبثا، بل هو أصْل في اللّغة، وله غايات وأغراض تواصليّة. وهو ما تفطّن إليه القدماء، رغم " أنّهم التفتوا إلى دلالاته أكثر من التفاتهم إلى قيمته الإيقاعيّة"[2]. واعتبر الكثير منْهم أنّ التّكرار غير المتكلّف من محسّنات الكلام، وهو الذي دعَتْ إليه الحاجة وطلَبَه المعنى. ومن ثم عدّوه من أساليب الفصاحة. يقول الزركشي: " وقد غلط كثيرا مَن أنْكر كوْنه من أساليب الفصاحة، ظنًّا أنّه لا فائدة له؛ وليس كذلك بل هو من محاسنها، لا سيما إذا تعلّق بعضه ببعض ... وفائدته العظمى التّقرير"[3].

ومنْه فإنّ التّكرار يجمع بين الفائدة الجماليّة، والتي تتعلّق بالخصائص الصّوتيّة الموجودة فيه؛ فالأصوات أو الكلمات، أو التّراكيب عندما تتكرّر في الكلام وعلى أبعاد متقاربة تُحدث إيقاعا معيّنا، و"القيمة الصّوتيّة هي قيمة جماليّة كالتّي في جميع الفنون"[4]، ذلك لأنّ الأذن تستعذب هذا الإيقاع وترتاح له، و" يُدركه الوجدان السّليم حتّى عن طريق العين، فضلا على إدراكه السّمعي بالأذن"[5]. والفائدة الدّلاليّة، والتي تتعلّق إجمالا بما يُثبته التّكرار من معانٍ وأفكار في ذهن السّامع ويُرسّخها ويزيد في وضوحها، وبما ينبّهه إلى ما هو غافل عنه. فهو" في حقيقته إلْحاحٌ على جهة هامّة في العبارة يُعنى بها"[6] في الكلام أكثر من غيرها. لذلك فقدْ استعمله الشّعراء والكتاب في مختلف العصور، واستعمله القرآن الكريم واعتمد عليه اعتمادا كبيرا، حتّى أنّه لا تكاد تخلو سورة أو آية منه، مستغلًّا طاقاته الإيقاعيّة والدّلاليّة. يقول الفخر

---

[1] . ابن فارس ، الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، ص 158 .

[2] . طالب محمد الزوبعي ، ناصر حلاوي ، البلاغة العربية البيان والبديع ، ص 145 .

[3] . البرهان ، 3 / 9 .

[4] . عز الدين علي السيد ، التكرير بين المثير والتأثير، عالم الكتب ، بيروت ، ط2 ، 1986 ، ص 45 .

[5] . المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

[6] . نازك الملائكة ، قضايا الشّعر المعاصر، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 5 ، د ت ، ص 276 .

الرازي:" وفي القرآن التكرار الكثير، ومع ذلك كلّ واحد منها في نهاية الفصاحة، ولم يظهر التفاوت أصلا "[1].

هذا وقد اتّخذ التّكرار في القرآن الكريم أشكالا متنوّعة، منها هذان المثالان:

• **المثال الأوّل:**

يقول تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ الحاقة: 19 – 32 .

كثيرا ما يأتي التقابل في القرآن الكريم مبتدئا بـ « أمّا » الشَرطيّة التَفصيليّة التي تُفصِّل ما أُجْمِل قبلها، وهو" أن يذكر المتكلّم الشيء ونقيضه بعد التخويف والتشويق"[2]. وهو ما قامتْ به هنا في هذه الآيات، حيث جعلَتْ النّاس يوم القيامة قسمين هما :

• ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ... ﴾ .

• ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ... ﴾ .

ولليمين والشّمال عند العرب دلالتان متقابلتان؛ فدَلالَة الأولى إيجابيّة، والثّانية سلبيّة. يقول ابن عاشور:" وجعل إيتاؤه إياه بيمينه شعارا للسّعادة لما هو متعارف من أنّ اليد اليمنى تتناول الأشياء الزّكيّة وهذا في غريزة البشر نشأ عن كوْن الجانب الأيمن من الجسد أقدر وأبدر للفعل الذي يتعلق العزم بعمله فارتكز في النّفوس أنّ البركة في الجانب الأيمن حتى سمّوا البركة والسّعادة يمْنا، ووسموا ضدّها بالشّؤم"[3]، وهي اليد الشّمال .

وهنا يتّضح كلّ فريق، ويتجلّى الفرْقُ بينهما؛ فالأوّل همْ أصحاب حُسْن الحظّ، والفوْز والنّجاة، والثّاني أصحاب سوء الحظّ، والخسارة والخذلان .

ويظهر الفرق أكثر في ما قالَتْه كلّ مجموعة وفي حالتها:

---

[1] . الرازي ، مفاتيح الغيب ، 2 / 347 .

[2] . ينظر: الصابوني ، صفوة التفاسير، 3 / 568 .

[3] . التّحرير والتّنوير، 30 / 222 .

فالأولى: ﴿ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ۝٢٣ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴾ .

والثانية: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ۝٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ۝٣٢ ﴾. ومن ثمّ فالصّنفان المتقابلان هما: المؤمن السّعيد والكافر الشّقيّ .

ما يلاحظ في إيقاع الآيات إضافة إلى التّقابل ما يلي:

• البداية بـ « أمّا مَنْ ... » في الحديث عن كلّ طرف، وهو تكرار يُشعر بتقابل كلّ فريق وفصْله دلاليّا عن مقابله، رغم أنّهما متّصلان تركيبا وسياقا. ومن جهة أخرى شكّل مقدّمة إيقاعيّة نتج عنها توافقٌ صوتيّ بين البدايتين، فكانتا متوافقتين مبنى ومعنى، لكن الفريقين مختلفان. والذي حدّد هذا الاختلاف بدايةً ما أوْحت به الكلمتان « بيمينه وبشماله » .

• تكرار بعض الألفاظ: « **فَيَقُولُ** ، **كِتَٰبِيَهۡ** ، **حِسَابِيَهۡ** » . وقد نتَج عنْه توافق صوْتيّ ، وقد تعزّز بنوع آخر، وهو تكرار اسم الفاعل« راضية ، عالية ، دانية ، الخالية ، القاضية ». ما جعل موسيقى الآيات عذبةً تنساب انسيابا .

• مجموعات الفواصل والتي شكّلت وحدات إيقاعيّة ودلاليّة متنوّعة منسجمة، ومعبّرة عن معانيها. وقد وردَتْ بثلاثة أنماط، اشترك فيها المتقابلان في واحدة، وهي « هاء السّكت » واختلفا في فاصلتين " وهذا التّغيّر في حرْف الفاصلة وفي نوْع المدّ قبلها وفي الإيقاع كلّه ظاهرة ملحوظة تتبع تغيّر السّياق والمشاهد"[1].

وقد شكّلت « هاء السّكت » إيقاعا لمقول القوْل لكلّ من المؤمن والكافر على السّواء ." إنّ انتهاء الفواصل بـ « هاء السّكت » مسْبوقةً بمُصوّت « الياء » يُضفي على النّص نغمة صوتيّة موحّدة ، ويمنحه إيقاعا موسيقيّا رخيا يتساوق مع التّعبير عن الفرحة الغامرة حينا، وعن الحزن القاتل حينا آخر...والمتلقّي يحسّ بهذا وذاك"[2]، نتيجة امتزاج ألفاظ وتراكيب موحية بالفوز والنّجاة، وأخرى موحية بالخسارة والخذلان. وينتج صوتُ « هاء السّكت » عن الانفراج الواسع

[1] . في ظلال القرآن ، 6 / 3676 .

[2] . صالح ملا عزيز ، جماليات الإشارة النفسيّة في الخطاب القرآني ، ص 328 .

لأعضاء النّطق، فكان لها دور في إبراز حالة اليأس والشّقاء الذي يعانيه الكافرون في جهنّم، وهُم يُعذّبون، وإبراز الصّورة المقابلة حالة الفرح والانشراح للمؤمنين[1].

وما يُلاحظ أنّ حديث المؤمن ورَدَ سريعا خاطفا، ليأتي مباشرة وصْفُ حالتِه ونعيمه في الجنّة، وفيه دعوة لطيفة للأكل والشّرب والتّمتّع، وفي هذا تعجيل لمجازاته وتكريمه. في حين أنّ حديث الكافر قد طال، وهو يصيح متألّما متحسّرا، عكَسَ لنا حالتَه السّيئة وهو يتعذّب في النّار. لتطول بعد ذلك حالة العقوبة والإخبار عنه في الجحيم والسّلاسل إلى غاية الآية: 37 . وهو ما يتناسب مع جوّ السّورة التي تعبّر عن ذلك ابتداء من عنوانها وانتهاء بقوله تعالى:

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾الحاقة: 49 – 51.

ولعلّ ما أكّدها كثرة المدود في أقواله: « يَلَيْتَنِي ... مَا ... يَلَيْتَهَا ... كَانَتِ ... ٱلْقَاضِيَةَ ... مَآ ... عَنِّي ... »، مع وجود بعضها في ما ورد على لسان المؤمن طربا « ها ... ؤوا » . وهي في مجموعها ذات صوْت مُسمِع ودالّ. فكان لأصوات « المدّ والهاء » قدرة على استيعاب الحالات النّفسيّة المختلفة وكشْفها، بامتداد الصّوت والصّياح فرَحا ونشْوة أو حزنا وحسْرة... ولها دور في التّعبير عن هذه الحالات بإيقاع متوازن منْسجم. وقدْ حسَمَ الموقفَ انتهاؤُها بالمقطع المغْلق، وزاده جدّا وحزْما. ولعلّ هذا يكشف لنا سرّ كثرة استعمال أصوات المدّ في القرآن الكريم ، وزيادة « هاء السّكت » في بعض الآيات .

• أمّا الاختلاف فكان في الإخبار عن حالتيْهما تنعّمًا وتعذّبًا؛ فاستعمل فاصلة « التّاء المسبوقة بالياء » مع حالة المؤمن، وفاصلة « الهاء » مع حالة الكافر. ما يُبيّن أنّ الجانب الصّوتيّ ينسجم مع الجانب الدّلاليّ ويعبّر عنه .

وعند المقارنة بين ما ورَدَ عن المتقابليْن، نجد الفرْقَ واضحا :

فقد أخبر عن المؤمن بالجمْع، وخاطبه خطابا مباشرا:﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾. وفي هذا تشريف له ولأمثاله وإيحاء بالعزّة والمكانة .

وعن الكافر أخبر بالمفرد الغائب، وبإيقاع سريع: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾. وفي هذا إهانة له ولأمثاله، وإيحاء بالذلّ والمهانة، وسرعة عقوبته.

[1] . ينظر: بلقاسم دفة ، نماذج من الإعجاز الصّوتيّ في القرآن الكريم ، دراسة دلاليَة ، مجلة كليَة الآداب والعلوم الإنسانيَة والاجتماعيَة ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، ع : 5 ، جوان 2009 ، ص 19 .

وما يُلاحظ في هذه الآيات التي تخبر عن حالة الكافر في جهنّم :

• من حيث المقاطع، استعمل الفواصلَ ذات المقاطع المغْلقة، المختومة بمقطع طويل (ص ح ح ص) « لُوهْ ، لُوهْ ، كُوهْ ». ولعلّ في هذا إيحاءً لدلالة الآيات ؛ إشارة إلى إحكام الغلْق عن أصحاب جهنّم وجدّيته، ومناسبة لمقام الحسْم والصّرامة، وملاءمة للْحديث عن جهنّم، التي هي سجْن والسجن هذا شأنه .

• ارتكزت الفاصلتان الأولى والثّانية « فَغُلُّوهُ ... صَلُّوهُ ... » على صوْت « اللاّم المشدّدة » . وهو صوت مجهور، وله قوّة إسْماع قريبة من قوّة إسماع أصوات المدّ[1]، وأكثر الأصوات السّاكنة وضُوحا [2]. ما جعل دوْره مُهمًّا وأساسيّا هنا، فساهَم في الإيقاع من جهة ، وأكّد ما سبق من الجانب الدّلاليّ من شدّة وجديّة من جهة أخرى، حتى كأنّنا نرى هذا الكافر. وزادها تأكيدا ارتباطُ الفواصل بـ « الواو» الملائمة للمدّ والمنسجمة مع التّطريب ، ووُجُود التّجانس في الآية الأخيرة بين « ذَرْعُهَا وذِرَاعًا »، وما أحْدثه تكرار صوْت « السّين » ـ وهو صوْت صفيريّ ـ أربع مرّات فيها، من تجانس وانْسجام بين الألفاظ .

• تناغَم إيقاع الآيات مع دلالاتها، حيث تزايدت الفواصل طولا باشتداد التّعذيب؛ أخْذ ، فغلّ، فتَصْليَة بالجحيم، فإسْلاك في سلسلة طويلة ... فعبّرت كلّ فاصلة عن معاني آيتها بدقّة؛ متجانسة الحروف ، متناغمة الأصوات ، متلائمة مع الدّلالة ، مندمجة مع السّياق .

وهكذا تميّزت آيات التّقابل بين ﴿ مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ... ﴾ و﴿ مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ...﴾ بالكثافة الإيقاعيّة والدّلاليّة وبالانسجام العامّ، من حيث ترتيب الأصوات والمقاطع، والألفاظ وتآلفها وتوزيعها في أجزاء متناسبة، وتراكيب معتدلة. وقد اعتمدت في ذلك على التّكرار بمختلف أنواعه، من بدايتها إلى نهايتها؛ في الأصوات والمقاطع والألفاظ والفواصل . ونتج عنْه مجموعة تجانسات وتوازنات وتقابلات عبّرت بها في حديثها عن الطّرفين، بما يلائم كلّ سياق قريب أو بعيد، وأعطت كلّ مقام ما يناسبه محقّقةً التّناسب والتّوازن بين الجانب الصّوتيّ والمعنى فجمعَتْ بالتّالي بين الوظيفة الجماليّة والوظيفة الدّلاليّة ، ومن ثمّ التّبليغ بدقّة متناهية، والإقناع والتّأثير. ولعلّ سيّد قطب أجْمل ذلك حين قال:" إنّها مشاهد من القوّة والحيويّة

[1] . ينظر: غالب فاضل المطلبي ، في الأصوات اللغويّة دراسة في أصوات المدّ العربيّة ، منشورات وزارة الثقافة ، والإعلام ، الجمهورية العراقية ، د ط ، 1984 ، ص 46 .

[2] . ينظر: إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغويَة ، مكتب نهضة مصر، د ط ، د ت ، ص 28 .

والحضور بحيث لا يملك الحسّ أنْ يتلفت عنْها طوال السّورة، وهي تلحّ عليه، وتضغط، وتتخلّل الأعصاب والمشاعر في تأثير حقيقي عنيف! ويشارك إيقاع الفاصلة في السّورة، برنته الخاصّة، وتنوّع هذه الرنّة، وفق المشاهد والمواقف في تحقيق ذلك التّأثير الحيّ العميق.. فمن المدّ والتّشديد والسّكت ... إلى الرنّة المدويّة في الياء والهاء السّاكنة بعدها. سواء كانت تاء مربوطة يوقف عليها بالسّكون، أو هاء سكت مزيدة لتنسيق الإيقاع، طوال مشاهد التّدمير في الدّنيا والآخرة، ومشاهد الفرحة والحسْرة في موقف الجزاء. ثم يتغيّر الإيقاع عند إصدار الحكم إلى رنّة رهيبة جليلة مديدة "[1].

• **المثال الثاني :**

يقول تعالى :﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦ ﴾ الغاشية: 1 ـ 16 .

هذه آيات بداية سورة (الغاشية)،والغاشية هي" الدّاهية التي تغشى النّاس بشدائدها وتلبسهم أهوالها، يعني القيامة"[2]. وهو يوم حساب وعقاب، يوم نجاة أو خذلان، جنّة أو نار. ومن ثمّ تنقسم فيه حالة النّاس بين سعادة وبكلّ رفاهيتها وشقاء وبكل أتعابه. فقد" اشتملت هذه السّورة على تهويل يوم القيامة وما فيه من عقاب قوم مشوهةٍ حالتُهم، ومن ثواب قوم ناعمةٍ حالتهم وعلى وجه الإجمال المرهِّب أو المرَغّب"[3]. ومن هنا وردَ التقابل بين حالتيْن مختلفتين لفريقين من النّاس: أولاهما المكذّبون، وثانيهما المؤمنون .

وقد ركّز في حديثه عن الطّرفين على الوجوه :

• وجوه : خاشعة ، عاملة ، ناصبة ، نار حامية ، عين آنية ، طعامُهم الضّريع ...

• وجوه : نَاعِمَةٌ ، رَاضِيَةٌ ، فِي جَنَّةٍ ، لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ، عَيْنٌ جَارِيَةٌ ، سُرُرٌ ، أَكْوَابٌ ، نَمَارِقُ ، زَرَابِيُّ ...

---

[1] . في ظلال القرآن ، 6 / 3676 .

[2] . الكشّاف ، 4 / 741 .

[3] . التحرير والتنوير، 30 / 293 .

والْمُرَادُ بِالْوُجُوهِ الخَاشِعَة العَامِلَة ... أَصْحَابُ الْوُجُوهِ وَهُم الكُفَّارُ، والْخُشُوع يَظْهَرُ فِي الْوَجْهِ فَعَلَّقَهُ به[1]، والوجْه مقياس صاحبه، ومخْبر عن حالته، وعليْه يظهر ما تُخفيه نفسه وما تُعانيه، ولأنّ الذلّ ضدّ الكبر الذي محلّه الرّأس والدماغ[2]. ولعلّ هذا السرّ في أنّ القرآن الكريم كثيرا ما يهتمّ بالوجوه في حديثه عن أهل النّار والجنّة في سياق الحديث عن يوم القيامة .

أمّا البداية فكانت بالحديث عن وجوه أهل النّار والشّقاء، مؤخِّرا أهل الجنّة، لأنّ المحْور العامّ للسّورة هو النّار، ابتداء من اسْمها ؛ فمِنْ أسباب هذه التّسمية، أنّها تغشى النّاس بالأهوال والشّدائد أو هي النّار التي تغشى وجوه الكفرة[3]، ولأنّه بدأ السّورة بالحديث عن الغاشية والقيامة، والشّدائد يناسبها خشوع الوجوه، وإرهاقها[4]. كما خَتَمَها بالعذاب الأكبر والحساب. ومن ثمّ فقدْ كانت النّار وأصحابها أساسَ السّورة والأَوْلى بالاهتمام. يقول سيد قطب:" إنّه يعجل بمشهد العذاب قبل مشْهد النّعيم؛ فهُو أقرب إلى جوّ« الغاشية » وظلّها "[5].

وما يُلاحظ في هذا التقابل :

• تكرار﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ في بداية الحديث عن كلّ طرف مقابل. والتّكرار له فوائد في السّورة وتأثيرات على المتلقّي. فهو أوّلا مقدّمة إيقاعيّة تجمع الذّهن ليركّز على ما بعدها ممّا يحمله الموضوع الأوّل وما يتمخّض عنه من أحداث ونتائج ، ويتحفّز الذّهن ثانية في بدء الموضوع الثاني لترقّب خاتمته أيضا [6].

كما أنّه إشْعارٌ بانْفصالِهما تماما؛ وذلك " لتغاير الفريقيْن تغايرا تامّا في جميع الأحوال: كفر، إيمان / صلاح ، فساد / كرامة وسرور، ذلّ وإرهاق / نار حامية، جنّة عالية /عين آنية، عين جارية ..."[7]. وكأنّ الفريقين في يومين اثنيْن مختلفيْن، لا يوم واحد .

---

[1] . ينظر: مفاتيح الغيب ، 31 / 138 .

[2] . ينظر: نفســـه ، 31 / 139 .

[3] . ينظر: نفســـه ، الصفحة نفسها .

[4] . ينظر: المطعي ، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، 1 / 409 ، 410 .

[5] . في ظلال القرآن ، 6 / 3896 .

[6] . ينظر : النسق القرآني ، ص 448 وما بعدها .

[7] . خصائص التعبير القرآني ، 1 / 410 .

ومن جهة أخرى فالمقصود من الاستفهام هو الإعلام بحال المهدّدين وهمْ أصحاب الوجوه الخاشعة . ولمّا تمّ المقصود، جاءت جملة الطّرف المقابل، وهمْ أصحاب الوجوه النّاعمة بعدها مفصولة ، جوابا عن سؤال آخر مقدّر[1].

• أمّا فاصلة الآيات فكانت: « الْغَاشِيَة ... خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ... حَامِيَةً ... آنِيَةٍ ... ضَرِيعٍ ... جُوعٍ ... نَاعِمَةٌ ... رَاضِيَةٌ ... عَالِيَةٍ ... لَاغِيَةً ... جَارِيَةٌ ... سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ... مَوْضُوعَةٌ ... مَصْفُوفَةٌ ... مَبْثُوثَةٌ » .

وهي فواصل غنيّة ثريّة إيقاعا ودلالة، مبنيّة هي الأخرى على التّكرار؛ اختار نهايتَها(التاء المسبوقة بالفتحة) ، وهي في حالة الوقف تُنطق (هاء ساكنة) ، ما أضفى على الآيات انسجاما ونغما موسيقيا يُطرِبان السّامع . خاصّة مع الكلمات المتتالية، المتجانسة ذات الوزن الصّوتي والصّرفي الواحد في بداية السّورة « خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ » .

وبدأت جميعها بمقاطع مفتوحة: « غا ... خا ... نا ... حا ... » ولعلّ في ذلك دلالة على مدى انفتاح العذاب والمشقّة والهوان على أهل الشّقاء، وبالمقابل مدى انفتاح النّعيم والرّاحة والكرامة على أهل السعادة. ومن ثم يُبادر كلّ فريق إلى الصّراخ، لكن شتّان ما بين صراخ الخيبة والخذلان وصراخ الفرح والطّرب .

ولعلّ هذا يؤكّد ما رآه النّقاد المحدثون من أنّ معظم الألفاظ التي تعبّر عن المشاعر يقع في بنائها أصوات اللّين والمدّ، لأنّ لها قابليّة على تحمّل أكبر قدْر من الشّحنات العاطفيّة، ويزداد عدد المدّات مع زيادة انفعال صاحب النّص[2].

أمّا النّهاية فكانت جميعها بالمقاطع المتوسّطة المغلقة، أيْن خيّم الهدوء على الموقف فبلغَ النّصب بالكافرين مبْلَغه ولم يقْووا على الكلام. في حين أنّ المؤمنين يُطلق التّعبير فيهم جوّا من السّكون والهدوء والأمن والسّلام والاطمئنان والودّ والرّضى والسّلام[3]. إضافة إلى أنّ المقامَ مقامُ جدّ وحزم ، وهو ما يناسب الحالتين .

وتميّزت الفواصل بالإيقاع القصير السّريع، فقد ورد مباشرة بعد سؤال سريع في بداية السّورة عن حديث الغاشية . وكأنّه يوحي بسرعة الإخبار عنها؛ ترهيبا ، وترغيبا ، وتقريبا. وكان نقطةِ

---

[1] . ينظر: التّحرير والتنوير، 30 / 298 .

[2] . ينظر: كوليزار كاكل عزيز، دلالات أصوات اللّين في العربيّة ، دار دجلة ، ط1 ، 2009 ، ص 113 ، 114 .

[3] .ينظر: في ظلال القرآن ، 6 / 3897 .

ارْتكـــازِها ألف المدّ التي يخلو مجرى الهـــواء عند النّطق بهـــا من حوائل وموانع وتعدّ أطول الصّوائت والصّوامت زمنا، وأشدّها وضوحا في السّمع [1]. ولأصوات المدّ طـــاقاتٌ صوْتيّة وأهميّة كبرى بمـــا تملكه مـنْ قوّة إسْماع عـــالية تفوق قوّة إسماع الصّوامت بكثير، وهـــي وسيلة لربط سلسلة من الصّوامت في أثنـــاء الكلام، وهي تعطي الصّوامت التي تكتنفها في الكلام قدرة على الإسماع[2].

وأمّا الفرْق الإيقاعيّ فيظهر في ما يلي:

الطّرف الأوّل: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾ الغاشية: 6 ــ 7.

الطّرف الثّاني: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾ الغاشية: 13 ــ 16.

فكلّ منْهما تميّز عن إيقاع سابقِه، وفي التّنوّع كسْر للرّتابة، ودفْع للمَلَل، وتبايُنُ الطّرفين، وفي الوقت نفْسِه تعبيرٌ عمّا يلائم كلَّ معنى .

أمّا الظّاهرة الصّوتيّة البارزة في الطّرف الثّاني من التّقابل فهي التّكرار؛ في الوزن الصّرفي، في المقاطع، في الفاصلة، في الأصوات، وأيضا في الحركات، إلى جانب التّوازن. فقدْ تشكّلت كلّ كلمة من ثلاثة مقاطع متوسطة؛ مُغْلَقيْن (ص ح ص) يتوسّطهما مقطع مفتوح (ص ح ح) ما جعل المقاطع متباعدة، والفواصل متآلفة داخليّا، متناغمة خارجيّا مع شبيهاتها.

ولعلّ ما يُفسّر غلبة المقاطع المغلقة هو مقام الصّرامة والجدّ والحسْم والحزْم، ذلك أنّ القرآن الكريم استخدم المقاطع المغلقة التي تنتهي بالسّكون الجازم في هذه المقامات وأمثالها[3]، التي يجني فيها المرْءُ حصائد أعْمالِه في الحياة الدّنيا، فيُفلح أو يَخْسر.

ومن جهة أخرى، فقد بدأت كلّ فاصلة بصوْت « الميم » المضمومة، وهي أكثر الأصوات السّاكنة وضوحا[4]، ومن الأصوات المجهورة المتوسطة، لا هو بالشّديد ولا هو بالرّخو[5]. ولها قوّة إسماع قريبة من قوّة إسماع أصوات المدّ[6]. ولعلّ هذه الخصائص الصّوتيّة توحي بوضوح

---

[1] . ينظر: إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغويّة ، ص 27 .

[2] . ينظر: غالب فاضل المطلبي ، في الأصوات اللغويّة دراسة في أصوات المدّ العربيّة ، ص 45 .

[3] . ينظر: أحمد أبو زيد ، التناسب البياني ، ص 321 ، 322 .

[4] . ينظر: الأصوات اللغويّة ، ص 28 .

[5] . ينظر: المرجع نفســه ، ص 48 .

[6] . ينظر: في الأصوات اللّغويّة دراسة في أصوات المدّ العربيّة ، ص 46 .

المؤمنين واعتدالهم وعدْم انحرافهم عن الفطرة الإنسانيّة. إضافة إلى أنّهم أحقّ بالسّماع وتلبية الرّغبات، وبالتّنويه بشأنهم، إكراما لهُمْ على ما عملوه .

كما أنّ تكرار« الواو» خمس مرّات، وهيمنتها على بقيّة الأصوات في الآيات، وبتوزيع منتظم، وبما فيها من جهْر وقوّة وامتدادِ صوْتٍ، وقد ساندتْها كثرةُ الضّمّات، منْها ثلاث متتالية في« سُرُرٌ» ...

ولعلّ في إيقاع الطّرف المقابل إثباتٌ لذلك؛ حيث نجد الفاصلتيْن « ضَرِيعٍ ... جُوعٍ »، انتهتا بمقطع طويل مقفل، حادّ حِدّة الموقف، جادّ جِدّ العذاب، زاده المدّ بالياء في « ضَرِيعٍ » صاحب هذا الأكل دلالةً على انكسارا [1].

كلّ هذا ساهم في الإيقاع الصّوتيّ العذْب للآيات، وعرّف بحقيقة كلّ صنْف من النّاس في الآخرة ومآله، ودلّ عليه؛ مكانةً وراحةً وتنعّمًا من جهة، واحتقارا وذلّا وانكسارا من جهة أخرى.

وهكذا مثّلت كلّ آية نغمة مستقلّة، منْسجمة دلالةً مع مجموعةِ الآياتِ شبيهاتِها إيقاعا عن طريق الفواصل والأوزان الصّرفيّة والمقاطع، فانقسمت السّورة إلى مجموعات إيقاعية ودلاليّة جزئية .

وفي الوقت نفسه تتشابك هذه المجموعات المتنوّعة وتنْسجم انسجاما أكبر، لتُلقي بظلالها على السّياق العام. فالقرآن الكريم ـ كعادته ـ " يتشكّل تحت أشكال إيقاعيّة متنوّعة، غنيّة، متجدّدة، متفاوتة النّفس، متمايزة النّغم"[2]. لكنّها متناغمة جميعا إيقاعا ودلالة .

فهذه الظّواهر الصّوتيّة البارزة من توازن وتجانس وتماثلٌ صوتيّ وانتظام، وتناسُبٌ دلالي عن طريق التّقابل بين حالتيْ من الوجوه، جعل من آياته متنوّعة إيقاعا، ثريّة، متناسقةً متشابكةً ، مُشعّةً بمعانيها، موحيةً بدلالاتها ... أساسُ تشكيلِها وهندستها هو التّكرار. " فالدّور الإيقاعيّ الذي تؤدّيه الدّالات المتكرّرة ضمن السّياق ينتهي عادة، بإيحاءات موضوعيّة تنتج دلالات مختلفة في النّص"[3]. ما يبيّن أنّه عنصر قويّ وفعّال في تشكيل إيقاع السّورة وتحقيق الجماليّة وتكثيف دلالاتها، وتماسك أجزائها. فبنية التّكرار تُولّد الدّلالة، كما تُولّد الإيقاع .

[1] . ينظر: أحمد أبو زيد ، التناسب البياني ، ص 325 .

[2] . عبد الملك مرتاض، نظام الخطاب القرآني، تحليل سيميائي مركّب لسورة الرحمن، دار هومة ، الجزائر، 2001 ، ص267.

[3] . فايز القرعان ، تقنيات الخطاب البلاغي ، دراسة نصيّة ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ط1، 2004 ، ص143 .

3 ـ التّقابل والتوازن :

التّوَازُنُ مصدر تَوَازَنَ، وهو من مادّة (وزن). وقد ورَد فيها: قام ميزان النّهار، أي منتصف، ووزنت الشيءَ وزنا وزنة... وهذا يُوازن هذا إذا كان على زنته أو كان محاذيه[1]. ووَزَنَ الشِّعْرَ وَزْناً فاتَّزَن ، ووازنت بين الشّيئيْن موازنة، والميزان العدل، ووَازَنَه بمعنى عَادَلَه وقَابَلَه[2] وحاذاهُ [3].

فالتّوازن يحمل معنى التّساوي والتّعادل والمحاذاة مع التّقابل، ذلك لأنّ الطّرفين المتساوييْن أحدهما يقابل الآخر. ولعلّ ما يوضّح ذلك أنّ هذا التّوازن يظهر أكثر في الشّعر لأنّ الشّطرين متساويان في الوزن .

ومنه فإنّ دلالة التّوازن تفيد معنيين متكاملين هما: المعنى الإيقاعي بما تدلّ به عامّة على التّكرار المتعادل للوحدات الصّوتية. وتفيد معنى التّناظر بين الصّيغ الإيقاعيّة ما يجعل التّوازنات الصّوتيّة تحقّق غايتها المنشودة ، فتظهر العناصر الإيقاعيّة في النّص ...[4].

أمّا اصطلاحا فلِلتّوازن تعريفات مختلفة :

من ذلك ابن أبي الإصبع المصري(ت645 هـ) له مصطلحان؛ إحداهما: (المماثلة) واشترط فيها الوزن، وعرّفها بقوله: " هي أنْ تتماثل ألفاظ الكلام، أو بعضها، في الزإنة دون التإقفية "[5].

وثانيهما:(الموازنة): واشترط فيها الوزن والتّعادل في السّجع غالبا، وعرّفها بقوله:" وهو أنْ تأتي الجملة من الكلام أو البيت من الشّعر متّزن الكلمات، متعادل اللّفظات في التّسجيع والتّجزئة معا في الغالب " [6].

وقد جعل أبو هلال العسكري(ت395هـ) التوازن من ألوان السجع و جَمَع بينهما. حيث يقول:" والسّجع على وجوه: فمنْها أنْ يكون الجزآن متوازنيْن مُتعادليْن، لا يزيد أحدهما على الآخر، مع اتّفاق الفواصل على حرف بعينه "[7].

---

[1] . ينظر: الجوهري ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة ، 6 / 2213 .

[2] . لسان العرب ، مادة (وزن) ، 13 / 446 .

[3] . الفيروزآبادى ، القاموس المحيط، إشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط8 ، 2005 ،1 / 1238.

[4] . ينظر: سعيد العوادي ، حركية البديع في الخطاب الشعري ، ص 121 .

[5] . ابن أبي الإصبع المصري ، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، ص 297 .

[6] . نفســـه ، ص 386 .

[7] . أبو هلال العسكري ، الصناعتين العسكري الكتابة والشعر، ص 262 .

ومنْه فإذا كان للتّوازن عند القدماء تسميات مختلفة كالمماثلة والموازنة والمناسبة وغيرها... فإنّهم اتّفقوا في أنّه تعادل وتساو بين أجزاء الكلام، مع اختلاف في اتّفاق الفواصل وعدمه. وهو ما أشار إليه أحدهم في العصر الحديث، رابطا إيّاه بالتّقابل حين عرّفه بقوله:" هو تماثل أو تعادل المباني أو المعاني في سطور متطابقة الكلمات، أو العبارات، قائمة على الازدواج الفنّي وترتبط ببعضها، وتسمّى عندئذ بالمتطابقة أو المتعادلة، أو المتوازية أو المتقابلة"[1]. ولعلّه يشير إلى أنّ تماثل المباني وتعادلها إذا صاحَبَه تقابل المعاني يكون أفضل وأجمل في الكلام .

فالكلام المتوازن ـ إذن ـ هو ما كانت جملُه مقطّعةً تقطيعا متساويا، تتّفق في البناء النّحوي، وتنتهي بِحرْف واحد غالبا. ومنْ ثمّ فهو" في كثير من ألوانه تعادل وتماثل. فهو تعادل بالنّظر إلى ما فيه من وزْن صرْفي أو عروضي، وتماثل بالنّظر إلى ما فيه من مساواة الجزأين أو الأجزاء المتوازنة في التّقفية " [2].

والتّوازن أحدُ ظواهر التّعبير في اللّغة العربيّة، ولقد كان القدماء على وعْي به، وله وجود ملحوظ في كلامهم، فقدْ تطرّق إليه النقاد والبلاغيون، وتفطّنوا إلى قيمته. كما تفطّن ـ أيضا ـ المحْدثون إلى هذه القيمة، واهتموا به، ولعلّ أوّل مَن أولى إيقاعه أهمّية كبيرة في الدّراسات المعاصرة هو جاكبسون[3]. ولعلّ هذا ما جعل المتكلّم منْهم يلجأ إلى زيادة حرف أو حذفه أو تغيير صيغةِ كلمةٍ طلَبًا للموازنة بيْن شطريْ الكلام، وبين الألفاظ، " فالعرب تزيد وتحذف حفظا للتّوازن، وإيثارا له"[4]؛ لأنّ الكلام إذا تعادل شطراه كمّا ووزنا، جاء في غاية الحسن، وكان وقْعُه على الأذُن مؤثّرا .

ففي توازن الجمل تشابهٌ أجزائها وانْسجامها وانتظامها وتساويها وتناسقها... وكلّها عناصر جماليّة، خاصّة أنّ للتّوازن طاقاتٍ وقدرات على ضمّ مجموعة من المحسّنات البديعيّة في الكلام الواحد، فهو يمتلك " كفاءة عالية في تنسيق جملة من المصطلحات البديعيّة التي تشترك معه في المعطى الإيقاعي"[5] مثل السّجع والتّجانس والتّكرار، والمعطى الدّلالي كالتّقابل وغيره . من

---

[1] . عبد الواحد حسن الشيخ ، البديع والتوازي ، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنيّة ، ط1 ، 1999 ، ص 24 .

[2] . محمد الواسطي ، ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين ، ص 257 .

[3] . ينظر: محمود المصفار، سيميائية القرآن بين الحجاج والإعجاز ، ص 205 .

[4] . أبو منصور الثعالبي ، فقه اللغة وسرّ العربيّة ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي ، إحياء التراث العربي ، ط1، 1422هـ ، 2002م ، ص231 .

[5] . سعيد العوادي ، حركية البديع في الخطاب الشّعري ، ص 122 .

ثمّ له قدرة على استيعابها جميعا وبشكل فنّي، فهو وسيلة نقديّة لا تهتمّ بذلك التّصنيف البلاغيّ المفصّل لأنواع البديع ومصطلحاته المتشابكة ، ولكنّها تهتمّ بالتّوزيع والتّنسيق الصّوتيّ واللّفظيّ والإيقاعيّ في الكلام[1]. وهو ما يصعّد من شحناته الإيقاعيّة المؤثّرة ، ويفعّل إنتاج الدّلالة . ومن ثمّ "فالتّوازن مكوّن إيقاعيّ ديناميّ"[2].

وهو ما استغلّه القرآن الكريم أيّما استغلال؛ فكما اهتمّ بالتّقابل وبَنَى بعضَ سُوَره عليه، فإنّه أيضا اهتمّ بالتّوازن وبنى بعضَ سُوَره عليه، فكان كثيرا جدّا، وخاصّة في الرّبْع الأخير. من ذلك أنّ بعض السّور بدأت به مثل: الصّافات، الذاريات، الطّور، المدّثر، المرسلات، النّازعات الانفطار... وبعض السُور بُنيت عليه مثل: التّكوير، الشّمس... إضافة إلى وجوده في ثنايا الكثير من السّور.

وقد اخترنا ثلاثة أمثلة للتّحليل هي :

• **المثال الأوّل :**

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ المعارج 19 – 21 .

يُمكن تقسيم الآية إلى قسميْن :

• القسم الأوّل: وهو يمثّل المقدّمة: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ ﴾.

بدأ بمقدّمة مؤكَّدة بـ (إنّ) تُقدِّم حقيقة جُبِل عليها الإنسان، مفادها أنّه:﴿ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾، والهلَعُ هو قلّة إمْساك النّفس عند اعتراء ما يُحزنها أو ما يسرّها أوعنْد توقّع ذلك والإشفاقِ منه. وبعْضُهم فَسَّر الهلَع بالشّره، وبعضهم بالضّجر، وبعضهم بالشّحّ، وبعضهم بالجوع، وبعضهم بالجبْن عند اللّقاء.وهي جميعها آثارٌ لِصِفَةِ الهلَع[3]، وتعكس انْفتاح الكلمة على مختلف الدّلالات.

• القسم الثّاني: وهو يمثّل النّتيجة وهي:﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾

ولمّا كانت آثار الهلَع متنوّعة بتنوّع حالة الإنسان، فقد فُسّرت هذه الآثار بنتيجة ذات قسمين يقيّدهما شرطُ ما أصاب الإنسان؛" إذا ناله شرّ أظهر شدّة الجزع، وإذا ناله خير بخل به ومنَعه

[1] . ينظر: محمد صالح الضّالع ، الأسلوبيّة الصّوتيّة ، دار غريب ، القاهرة ، د ت ، د ط ، ص 46 .

[2] . حركيّة البديع في الخطاب الشعريّ ، ص 122 .

[3] . ينظر: التحرير والتنوير، 29 / 167 .

النّاس"[1]. والقسْمان متقابلان؛ فالجزع وعدم الصّبر عند الشّرّ، من مرَض وفقْر وغيرها، والمَنْع عنْد المَنْحِ، من صحّة وغنى، وكلّ ما ينفع الإنسان ويلائم رغباته[2]. وهما حالتان تعكسان طبيعة الإنسان المتوازنة والمتقلّبة في الوقت نفسه .

ومن جهة أخرى، فالآيتان المتقابلتان بينهما توازنٌ :

﴿ إِذَا + مَسَّهُ + ٱلشَّرُّ + جَزُوعًا﴾ و ﴿ وَإِذَا + مَسَّهُ + ٱلْخَيْرُ + مَنُوعًا﴾ المعارج:20 و 21.

فهُمَا متماثلان شكْلا إلى حدّ كبير عن طريق:

ـ بنْيَة أسلوب الشّرط .

ـ التّكرار: « إِذَا ، مَسَّهُ ، صيغة فعول » .

ـ توحيد الفاصلتيْن .

فهُمَا متوازنان توازُنا تامّا، متساويان نحْويّا، ما جعَلَهُما في غاية الانتظام الذي هو سرّ جمال الكلام . يقول محمد قطب إنّ " أوّل ما يلفت في الجمال أنّه نظام . ولهذا النّظام مظاهر متعدّدة، منها الدّقة والتّوازن والتّرابط وخفّة الحركة "[3]. لكنّهما مختلفان متباعدان دلالةً إلى حدّ كبير أيضا. ففي الآية " جمالياتُ جمعِ متفارقات الحياة "[4]، وأساس هذه المتفارقات هما الثّنائيتان : « الشَّرُّ والْخَيْرُ / جزوعا ومنوعا » .

فالتّقابل مبنيّ على تماثل صوْتي محض بين الكلمات المكرّرة ، وتماثل صوْتي جُزئي بين الكلمات المتضادّة ، فتنوّعت الآيتان بين المماثلة والمخالفة؛ الصّوتيّتَيْن والدّلاليّتيْن. وفي هذا التّشابه الجزئيّ نوع من المناسبة سوّغت الجمْع بينهما، وإيهامٌ للمتلقّي وعكْسٌ لتوقّعه، وإيقاع منْسَجم جميل يستلذّه، فتهيّأ لها الإيقاع الثّريّ، والدّلالة المكثّفة، والرّبط المتين ... ما جعلها متميّزة . يقول الطرابلسي:" والمقابلة يقل حظّها من النّجاح إذا قلّ إحكام الازدواج بين المتقابليْن فيها، فلئن كانت المقابلة عُنْوان حركة ، فإنّ الحركة ذهنيّة كانت أم ماديّة بمفعول الموسيقى تنتظم"[5]. وهذا كلّه يخلق تأثيره الإيجابيّ على المتلقّي.

---

[1] . ينظر: السابق ، 29 / 167.

[2] . ينظر: السابق ، 29 / 170 .

[3] . محمد قطب ، منهج الفن الإسلامي ، دار الشروق ، بيروت ، ط 6 ، 1983 ، ص86 .

[4] . راوية يحياوي ، شعر أدونيس البنية والدلالة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، سلسلة (1) ، 2008 ، ص63 .

[5] . محمد الهادي الطرابلسي ، خصائص الأسلوب في الشّوقيات ، منشورات الجامعة التونسيّة ، د ط ، 1981 ، ص 126.

إضافة إلى التّقابل والتّوازن، نجد الفواصل الثّلاث التي وردَتْ متناغمة « هَلُوعًا، مَنُوعًا، جَزُوعًا»، حيث تشكّلت كلّ واحدة من مقطع قصير ومقطعيْن متوسّطيْن مفتوحيْن متتاليين، تخلّلها مَدّان متتاليان أيضا بـ « الواو وبالياء ». ما يجعلها ذات جماليات صوتيّة من جهة ومتناسبة مع معاني الآيات من جهة أخرى، فقد" يتكرّر صوْت وفي تكراره تصويرٌ للموقف وتجسيمٌ وإيحاء بما يدلّ عليه"[1]. فهي مقاطع وأصوات تعبّر عن مدَى انفتاح وتوالي وامتداد الهلع في الإنسان والجزع عند الشّر والمنْع عند الخيْر فيه؛ " فهُو يتأرْجح ويهتزّ وتتناوبه الرّياح، ويبيت في قلق وخوف دائم، سواء أصابه الشّرّ فجزع، أم أصابه الخير فمَنَع"[2]. ولعلّ ما يؤكّد هذا الانفتاح والامتداد في الهلَع والقلق والخوْف هو التّعبير بصيغة « فعول » الدّالّة على التّكثير والمبالغة .

وهكذا فقدْ أدّت الفاصلة دوْرا جماليّا ودلاليّا؛ من خلال ربطها بين المقدّمة (الآية:19) والنّتيجة (الآيتان: 20 ، 21) دلاليّا، وما دلّت عليه مِنْ معانٍ وإيحاءات من جهة ، وربْطها بين الآيات الثّلاث إيقاعيّا من جهة أخرى .

فكانت الآيات منْسجمة فيما بينها، منْفردة دلالةً وإيقاعا عنْ سابقها ولاحِقِها. لكنّها في الوقت نفسه تُمثّل نتيجة تؤكّد حقيقةً قبْلَها، وتُمَهّد لِما بعْدها. ومنْ ثم فهي جزء مستقلّ بذاته في البنْية والإيقاع والدّلالة، لكنّه غير منفصل عن سياقه العامّ. لأنّها نقطة ارتكاز السّورة كلّها، وعليها يُسلّط التّعبيرُ الضوْءَ. ومن ثمّ فقد ورد بعدها استثناءٌ شمل جزءا كبيرا من السّورة إلى غاية قوله تعالى:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥ ﴾الآية:35 ، وهم الذين خرجوا عن الحُكم فلمْ يتّصفوا بالهلَع والجزع والمنْع .

[1] . الكواز، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ، ص 328.

[2] . في ظلال القرآن ، 6 / 3699 .

• **المثال الثاني** :

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤﴾ الانفطار13،14.

هاتان الآيتان توسّطتا سورة (الانفطار) بفكرة هي" استئنافٌ مسوق لبيان نتيجةِ الحفظِ والكتابِ من الثّوابِ والعقابِ"[1]. وبنا عرى ذلك ورَد التّقابل؛ لأنّ أصحاب الثّواب في نعيم، وهم الأبرار، وأصحاب العقاب في جحيم، وهم الفجّار. وهو استئناف يُشكّل إيقاعا مستقلاّ عن طريق التّوازن بين طرفيْ التّقابل من جهة، وعن طريق التّكرار« إنَّ ، لَفِي، صيغة فعيل »، والفاصلة الواحدة من جهة أخرى. ما يزيد في الرّبط الإيقاعيّ بين الآيتين، ويُدعّم الرّبط المعْنويّ، ويوحي بقيمة وأهميّة الفكرة وضرورة الانتباه إليها،" حيث يمثّل التّوازن الإيقاعيّ وسيلةَ ربْط موسيقيّة تُوحّد بين العنْصرين المتوازييْن، أو في أقلّ تقدير يكون اللّجوء إلى التّوازن الإيقاعي عاملا لِلَفت انتباه المتلقّي يؤدّي إلى جذبه، أو وصْله بالنّص المُلقى"[2]. ولعلّ ما يُثبت قيمة هذا النّص وهذه الفكرة هو تأكيدها بمؤكّدين « إنَّ واللام » .

وما يلاحظ : أنّ التّوازن بين الطّرفيْن كان تامّا بقدْرٍ كبيرٍ:

﴿ إِنَّ + ٱلۡأَبۡرَارَ + لَفِي + نَعِيمٖ ١٣

وَإِنَّ + ٱلۡفُجَّارَ + لَفِي + جَحِيمٖ ١٤﴾ .

كلّ عناصره متساوية نّحْوًا، ووزْنًا، وصيغةً صرْفيّةً، وكأنّهما شطرَا بيتٍ. وهي أعْلى درجات التّوازن الصّوتيّ، حيث إنّه يكون على مستوى التّركيب لا المفردة[3]. وهو إيقاع يُؤنس أذُنَ المتلقّي ويُطرب نفسه، يؤثّر فيه، فيرتاح للأبرار ويفرح بالنّعيم، وبالمقابل يَقلق للفجّار ويَحزَن بالجحيم. كلّ هذا مصْدَرُه التّوازن والاعتدال، يقول ابن طباطبا:" وعلّة كلّ حُسْن مقبول الاعتدالُ، كما أنّ علّة كلّ قبيحٍ منفيٍّ الاضطراب "[4].

فقدْ سِيق هذا التّقابل المتوازن هنا دليلا وحجّة على المشركين، وردّا على إنكارهم للبعث، وفي سياق الحديث عن القيامة عامّة. فتوسّط المقاطع التي تتناول ذلك . كما سبق ـ وانفرد عنها

[1] . أبو السعود ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د ط ، د ت ، 9 / 122 .

[2] . جمعان بن عبد الكريم ، إشكالات النّص ، دراسة لسانية نصية ، النادي الأدبي بالرياض ، والمركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط1 ، 2009 ، ص 418 .

[3] . ينظر: جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية للكتاب، د ط ، د ت، ص126.

[4] . ابن طباطبا ، عيار الشعر ، تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د ط ، د ت ، ص 21 .

إيقاعا، وتميّز دلالة فكان محطّة رئيسة ونقطة ارتكاز هامّة في السّورة ، ذلك لأنّ كلّ إنسان سيكون مصيره في النعيم أو الجحيم، أي من الأبرار أو الفجّار. لكن تركيز السّورة كان على الفريق الأخير، لأنّها تدور حولهم، حيث أنّ من أغراضها: إثبات البعث، وذكر ما يتقدّمه من أهوال. وإيقاظ المشركين للنّظر في الأمور التي صرفتهم عن الاعتراف بتوحيد الله تعالى وعن النّظر في دلائل وقوع البعث والجزاء[1]. ومن ثمّ جاءت لمسة العتاب المبطّنة بالوعيد، للإنسان الذي لا يعرف للنّعمة، ولا لربّه حقّهما، ويكذّب بالحساب . وجاء تصوير ضخامة هذا اليوم وهوله، وجاء توكيد الحساب، وتوكيد عاقبة الإنسان وجزائه المحتوم[2]. ولعلّه السّبب الذي جعله يقدّم ذكر الأبرار ليتّخذ بعدهم الفجّار حديثا لبقيّة السّورة، إضافة إلى التّنويه بشأنهم والرّفع من أهل النّعيم .

ومن ثمّ لعلّنا نستطيع أنْ نقرّر أنّ فكرة هذه الآية ذات التّقابل والتّوازن، هي الرئيسة والمحوريّة في السّورة ، ولعلّ ما يثبت ذلك هو إيقاعها المميّز؛ لأنّ من بين أبعاد الكلمات المفاتيح في النّص الإيقاع إلى جانب الصّورة والتّركيب [3].

كلّ هذا في سياق واحد ذي الأفكار المتشابكة والإيقاع المتنوّع . يقول أحدهم :" إنّ البنية النّسقيّة المتوازنة والمتلائمة في أسلوب التّقابل بنية نسقيّة مندمجة الأجزاء في سياق قائم على التّناظر في الشّكل ومتفاعل مع الدّلالة . فما تكاد تلتقي حتّى تفترق على التّضاد أو على التّشاكل لتخلق لذّة جماليّة مفاجئة ومثيرة ، وهي تنتقل من أسلوب نسقي إلى آخر لتحدث في النّفس قبْضا وبسْطا هيبة وأنْسا خوْفا ورجَاء "[4].

[1] . ينظر: التحرير والتنوير، 30 / 170 .

[2] . ينظر: في ظلال القرآن ، 6 / 3845 .

[3] . ينظر: يوسف أبو العدوس ، الأسلوبية الرؤية والتطبيق ، دار المسيرة ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2007 ، ص 203.

[4] . حسين جمعة ، التقابل الجمالي ، ص 153 .

• **المثال الثالث :**

يقول تعالى : ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ الشّمس: 1 – 10.

سورة (الشّمس) في مجملها مبْنِية على التّقابل المتكوّن من ثنائياتٍ تمثّل مظاهر الكون، وطبيعة النّفس البشريّة، ومبنيّة على التّوازن المتكوّن من آيات قصيرة متساوية . ومن ثمّ فهي متقابلات متتاليات متوازنات شكّل جميعُها قسَما بدأت به السّورة .

وفي هذا تشويق لما سيأتي بعده. "والقسم أسلوب تركيبيّ مهمّته لفْت الانتباه لما سيأتي من تقرير للأخبار والأحداث، والجمل التّالية له تحقّق له الأهميّة والأهليّة "[1]. ومن ثمّ فهو جدير بهذه الصّفات، وبمُهمّة الإقناع .

وكما هو معلوم أنّ أسلوب القسم يتكوّن من قسميْن هما :

• المقسم به: وقد ورد من الآية1 إلى الآية8 :﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ ﴾ .

• جواب القسم : وتَمَثّل في الآيتين9 و10: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ .

ولا شكّ أنّ ما أقسَم به القرآن الكريم من مظاهر كونيّة وغيرها معظّم عند الله ــ سبحانه وتعالى ــ، وهو بالتالي يُعبّر عنه ويعكس عظمته وقدرته. لذلك ما سيأتي بعده هو أيضا أمْرٌ مهمّ وخطير وعظيم يتشوّق إليه السّامع. ولعلّ ما أكّد ذلك، وما زاد في أهميّته وتشويقه لِمَا سيأتي بعده وأهميّة هذا الأخير هو كثرةُ المقْسِم به وتنوّعُه وعظمته. ففي القَسَم الصّريح يُقصد لفْظ المقْسَم به ويُراد،كما يُقْصَد جوابُه لأمور بلاغيّة أو تعظيميّة[2].لأنّهما مرتبطان شكْلا ومضْمونا .

وقدْ سانَد هذا التّقابلَ الدّلاليّ في أسلوب القسم توازنٌ صوْتيّ ورَدَ بأربعة أنماط هي:

• النّمط الأوّل: الواو + المقسم به + اسم + الضمير (الهاء) .

[1] . سامي شهاب أحمد ، النقد الأدبي الحديث قضايا واتجاهات ، دار غيداء ، الأردن ، ط 1 ، 2013 ، ص 169.

[2] . ينظر: السّامرائي ، معاني النحو ، 4 / 159 .

وقد ورَدَ في الآية1، فقط: ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ ﴾، فانفرَدت عن بقيّة الآيات بنمَط مستقلّ، رغْم ارتباطها بها دلاليّا، وشكّلت بالتّالي انطلاقة إيقاعيّة .

• النّمط الثاني: الواو + المقسم به + إذا + فعل ماض + المفعول (الهاء) .

وقد وردَ في ثلاث آيات (2،3،4): ﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿٤﴾ ﴾. وقد عبّر بالمضارع مع اللّيل، وبالماضي مع النّهار.

وقد أرْجع أبو حيان ذلك إلى داع جماليّ، وهو المحافظة على إيقاع الفاصلة لأنّها ألف وهاء المؤنث، فالتّعبير بالماضي «غَشِيَهَا» يُفَوِّت الفاصلة، وهي مقصودة [1]. وهو رأي وإنْ كان فيه جانب من الصحّة إلاّ أنّه غير كامل، ذلك لأنّ القرآن الكريم ـ وإن كان يهتم بالجماليّة ـ فإنّها لا تكون على حساب المعنى. ولعلّ السرّ في ذلك هو أنّ اللّيل يغشى شيئا فشيئا، أمّا النّهار فإنّه إذا طلعت الشّمس ظهر وتجلّى مرّة واحدة [2].

النّمط الثالث: الواو + المقسم به + ما + الماضي مع المفعول .

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾. ولم يحافظ على هذا التّوازن في الآية (7) تجنّبا للتّكرار المُمِلّ، وتنويعا في الإيقاع، وإكمالا لمعنى الآية التي سبقتها .

النّمط الرابع : قد + فعل ماض + مَنْ + الماضي مع المفعول .

وقد مثّل جواب القسم، ووَرَدَ في الآيتين:9 و10:﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ وهو جواب يقرّر هنا ـ دلاليًّا ـ حقيقةً تظهر كما يلي:

• إنّ ما يريد إبرازه وتقريره ـ تعالى ـ في هذه السّورة هو أنّ المُفلح مَنْ زكّى نفسه، والخائب مَنْ دسّاها ـ كما ورَدَ في الجواب ـ . وهي حقيقة متّصلة بالعقيدة ذات اتّجاهيْن مختلفيْن متقابليْن تمثّل جوابا لقسَم قبْلَها، ما يؤكّدها ويجعلها هامّة،" فإنْ سبَق الكلام بقسَم صريح كان آكد لأنّك بدأت بذكر ما تعظّمه"[3]. إضافة إلى تأكيدها بالحرف (قد)، وكثرة المقْسم به ـ كما سبق ـ وعَظَمَته .

[1] . ينظر: أبو حيان ، البحر المحيط ، 8 / 473 .

[2] . ينظر: السامرائي ، على طريق التفسير البياني ، 1 / 136 ، 137 .

[3] . ينظر: السامرائي ، معاني النحو ، 4 / 159 .

• اختار لهذه الحقيقةِ حقيقةً أخرى كونيّة من المظاهر المتقابلة فيه، غرضُها تبْيين قدْرة الله تعالى الصّانع القادر وعظمته، وترسيخها في ذهن الإنسان .

• وحقيقة ثالثة في الإنسان نفسِه، وهي قدرة النّفس على الفجور والتّقوى، وعلى الخير والشّرّ كليْهما. فهُو مخلوق مزدوج الطّبيعة، مزدوج الاستعداد، مزدوج الاتّجاه، فهو بطبيعة تكوينه مزوّد باستعدادات متساوية للخير والشّرّ، والهدى والضّلال، وقادر على التّمييز بينهما. كما أنّه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشّرّ[1]. فالإنسان يحْمل في نفسه هذه المتقابلات التي تجعله يحدّد مصيرَه بنفسه؛ خيرا أو شرّا، وهدى أو ضلالا، أي بالتّزكية والفلاح وبالتّالي الجنّة أو التّدسية والخيبة، وبالتّالي النّار.

وهي نتيجة تمثّل جوابا للقسم، على الإنسان أنْ يفصل بين شطْرَيها ويختار أحدَهما. ورَدَ في (البحر المحيط):" أقسَم هنا بشيء من العالم العلْويّ والعالم والسّفليّ، وبما هو آلة التّفكّر في ذلك، وهو النّفس. وكان آخر ما قبلها مختتماً بشيء من أحوال الكفار في الآخرة، فاختتم هذه بشيء من أحوالهم في الدّنيا،وفي ذلك بمآلهم في الآخرة إلى النّار،وفي الدّنيا إلى الهلاك المستأصل "[2].

فكانت حقائقَ ظاهرةً معروفةً ملموسة تُظهر حقائق أخرى باطنة خفيّة، وتدلّ عليها، وتُبرْهِن على وجودها ليقتنع بها النّاس. ومن ثمّ فإنّ مظاهر الكون هنا وسيلة للبرهنة على ما تلاها من أفكار ومعانٍ لأجل الاقتناع والإيمان بها، والعمل لأجلها. وهو المقصود من جواب القسم .

والآيتان متقابلتان دلاليّا، متوازنتان صوتيّا توازنا تامّا، حتى أنّه تجنّب تكرار صوْت « السين» ثلاث مرّات متتابعة،" فأبدل من ثالث المضاعفات حرف علّة"[3]، مراعاة للتّقابل وللتّوازن، لأنّ « دَسّاها» أصلُها « دسَّسَها»[4].

فانفردت الآيتان عن بقيّة آيات السّورة دلاليّا،كونهما تشكّلان جوابا لقسم، إلى جانب الإيقاع ـ من حيث كونها نمطا مستقلّا ـ .وهو ما يبيّن أنها ذات فكرة رئيسة ومحوريّة في السّورة، كالتي سبقت في المثال الأوّل من سورة الانفطار .وهو ما أرادت السّورة تبليغَه والوصولَ إليه.

---

[1] . ينظر: في ظلال القرآن ، 6 / 3917 .

[2] . البحر المحيط ، 8 / 473 .

[3] . نفســه ، 8 / 472 .

[4] . أحمد أبو زيد ، التناسب البياني ، ص 302 .

إلّا أنّ هذا الانفراد ليس كلّيا لارتباط الجواب بقسمه، ولارتباطهما ببقيّة فاصلة الآيات. فجمعَتْ بالتّالي بين الاستقلال الدّلاليّ والإيقاعيّ، وفي الوقت نفسه الاندماج مع سياق سورتِها.

فللتّوازن طاقاتٌ صوتيّة وتعبيريّة هامّة استمدّها من انتظام أجزاء الكلام الذي يتضمّنه وتشابهها وانسجامها وتناسق أصواتها، والتّوافق التّام في البناء النّحوي ، وفي عدد الكلمات... الأثر الصّوتي للتّوازن لا يقف عند حدود الكلمة ، بل يتعدّاها إلى النّص عن طريق إحداث اتّساق صوتي بين بعض الجمل[1].

وهي أنماط ـ كما رأينا ـ متنوّعة جعلتْ الإيقاع متنوّعا، غير ثابت؛ فالإيقاع يتحقّق بالتغيّر، ويستمدّ طاقته منه. وفي الوقت نفسه يُكسِبُ هذا التغيّر السّورة انسجاما وتناسبا صوتيّا يُظهِرها بنيةً جماليّة متماسكة .

وقد عزّزت إيقاعَ التّوازن الفاصلةُ الموحّدة ومجموعة من التّكرارات. فقَدْ بُنيَت السّورة من أوّلها إلى آخرها على فاصلة منتهية بـ « الهاء الممدودة » . والصّوت الممْدود له أثره على الأذن والنّفس. فالآيات تتحدّث عن مكنون النّفس البشريّة بطريقة توحي بالتفجّع والتحسّر أو تومئ بالارتياح والطمأنينة[2]. فالتّماثل في نهايات الآيات قسّم السّورة إلى وحدات صوتيّة منتظمة أكّدت تقسيمَها الدّلالي التّقابلي، وأضفت عليها قيمة جماليّة .

وقد تكرّر « القسَم » في الآيات السبع الأولى، و« إذا » في الآيات:2،3،4 . و« ما » وقد وردت هي الأخرى ثلاث مرات في الآيات:5 ، 6 ، 7. والتكرار يخضع لقانون التّوازن. ففي كلّ عبارة طبيعيّة نوْع من التّوازن الدّقيق الخفيّ الذي ينبغي المحافظة عليه في الكلام، فللْعبارة الموزونة كيان ومركز ثقل وأطراف خاضعة لنوع من الهندسة اللّفظيّة الدّقيقة [3].

وكان لهذه الفاصلة الموحّدة وهذا التّكرار دور في جمال الآيات، وفي تأكيد المعنى وتثبيته في ذهن السامع، بما يَحْمِلانه مِن إيقاع ودلالة .

---

[1] . ينظر: منذر عياشي ، الأسلوبية وتحليل الخطاب ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، دار المحبة ، دمشق ، د ط ، 1429هـ ، 2009 ، ص 13 .

[2] . بلقاسم دفة ، نماذج من الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم ، دراسة دلاليّة ، ص 25 .

[3] . ينظر: نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 5 ، د ت ، ص 277 ، 278.

وهي كلّها متقابلات ومتوازنات عبّرت عن"جُمل دلاليّة مختلفة بِجُمل صوتيّة متماثلة"[1]. ومن ثمّ فهي جمل متساوية المباني، متضادّة المعاني، كلّ وحدة صوتيّة فيها، تشكّل وحدة معنويّة وتقابل بها وحدة صوتيّة ومعنويّة أخرى، فيظهر تقسيمان؛ صوتيّ ودلاليّ شكّلهُما التّقابل والتّوازن والفاصلة والتّكرار بمختلف أنواعه ــ باعتبارها جميعا قيَما صوتيَّة وتركيبيَّة ودلاليّة ــ في علاقات متشابكة، وأجزاء متكاملة ... غايتُها ترسيخ العقيدة، وتثبيت الإيمان، والتّنبيه إلى قدرة الله ــ تعالى ــ في هذا الكون، والتّعريف بمصير الكفّار في الدّنيا والآخرة .

ولعلّ ما استوعب هذا كلّه هو التّوازن؛ ذلك لأنّ بنيته فعّالة، تُسهِم في توليد المعنى وخدمة الفكرة العامة للسّورة، وتُحدث أثرها في تلاحم أجزائها، وتؤثّر تأثيرا إيجابيّا في المتلقّي... ونتيجة لهذه البنية الإيقاعيّة، فهو نمَط تعبيريّ محفّز للتّذكّر[2] .

ومنه فإنّ هذه الثّنائيات الكونيّة المتقابلة لم تكن منفصلة ليست ذات قيمة، بل هي متشابكة في ما بينها شكْلا ومضْمونا أوّلا، ومرتبطة بسياقها، مدعّمة له، متفاعلة معه، ممُهِّدة لما سيأتي بعدها من جواب ثانيا. يقول أحدهم عنها:" وبهذا كلّه لم يعد للثّنائيات المتعارضة باعتبارها أشكالا لغويّة طباقيّة فقط قيمة ولا ضرورة تذكر إنْ لمْ ترتبط بصورة السّياق الأكبر الممثل بجملة القَسَم والجواب وكلتهما تحقّقان دلالة موضوعيّة "[3].

ولعلّ أبا هلال العسكري استمدّ فكرته من هذه الآيات ومثيلاتها في القرآن الكريم، حين قال:" لا يحسن منثور الكلام، ولا يحلو حتى يكون مزدوجا ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج. ولو استغنى كلام ما على الازدواج لكان القرآن؛ لأنّه في نظمه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات فضلا عما تزاوج في الفواصل منه"[4].

فإذا كانت النّفس البشريّة تميل إلى المتضادّات وترتاح لها، كما أكّد ذلك أبو حيان

---

[1] . جون كوهين ، ص 90 structure du langage poétique نقلا عن: سامي محمد عبابنة ، التفكير الأسلوبي، رؤية معاصرة في التراث النقدي والبلاغي في ضوء علم الأسلوب الحديث، جامعة إربد الأهليّة ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، جدارا للكتاب العالمي، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2007 ، ص281 .

[2] . ينظر: محمد كريم الكواز، كلام الله الجانب الشفاهي من الظاهرة القرآنية ، دار الساقي، بيروت، ط1، 2002 ، ص43.

[3] . حسين جمعة ، التقابل الجمالي ، ص 166.

[4] . أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ص 260 .

التوحيدي وغيره من العلماء حين قال:" النفس قابلة للأضداد"[1]، فإنّها تميل أيضا إلى التوازن، وخاصّة عند تكراره." فتكرار التّوازن الإيقاعيّ يقدّم وظيفة دلاليّة، لكنّه في الوقت نفسه يقدّم وظائف جماليّة تُمتّع الأذن، وتشْرح النّفس ... فضْلا عن أنّ النّص القرآني قدّم معطيات جديدة في ابتكار طرائق إيقاعيّة جديدة في التّوازن والتّنوّع والتّطابق والتّضاد تنبثق من المضمون، فتلوّن السّياق وتربط بالفاصلة... وهو ما لم يعرف في الشّعر العربي"[2].

فالجمْع بين التّقابل بما يمثّله من تضادّ واختلاف في الدّلالة، والتّوازن بما يمثّله من انتظام ومساواة وائتلاف في المبنى... كلّ هذا يشكّل انسجاما دلاليّا وجماليّا للنّص. خاصّة أنّه يُشترط في التّوازن عدَم وجود فاصل شكْليّ بين الجملتين ـ وهو ما تَوَفّر في السّورة ـ ، حتّى لا يُفْقِد النّص علاقاته الإيقاعيّة والدّلاليّة .

وهكذا بُنيت السّورة بناء تامّا ومتشابكا على التّقابل والتّوازن والفاصلة الواحدة. ما يظهر أنّ ألوان البديع متداخلة متضافرة لأداء التّواصل، منسجمة فيما بينها صوتيّا ودلاليّا، خاصّة أنّ دوْرَها لا يقتصر على التّحسين والتّجميل كما هو شائع، بل هي وسائل تعبير هامّة، وذات فاعليّة في النّص الأدبي .

[1] . أبو حيان ، الإمتاع والمؤانسة ، تحقيق : محمد حسين إسماعيل، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1، 2003 ، 175/1.

[2] . حسين جمعة ، التقابل الجمالي ، ص 287 .

4 ـ التّقابل والتّجانس والفاصلة:

مِنْ أبرز الظّواهر الصّوتيّة المتداخلة في نظم القرآن الكريم والمندمجة في آياته التّجانسُ والفاصلةً. والتّجانس في اللّغة من مادّة (جنس)، والجِنْسُ هو الضَّربُ من كلّ شيء، ويُقال هذا يُجانِسُ هذا أَي يُشاكله[1]. ومنه فالتّجانس هو الضّرب والنّوع والتّشاكل.

أما في الاصطلاح فهو:"أنْ يكون اللّفظ واحدا والمعنى مختلفا"[2].أو هو" أنْ يتشابه اللّفظان في النّطق ويختلفا في المعنى"[3].

ومن المحْدثين مّنْ عرّفه بقوله:" فالتّجنيس ـ في مفهومنا ـ هو تكرار الصّوامت أساسا"[4]. وهو تعريف صوتيّ بحت، لم يُشِرْ فيه إلى المعنى.فاشتراك الأصوات في التّجانس لا بدّ أنْ يُصاحبَه اختلافٌ في المعنى، وإلّا أصبح تكرارا بحتا.

فالتّجانس ـ إذن ـ كلِمتان تشْتركان في اللّفظ تختلفان في المعنى، وسُمّي بهذا الاسم "لأنّ حروفَ ألفاظِه يكون تركيبها من جنْس واحد"[5].

ومنْ تعريفات الفاصلة نذكر تعريف الزّركشي الذي يقول فيه:" كلمة آخر الآية كقافية الشّعر وقرينة السّجع"[6]. أمّا الرّماني فقدْ ربط فيها بين الدّور الصّوتيّ والمعْنويّ، حيث يقول:" الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع يقَعُ بها إفْهام المعاني"[7].

ويظهر ممّا سبق أنّ الفاصلة تشْبه القافية في الشّعر، وتُسمّى في غير القرآن الكريم سجْعا، وترتبط بآواخر الآيات القرآنيّة، وهذه الأواخر غير مقيّدة بحرف. لذلك فأشْكال الفاصلة متنوّعة، وصُوَرها متعدّدة؛ فقدْ تكون كلمة، وقد تكون مقْطعا من كلمة، وقد تكون جملة[8].وهذا حسْب سياق السّورة وجوّها وإيقاعها العامّ.ولعلّ سيد قطب أصاب حين قال: " فهي ليست حرفاً

---

[1] . لسان العرب ، 6 / 43 .

[2] . المثل السائر، 1 / 262 .

[3] . الميداني ، البلاغة العربية ، 2 / 485 .

[4] . محمد العمري، تحليل الخطاب الشعري، البنية الصوتيّة في الشعر.الكثافة الفضاء التفاعل،الدار العالميّة للكتاب، الدار البيضاء ، ط1، 1990، ص 64 .

[5] . المثل السائر، 1 / 262 .

[6] . الزركشي ، البرهـان ، 1 / 52 .

[7] . الرماني ، النكت في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، جمع وتحقيق محمد خلف الله و محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، مصر، ط2 ، 1969 ، ص89 .

[8] .ينظر: أحمد أبو زيد ، التناسب البياني ، 350 .

متّحداً ولكنّها إيقاع متشابه مثل: « بصير، حكيم، مبين، مريب». « الألباب ، الأبصار، النار، قرار». « خفياً، شقياً، شرقياً، شيئاً»..."[1].الشّيء الذي يُعطيها حريّة وقدرة على التّعبير عن المعاني المتعدّدة، والاندماج مع السّياقات المختلفة، وفسْحة للتّلوين والهنْدسة الإيقاعيّة، وفي الوقت نفسه الفصل بين أجزاء الكلام، وأصلا سُمّيَت بهذا الاسم،" لأنّه ينفصل عندها الكلامان، وذاك أنّ آخر الآية فصْل بينهما وبين ما بعدها"[2].

هذا وقدْ نوّه العلماء بقيمة التّجانس والفاصلة، وبدورهما في المعنى وجمال الأسلوب.يقول الجرجاني:" وعلى الجملة فإنّك لا تجد تجنيسا مقبولا، ولا سجَعا حَسَنا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلا، ولا تجِد عنه حِولا، ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقُّه بالحُسْن وأولاه، ما وقع من غير قصد من المتكلّم إلى اجتلابه، وتأهُّب لطلبه "[3].

وبناء على ذلك، فللتّجانس والفاصلة وظيفتان بارزتان؛ لفظيّة ومعنويّة، إذْ لهُما دور إيقاعيّ وآخر دلاليّ.ما يُظهر أنّ بينهما علاقة وثيقة؛ فهُما يقومان على تشابه الأصوات، ولهُما صلة كبيرة بالإيقاع . إضافة إلى أنّ هذه الأصوات وهذا الإيقاع مرتبط بدلالاته. لذلك فهُما كثيرا ما يرتبطان في السّياق القرآني، ويندمجان في الآية الواحدة. وهي الأسباب ـ إضافة إلى مراعاة الإيجاز ـ التي جعلْتنا نُدْمِجُهُما معًا في عنصر واحد. والحقيقة أنّ ألوان البديع، كثيرا ما تُدمج في الآيات القرآنيّة ـ كما رأينا في الأمثلة السابقة ـ إلى حدٍّ يَصْعُب الفصْلُ بينها.

وفي ما يلي نقدّم بعضَ الأمثلة :

[1] . في ظلال القرآن ، 547/1 .

[2] . البرهـان ، 1 / 52 .

[3] . الجرجاني، أسرار البلاغة ، ص11.

• **المثال الأوّل:**

يقول تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾عبس 38 ـ 42 .

هذه الآيات خاتمةُ سورة(عبس) ونتيجة لما وَرد في بدايتها، ومن حديث عن الصّاخة، يقول الفخر الرازي:" واعلم أنّه تعالى لمّا ذكر حال يوم القيامة في الهَوْل، بيّن أنّ المكلّفين فيه على قسمين منهم السّعداء،ومنهم الأشقياء"[1]، فصَوّر حالتيْن من الوجوه:

وجوه: مسفرة ، ضاحكة ، مستبشرة .

وجوه: عليها غبرة ، ترهقها قترة ، هم الكفرة ، الفجرة .

" وفي هذا المشهد ختامٌ يتناسق مع المطلع. مع الذي جاء يسْعى وهو يَخشى. والذي استغنى وأعْرض عن الهُدى. ثمّ هذان هما في ميزان الله"[2]. وتنقلب صورة المكابرة والتجبّر إلى الذلّ والحقارة، لتنوّه بالتّالي بضعفاء المؤمنين وبعلوّ قدرهم ووقوع الخير من نفوسهم، وأنّهم أعظم عند الله من أصحاب الغنى والكفر والفجور، وأنّهم أحرياء بالتّحقير والذّمّ[3]. وهو تقابُلٌ يربط دلاليّا بين آخر السّورة وأوّلها ويُساهم في التّماسك بين أجزاء السّورة .

وقد اعتمد هذا التّقابل على إيقاع كثيف أوّل ما يبرز فيه التّناسقُ الصّوتي العامّ الذي أحدثته العلاقات عبر التّجانس وغيره :

• بين فاصلتيْ الطّرف الأوّل من التّقابل، وهو مجموعة السّعداء « مُسْفرة ، مُسْتبشرة »، في أصواتهما الأولى والأخيرة، وهي « الميم والسين والراء والتاء ». وأهميّة هذا النّوع أكثر من أهميّة التّجانس بين الأصوات الدّاخليّة[4]، لأنّه يُشكّل نقطة ارتكاز الكلام ومنتهاه، والتّنوّع سمتُه.

• وبين فواصل الطّرف الثّاني، وهو مجموعة السّعداء « غبرة ، قترة ، كفرة ، فجرة »؛ حيث اشتركت فيبعض الأصوات «الراء والتاء»، وفي الوزن الصّرفي وفي المقاطع الصّوتيّة؛ فقدْ توالى في كلّ فاصلة منها مقطعان قصيران(ص ح) غَ ، (ص ح) بَ ، بعدهما مقطع متوسّط مغلق(ص ح ص) رَهْ . وهو يؤكّد ما أثبتناه سابقا من أنّ المقاطع المغلقة تُستخدم في

---

[1] . الرازي ، مفاتيح الغيب ، 31 /62 .

[2] . سيد قطب ، في ظلال القرآن ، 6 / 3834 .

[3] . بنظر: التحرير والتنوير ، 30 / 102 .

[4] . ينظر: محمد العمري ، تحليل الخطاب الشعري ، ص 160 .

مقامات الجدّ والصّرامة والحسم، وفي تصوير الانفعالات[1].فالمقاطع الصّوتيّة هي لبنة الكلام، وهي الأساس الذي تبنى عليه الكلمة.وبناء على تشكيلها تظهر القيمة الصّوتيّة للكلمة والكلام، ويظهر المعنى التي تعبّر عنه." لقد كان الاتّجاه الرّئيسي في سورة الحاقّة إلى تقرير حقيقة الجدّ الصّارم في شأن العقيدة.ومن ثم كانت حقيقة...أخذ المكّذبين أخْذاً صارماً في الأرض؛وأخذ كلّ منْ يبدّل في العقيدة بلا تسامح"[2].خاصّة أنّها تتابعت فيها ثلاث فتحات.والفتحة ـ كما ذهب بعضُهم ـ أخفّ الحركات، لذلك فهي مستحبّة عند العرب ويكثر دورانها وغلبتها على غيرها في الكلام، فهي لا تُكلّف النَاطق عناء[3]،"واللّسان مع الفتح يكاد يكون مستويا في قاع الفم"[4].ومن ثمّ تُنطق بسلاسة ودون تعب،إضافة إلى أنّها صوت لين تُسْمع بوضوح، ومن مسافة أبْعد أكثر من الأصوات السّاكنة، وأوضح من الضّمة والكسرة[5].وفي هذا سلاسة لأسلوب الآيات وانسجام لأصواتها،ولعلّ في ذلك إيحاءً بسلاسة تعاليم الإسلام،ورَفْعا لصوت الحقّ الواضح .

• ومن جهة أخرى، فقدْ ربطت بين المجموعتين المتقابلتين الفاصلةُ الواحدة «مُسْفرة، مُسْتبشرة، غبرة ، قترة ، كفرة ، فجرة ». ولا يخفى ما للتّماثلات الصّوتيّة في أواخر الآيات من موسيقى عذبة. وتَكرُّرُ صوْتِ «الرّاء»، وهي من أوضح الأصوات في السّمع، وبين الشّدّة والرّخاوة. وهي صوت مكرّر، لأن التقاء طرف اللّسان بحافّة الحنك ممّا يلي الثنايا العليا، يتكرّر عند النّطق بها[6]. فيقع ارتعاد اللّسان عند نطقه. ولعلّ في هذا دلالة على تتابع الأفراح والبشرى ووضوحهما عند المؤمنين السّعداء، وتتابع الأحزان والهموم ووضوحهما عند الكافرين الأشقياء.

• وبناء على ذاك فقد اتّفق طرفا التّقابل في جزء من الإيقاع، واختلفا في جزئه الآخر، ما ولّد التّوافق والتّخالف على صعيد واحد[7]؛ وارتبطت المماثلة والتّوافق نتيجة الانْدمَاج مع السياق العامّ، بالتّفارق والتّخالف نتيجةَ التّقابل بين نوعيْن متنافرين من الوجوه.وعن طريق هذه

---

[1] . ينظر: أحمد أبو زيد ، التناسب البياني ، ص321 .

[2] . في ظلال القرآن ، 6 / 3694 .

[3] . ينظر: إبراهيم مصطفى ، إحياء النحو، القاهرة ، دون دار نشر، ط2 ، 1992 ، ص78 ، 79.

[4] . إبراهيم أنيس ، في اللهجات العربيّة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، د ط ، 2003 ، ص 57 .

[5] . ينظر: إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغويّة ، ص 28 .

[6] . ينظر: المرجع نفسه ، ص 57 ، 58 .

[7] . ينظر: بناء الأسلوب في شعر الحداثة ، ص 335 .

الخصائص ينمو النّص[1]؛ لأنّ المعنى يستدعي مقابلَه، واللّفظ ينتعش بمُجَانِسِه. ومن ثمّ فقدْ ربَطَ سياق السّورة بين المتنافرين؛ وجوه مستنيرة منيرة متهلّلة، راجية في ربّها، مُطمئنّة بما تستشعره من رضاه عنها. فهي تنجو من هوْل الصاخّة المُذهّل، ووجوه تعلوها غبرة الحزن والحسرة، ويغشاها سوَاد الذلّ والانقباض[2].

وهو تشكيل لُغَويّ وإيقاع منْسجم ذو الجرس الموسيقي النّاتج عن الطّاقات الصّوتيّة الهائلة والمتنوّعة التي ولّدها التّجانس الصّوتي المتعدّد والثّريّ،والذي ساند التّجانسَ الدّلاليّ عن طريق تحقيق المفاجأة والدّهشة،"نتيجة للهزّة الدلاليّة التي يتلقّاها القارئ أو السّامع من مخالفة التوقّع" [3]، وعن طريق التّقابلات الدّلاليّة. ما كثّف الجماليّة وكان له أبعاد إيقاعيّة ودلاليّة مؤثّرة من خلال تلمّس إيحاءاتها .

وترجع مقوّمات الجمال في التّجانس ـ كما يرى العلماء ـ إلى النّظام والانْسجام والائتلاف نتيجة تناسب الألفاظ في الصّورة، وهو ما تأنس به النّفوس ويطمئنّ إليه الذّوق. وإلى التّجاوب الموسيقي بسبب التّماثل فيُطرب الأذن ويهزّ أوتار القلب[4].إضافة إلى أنّ في التّجانس"عامل فعّال في تحطيم حدود الدّلالة باحتواء الدّال على أكثر من مدلول"[5]، وهو ـ بالتالي ـتكرارٌ في الأصوات وتباعُدٌ في المعاني.وفي هذا كلّه نغمةٌ عذبةٌ، وسرٌّ أخّاذ، ومعنى جذّاب، وإلغاءٌ للتّناقضات، ووظيفة مؤثّرة. يقول حسين الواد: " مادامت تسمية الأشياء المتباعدة بالاسم الواحد لا تخلو من سرّ "[6].

لذلك يتجاوز التّماثل الصّوتيّ حدودَ الجمال الإيقاعيّ ليندمج مع الجمال الدّلاليّ، وتتحقّق عن طريقهما وظيفةٌ مزدوجة يقوم بها التّجانس؛ فبنْيتُه" ليست ذات قيمة إيقاعيّة فحسب، وإنّما بِنْيَة تعمل على المستوى الدّلاليّ وتدفعه إلى النّضج والاكتمال، من حيث حقّقت التّوحّد و التّخالف على صعيد واحد"[7].

---

[1] . ينظر: محمد مفتاح ، مجهول البيان ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1990 ، ص 58 .

[2] . ينظر: في ظلال القرآن ، 6 / 3834.

[3] . محمد عبد المطلب ، بناء الأسلوب في شعر الحداثة ، ص 330 .

[4] . ينظر: المطعي ، خصائص التعبير القرآني ، 2 / 443 .

[5] . بناء الأسلوب في شعر الحداثة ، ص 330 .

[6] . حسين الواد، اللّغة الشّعر في ديوان أبي تمام ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1، 2005 ، ص 93.

[7] . بناء الأسلوب في شعر الحداثة ، ص 332 .

• **المثال الثّاني:**

يقول تعالى : ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾الليل: 1–11.

بُنيت سورة (اللّيل) على التّقابل؛ فقدْ قَسَمَ سبحانه وتعالى بدايةً بالليَل والنّهار والذَّكَر والأنثى، ليأتي الجواب مجْمَلا فيقوله تعالى:﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾الليل:4.

والتّناسبُ بين المُقسم به والمقسم عليه ظاهرة هنا، وهي التّقابل في كلّ منهما . قال ابن كثير:"وَلَمَّا كَانَ الْقَسَمُ بِهَذِهِ الأشياء المتضادّة كان المقسم عليه أيضا متضادّا، ولهذا قال تعالى:﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾، أَيْ أَعْمَالُ الْعِبَادِ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا مُتَضَادَّةٌ أَيْضًا وَمُتَخَالِفَةٌ فَمِنْ فَاعِلٍ خَيْرًا وَمِنْ فَاعِلٍ شَرًّا"[1].فسعْي النّاس منْه خيْرٌ ومنْه شرّ، وينْبثق عن نتائج؛ منْها النّافع ومنها الضّار،كما ينتج الذَّكَر ذُريّة صالحة وغيرَ صالحة. وفي هذا شبَهُ النّور والظلمة، وهو مُناسب للمقام لأنّ غرض السّورة بيان البون بين حال المؤمنين والكافرين في الدّنيا والآخرة[2].

وبناء على ذلك جاءت هذه الثّنائيّات المتقابلة « اللّيل والنّهار، الذّكر والأنثى »، المعبِّرة عن المعنى وغرض السّورة وسياقها .

لذلك فقدْ فُصِّل جوابُ القسَم هو الآخر بثنائيات متقابلة، بعد إجماله فيقوله:

﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾، تشويقا إلى تفصيله ليتمكّن في الذّهن[3].﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ الليل:5–11.

تنقسم الآيات إلى ثلاثة مقاطع هي :

• القَسَم في الآيات: (1 ، 2 ، 3).

• الجواب : وقد كان مجْملا في الآية: (4).

---

[1]. ابن كثير،تفسير القرآن العظيم ، 8 / 417.

[2]. التحرير والتنوير ، 30 / 378.

[3]نفســـه ، 30 / 379.

• تفْصيل الجواب في الآيات: (5 ، 6 ، 7 ، 8 ، 10 ، 11).وهذه الآيات تفصيل للسّعي المختلف، وقد ذكر ثلاث صفات بمقابل المقسم به. فقدْ أقسم بثلاثة أشياء، وذكر من خلال الخير ثلاثا، وقابَلَها بثلاث من الصّفات السّيّئة[1].وهذا الجواب المفصّل هو نقطة الارتكاز الدّلاليّ في السّورة،" فهي تجري في محورها العامّ على المقابلة بين العمل الحسن والعمل السّيّء"[2]. وما يثبت ذلك أنَ التّفصيل ورَدَفي فريقين فقط؛أحدهما ميسَّر لليسرى وثانيهما للعسرى، وهما الحالان المهمّان في مقام الحثّ على الخير، والتّحذير من الشّرّ[3]. يقول سيد قطب عن هذه سورة:" فهُنا صورة فيها الأسود والأبيض، فيها من أعطى واتّقى ومنْ بخِل واستغنى، وفيها من يُسّر لليسرى، ويُسّر للعسرى، وفيها الأشقى الذي يصلى النّار الكبرى، والأتقى الذي سوف يرضى. وفي الإطار كذلك الأسود والأبيض؛ فيه اللّيل إذا يغشى. وفيه النّهار إذا تجلّى، المقابِل تماما للّيل إذا يغشى. وهنا الذّكر والأنثى المتقابلان في النّوع والخلقة . فذلك إطار مناسب للصّورة التي يضمّها"[4].وهي كلّها وسائل تشويق وإثارة وجلب الانتباه.

أمّا ما يميّز إيقاع التّقابل هنا فهو:

• فقدْ وردَتْ آياتها قصيرة سريعة،وفواصلُها متقاربة، مقسّمة تقسيما متوازناغالبا، توزّعت فيها المعاني وتقابلت بوحداتها الصّوتيّة؛ فقدْ تشكّلت كلّ الآية عموما من كلمتين أو ثلاثة. والفواصل القصيرة هي أصعب الفواصل كما يرى العلماء وأجْملها نغمة وأعْذبها إيقاعا.

• التّجانس بين﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ و﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾الذي أدّى دوْرَ التّقابل المبْنيّ على التّنافر بين المتجانسين. فاليسرى بمعنى السّهل، وضدّه العُسرى. وقدْ راعى القرآن الكريم هنا المجاورةَ والاتّباعَ والتّوازن بين اللّفظين المتقابلين والتّناسب، والآيات الآتية تبيّن ذلك:

﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ المدّثر: 9 ، 10.

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ الشرح: 5، 6.

[1] . ينظر: السامرائي ، على طريق التفسير البياني ، 1 / 141 .

[2] . أحمد أبو زيد ، التناسب البياني ، 141 .

[3] . ينظر: التحرير والتنوير ، 30/ 381 .

[4] . سيد قطب،التّصوير الفنّي ، ص 127 ، 128 .

واستعمل الْمَيْمَنَةِ مع الْمَشْأَمَةِ، والْيَمِينِ مع الشِّمَالِ في سورة (الواقعة)، وهو كثير[1]. إضافة إلى ذلك فإنّ اليُسْرَى تدلّ على غاية اليُسر، والعُسْرَى على أقصى العُسر والشّقاء الذي ما بعده شقاء، فالقصد إلى المضيّ باليُسْر والعُسْر إلى نهايتهما القصْوى بغير حدود ولا قيود[2].

وقد جاء بالفعل فسنيسّره مع العسرى من باب السّخريّة[3]من جهة، وللمناسبة والانسجام[4] الصّوتيين من جهة أخرى. ولعلّ في هذا دلالة على تغليب التّيسير من الله لِمَنْ أراد طريق التّقوى، وتنزيه الله عن ضدّه. فكان مبْنَى الطّرفين واحدا تقريبا ومعناهما مختلفا. وفي هذا فائدة وفضيلة. يقول الجرجاني:"واعلم أنّ النّكتة التي ذكرتها في التّجنيس، وجعلتها العلّة في استيجابه الفضيلة، وهي حسن الإفادة مع أنّ الصّورة صورة التّكرير والإعادة"[5].لأنّ التّكرار والتّقارب الصّوتيّ هنا ينتج عنه تخالفٌ وتباعُدٌ دلالي، وفي هذا جماليّة تشدُّ انتباه القارئ وتُحرّك فكرَه. وهي أمور تبيّن في مجملها أنّ القرآن الكريم يراعي في تعبيره الجانبين اللّفظيّ والمعنويّ.

• التّقابل بين «اتّقى واستغنى»: وهُما غير متقابليْن معجميّا، إلّا أنّ الاستغناء يعني الزّهد ما عند الله، أي «لم يتّق». وكأنّ التّقابل صار بين «اتقى» و«لم يتّق». فجمَعتْ بين التّقابل والتّجانس[6]. فيكون التّعبير قد خرج عن المألوف وجعل القارئ يشاركه بفكره ويندمج معه. فإذا كان المتّقي يحْترز ويحذر،" فإنّ المستغني لا يحْذر شيئا، والاستغناء مدْعاة للطّغيان"[7].

إضافة إلى أنّ في الفعل « استغنى » عدمَ التّقوى وأسبابَها ، وهو التكبّر وعدم الحاجة إليها والاستغناء عنها. وهي معان لا يتوفّر عليها الفعل « اتّقى»، ما يجعل التّقابل آليّة حجاجيّة واضحة ومُناسِبة. ومن ثمّ قدّم التّجانسُ" للّغة خدمة جليلة، إذ يوائم بين المعطى اللّغويّ المحدود وصنوف المعاني اللّامتناهية "[8].

---

[1] . ينظر: أحمد أبو زيد ، التناسب البياني ، ص 281 ، 282 .

[2] . ينظر: عائشة عبد الرحمن ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 3 ، د ت ، ص 272 .

[3] . ينظر: المفردات في غريب القرآن ، ص892 .

[4] . ينظر: طالب محمد الزوبعي وناصر حملاوي ، البلاغة العربية البيان والبديع ، ص194 .

[5] . الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ص 17 .

[6] . ينظر: البلاغة العربية البيان والبديع ، ص194 .

[7] . السامرائي ، على طريق التفسير البياني ، 1 / 148 .

[8] . سعيد العوادي ، حركيّة البديع في الخطاب الشعري ، ص 124 .

• سيطرَةُ صوت «السّين» على الآيات؛ فقدْ ورَد عشر مرات، وصوْت« الصّاد » مرّة. وهُما ـ إلى جانب الزّاي ـ من أصوات الصّفير، صوْتهما إيقاعيّ سّلس. ويصفُها سيبويه بقوله: "وهنّ أنْدى في السّمع"[1]. وأنْدى صيغةُ تفضيل، وقد ورَدَ فيها" رَجُل نَدِيُّ الصّوتِ بَعِيدُ ، الانْداء هو بُعْدُ مَدى الصّوت... وفلان أَنْدى صوتاً من فلان أَي أَبْعَدُ مَذْهباً وأَرفع صوتاً"[2]. وقد وردَ منها ستّ مرات في جوابَيْ « أمّا »:﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ ﴾ و﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾. ولعلّه دلّ على التّأكيد والإلحاح بصوْت مرتفع على ضرورة التنبّه إلى ما وردمن جواب هامّ ومصيريّ، وهو نتيجة حتميّة لكلّ إنسان .

ومن جهة أخرى فإذا قارَنّا بين طرفيْ التقابل في أسلوب الشرط نجد أنّ الطّرف الأوّل وهو«المتّقي والمصدّق ...» وردتْ فيه أصوات « العين ، الطاء ، القاف ، والصاد» ، وهي ذات صفات الجهر والشّدّة والصّفير والإطباق والاستعلاء، وكلّها من علامات القوّة . في حين أنّ الطّرف الثّاني«البخيل والمكذّب...».وردت فيه أصوات « الخاء ، الغين، الكاف الذّال»، وهي أصوات اجتمعت فيها الرّخاوة والهمس، وهي من علامات الضّعف[3]. ما يوحي بمدى قوّة المؤمن المتمسّك بربّه في مقابل غير المؤمن الضّعيف الذّليل. ولعلّ ما يؤكّد ذلك أكثر أنّ صوت « الطّاء» بما جمَعَه من صفات القوّة ؛ الجهْر والشدّة والإطباق والاستعلاء، وردَ في البداية، وهو صوت الارتكاز في التّقابل .

• الآيات، وأيضا السّورة من أوّلها إلى آخرها ، مبنيّة على فاصلة واحدة، وهي «الألف المقصورة »، فكانت ذات إيقاع واحد سريع، متناسق في نهايات الآيات .

• والسّورة كلّها أيضا،مبنيّة على التّوازن، حيث أنّ إيقاعها الدّاخليّ يعتمد على ثنائيّة بديعة، متعاكسة ومتنافرة من بداية السّورة إلى ختامها، ويظلّ الإيقاع محافظا على النّسب المتوازنة في هذه الثّنائية في نغماته وتناسبه،" فالتّوازن في النّهاية يقود إلى حالة من التّوازن، سواء بين عناصر اللّغة جميعا، أو بين عناصر الكون بأسره"[4].من ذلك أنّ الآيات المتقابلة(5،6،7، 8،9،10) يتضمّن كلّ طرف منها ثمانية كلمات،فيها المكرّرة مثل:«أمّا من، بِالْحُسْنَى،

[1] . سيبويه ، الكتاب ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 3 ، 1988، 4 / 464 .

[2] . لسان العرب ، مادة (ندي) ، 15 / 313.

[3] . ينظر : التناسب البياني ، ص 292 .

[4] . عاصم محمد أمين ، لغة التّضاد في شعر أمل دنقل ، ص 58 .

فَسَنُيَسِّرُهُ». فاتّسم الطّرفان بتساوي المقادير وتعادل المباني وتقابل المعاني، فجمعت السّورة بين الانتظام الشّكليّ والانتظام المعنويّ... وكلّها عناصرٌ للجمال. فالتّناسق العامّ يعني عدم تنافر الأجزاء شكلا ومضمونا، ما أسهم في انسجام النّص وجماليته وتكثيف دلالته .

وعليه يُمكن القول أنّ سّورة (الليل) اتّسمت بالكثافة الإيقاعية، والكثافة الدّلاليّة؛ فقد بُنيت بناء كاملا، من أوّلها إلى آخرها على الفاصلة والتّوازن والتّقابل.ومن جهة أخرى استعملت التّجانس والتكرار بمختلف أنواعه، فاجتمعت فيها هذه الألوان البديعيّة، مكوّنةً علاقات متشابكة، واستمدّت طاقاتها الإيقاعيّة والدّلاليّة بعضها من بعض.يقول محمد عبد المطلب عن هذه العلاقة:" التّماثل غير التّكرار وغير التّقابل، إذ إنّه يفقد ما في التّكرار من تساوي الدّالين تساويا مطلقا، كما يفقد ما في التّقابل من التّخالف الشّكلي، فهو يأخذ من هذا وذاك ويقدّم بنية مفارقة تجمع بين التّكرار والتّقابل، أو بينه وبين التّخالف، فيحدث بهذا الجمع اهتزاز في عمليّة إدراك المماثلة داخليّا وإنْ ظلّ لها وجودها الشّكلي" [1].

ومنه فإنّ للتّجانس والفاصلة قيمة صوتيّة لفظيّة مرجعها إلى الجرس.فتأليف الحروف والكلمات والتّراكيب عامّة في السّورة بكيفيّة معيّنة يخلق بينها تجانسا صوتيّا وتباعدا دلاليّا، يحقّق الوظيفتين الإيقاعيّة والدّلاليّة؛فاللّغة القرآنيّة تلتفّ على بعضها بعضا أحيانا فيكون إيحاؤها الدّلاليّ قرين إنجازها الإيقاعيّ[2].هذا الأخير يعتمد على الجمال الصّوتيّ الذي يؤدّي" إلى سرعة دخول المعنى للقلب والعقل،لأنّ الأذن تلذّه وترتاح له"[3]كونه يجعل من الآيات والسّورة لوحة موسيقيّة عذبة، متماثلة في بنياتها وأشكالها، متخالفة متعارضة في معانيها، خادمة لها. فإذا كانت ثمة جماليّة في نظام التّجانس والفواصل فإنّها تعود إلى بنية التّماثلات الصّوتيّة[4]، وتزداد هذه الجماليّة كثافة باندماجها مع التّقابل .

[1]. محمد عبد المطلب ، بناء الأسلوب في شعر الحداثة ، ص 315 .

[2] . محمود المصفار، سيميائية القرآن بين الحجاج والإعجاز، شركة المنى صفاقص ، دط ، دت ، ص 259.

[3] . محمود سليمان ياقوت ، علم الجمال اللغوي ، دار المعرفة الجامعيّة ، قناة السويس ، د ط ، 1995 ، ص 218 .

[4] . ينظر: حسن ناظم ، البنى الأسلوبيّة ، دراسة في أنشودة المطر للسّياب ، المركز الثقافي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط1، 2002 ، ص 128.

ثانيا: التّقابل وألوان البديع الدّلاليّة.

ذكرنا سابقا أنّ علماء البلاغة تفنّنوا في ألوان البديع و تسابقوا في ابتكارها، ما جعلها كثيرة ومختلفة عندهم ومتداخلة إلى حدّ التكلّف. من ذلك أنّ علاقة التقابل تتجلّى في بعض الألوان البديعية الأخرى مثل: اللّف والنّشر والجمْع والتّقسيم، والاحتباك والعكس والتبديل ... فهي في أساسها تقابلٌ خرج عن بنيته الأصليّة وترتيبه المألوف؛ إمّا بتغيير التّرتيب، أو بالحذْف، أو بالتّقديم والتّأخير.

ولعلّ حالة الخروج هذه هي التي حدّدت التّسمية. ومن ثمّ فهي عناصر شاركت التّقابل واندمجت معه، واعتمدت عليه، وهو أساسها. ولعلّ وضْعَها تحت مصطلح التّقابل يكون أكثر دقّة وضبطا، وأقلّ مصطلحات وتكرارا، وأفْضل للبديع، "على أنّه لا مانع من تقييد المصطلح بما يميّز كلّ صورة من غيرها"[1]. ويُسمّى جميعُها أشْكال التّقابل أو علاقاته .

والخروج عن أصْلِ بنيةِ التّقابل المألوفة ليس إفسادا للمعنى أو خللا في الدّلالة أو بُعْدا عن الجماليّة، إنّما مراعاة للسّياق وما يتطلّبه التّعبير. وفي هذه المراعاة ضبطٌ لحدود المعنى وتحقيق لجمال التّركيب، لأنّه " قد يجيء نظم الكلام على غير صورة المقابلة في الظاهر، وإذا تؤمّل كان من أكمل المقابلات"[2] .

لقدْ حدّد علماء البلاغة التّرتيب في التّقابل، واشترط أغْلبُهم عدمَ مخالفته. من ذلك أنّ ابن أبي الأصبع جعل صحّة المتقابلات في توخّي المتكلّم ترتيب الأضداد في الكلام، ومتى أخلّ بهذا التّرتيب فسَدَتْ المقابلة[3].ولعلّه الأصلُ الذي اعتمدوا، والمألوفُ الذي راعوه. وهو ـ نظريا ـ صحيح لكنّه في الواقع اللّغويّ يمكن أنْ يكون خلافه. وهو ما رآه القرطاجني الذي لم يشترط التّرتيب، رغم أنّه يرى تقابل الطّرفين أحْسن وأفضل، حيث يقول:" وليس يشترط تحاذي عبارتي المعنيَيْن المتقابلين في طرفيْ الكلام في الرّتبة، وإذا أمكن تقابلهما فهُو أحسن"[4].

والحقيقة أنّ الحُسن والأفضليّة ليس في التّقيّد بأشكال معروفة وبنيات محضّرة، وإنما في مراعاة السّياق واتّباعه؛ فاللّغة ليستْ قوالب جاهزة، وأنماطا حاضرة، وثنائيّات جامدة، بل هي

---

[1] . أحمد أبو زيد ، التناسب البياني ، ص 136 .

[2] . البرهان في ، 3 / 285 .

[3] . ابن أبي الأصبع ، تحرير التّحبير في صناعة الشّعر والنّثر وبيان إعجاز القرآن ، ص179.

[4] . القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص52 .

فضفاضة مَرِنَة، تتصرّف في أشكالها المعاني، وتُفصّلها حسب حدودها. فالمعاني ليست ثابتة، بل هي متغيّرة، وتتصرّف فيها ـ هي أيضا ـ عوامل أخْرى ذكرنا بعضها في المدخل، في حديثنا عن الدّلالة، كالسّياق وما يحيط بالكلام والحالة النّفسيّة للمتكلّم والمتلقّي وغيرها.

ولعلّ حازم في تفضيله للتّرتيب اعتمد على ما وجَده في الشّعر العربي، وما اسْتلْهَمه من بعضِ ما في القرآن الكريم مِن ترتيب، لكنّ المعروف أنّ هذا الأخير لم يتقيّد دائما بترتيب عناصر التّقابل، بل تفنّن في أشكاله وبنياته اللّغويّة، مراعاة لموضوع السّورة وسياقها، ومعنى الآية وما يريد تبليغه. ومن ثم فهذا النوعُ من التّقابل لا يُدرَك بسهولة، بل يحتاج إلى تأمّل . ولعلّ هذا ما قصده الرزكشي بقوله: "واعْلم أنّ في تقابل المعاني بابا عظيما يحتاج إلى فضل تأمّل يتّصل غالبا بالفواصل"[1] .

وفي هذا المبحث سندرس هذه الألوان البديعيّة التي في أصلها تقابلٌ، ونحلّلها من خلال بعض الأمثلة .

1 ـ التّقابل باللّفّ والنّشر:

اللّفّ لغة من لَفَّ الشَّيْءَ يَلُفُّه لَفّاً أي جَمَعُهُ، وجمعٌ لَفِيفٌ مُجْتَمِعٌ مُلتَفٌّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ. وَرَجُلٌ أَلَفُّ مَقْرون الْحَاجِبَيْنِ، واللَّفُّ تَداني الْفَخْذَيْنِ مِنَ السِّمَن، واللَّفِيفُ الْقَوْمُ يَجْتَمِعُونَ مِنْ قَبَائِلَ شَتَّى لَيْسَ أَصلهم واحداً...[2].

ومنْه فاللفّ لغة، يحمل معاني الجمْع والضّمّ والاقتران والتّداني ... ويقابله النّشر.

أمّا اصطلاحا فاللّفّ هو ذكر متعدّد على جهة التّفصيل: بالنّص على كلّ واحد، أو على جهة الإجمال: بأنْ يؤتى بلفْظ يشتمل على متعدّد. أمّا النّشر فهو ذكر ما لكلّ واحد من المتقدّم من غير تعيين، ثقة بأنّ السّامع يرد كل واحد إلى ما يليق به[3]." فاللّفّ يشار به إلى المتعدّد الذي يؤتى به أوّلا، والنّشر يشار به إلى المتعدّد الذي يتعلّق كلّ واحد منه بواحد من السّابق دون تعيين "[4].

---

[1] . البرهان في علوم القرآن ، 3 / 283 .

[2] . ينظر: لسان العرب ، مادة (لفف) ، 9 / 318 .

[3] . ينظر: عبد القادر حسين ، فن البديع ، دار الشروق ، ط 1 ، 1983 ، ص 71.

[4] . الميداني ، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ، 2 / 403 .

وكما هو معلوم أنّ الجمْع لا يكون إلاّ بين شيئين. وإذا كان هذان الشّيئان متقابليْن تكون الجملة قد جمعت بين التّقابل واللّف، لأنّ عناصر هذا التّقابل غير مرتبة ترتيبَها المألوف، بل يُلفّ بعضها في بعض، فتظهر هذه العناصر منقسمةً، منفصلةً. وقدْ أطلق بعضهم على هذا النّوع (التّقابل الملفوف)، وعرّفه بقوله: "التّقابل الذي لا تنتظم فيه عناصر المتقابليْن على التّرتيب الطّبيعي المألوف، بل تأتي ملفوفة "[1].

وتجزيء عناصر التّقابل يعتمد على قدرة المتلقّي، ومشاركته في الرّبط بين الجزأين، لأنّه يتدخّل بفكره ـ مسترشدا بالسّياق ـ لإلحاق كلّ عنصر بمُقابله، وفهْم خبايا هذا اللّف، وما وراءه من معان وأغراض. ويظهر أنّ سرّ التّسمية هو هذا التّجزيء، لأنّ عدم التّرتيب يعني لفّ العناصر بعضها في بعض .

وقدْ ورَدَ التّقابل باللّفّ في القرآن الكريم كثيرا وفي بنيات مختلفة سنذكر مثاليْن منه :

- **المثال الأوّل:**

يقول تعالى :

﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ هود: 24 .

يقول ابن عاشور في مناسبة هذه الآية: "بعد أن تبيّن الاختلاف بين حال المشْركين المفترين على الله كذباً وبين حال الذين آمنوا وعملوا الصّالحات في منازل الآخرة أعقب ببيان التّنظير بين حاليْ الفريقيْن المشركين والمؤمنين بطريقة تمثيل ما تستحقّه من ذمّ ومدح"[2]. ومنْ ثمّ فالآية وردَتْ مندمجة مع سياقها العامّ، مدعّمة له، مكملة لما جاء قبلها في إطار الحديث عن توحيد الله الواحد وعبادته وحده؛ والاعتقاد في البعْث والقيامة للحساب والجزاء، مع بيان حقيقة الألوهيّة وحقيقة العبوديّة، ومقتضاهما في حياة البشريّة. ومع هذا التّحدي تهديد قاصم للمكذّبين بما ينتظرهم في الآخرة من العذاب ... ليتجسّم هذا التّهديد في مشهد من مشاهد القيامة؛ يتمثل فيه موقف المكذّبين المشركين، وعجزهم عن إنقاذ أنفسهم، مع الخزْي والتّشهير والتّنديد والتّأنيب ... وفي الصّفحة المقابلة من المشهد الذين آمنوا وعملوا الصّالحات وما

[1] . أحمد أبو زيد ، التناسب البياني في القرآن الكريم ، ص 144.

[2] . التحرير والتنوير، 12 / 40 .

ينتظرهم من الثّواب والنّعيم والتّكريم. ومشهد مصوّر للفريقيْن على طريقة القرآن الكريم في التّعبير بالتّصوير[1].

فقدْ تضمّنتْ الآية ـ إذن ـ مَثَلا يَضُمّ الفريقيْن؛ المشركين والمؤمنين اللّذيْن لا يلتقيان ولا يستويان، لأنّ كلّ فريق منْهما يحمل صفتيْن تُناقِض صفتيْ الآخر، ومن ثمّ فهُما متباعدان، والفارقُ بينهما شاسعٌ؛ " فحالة الفريقيْن المشركين والمؤمنين تشْبه حالَ الأعْمى الأصمّ من جهة، وحال البصير السّميع من الجهة الأخرى"[2].

فهُما تشبيهان متقابلان باللّفّ، أي بطريقة مغايرة للتّرتيب العادي﴿ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ ﴾ هود: 24. وهو خروج عن المألوف، لأنّ الأصل أنْ يتقابل «الأعمى» مع «البصير»، و« الأصمّ » مع « السّميع » .

فالحديث عن الفريقيْن المتقابليْن المتناقضيْن؛ المشركين والمؤمنين يتطلّب هذا التّرتيب، ويتناسب مع هذا الجمْع، ذلك لأنّ الصّفتيْن الأوليْن السّلبيّتيْن مجتمعتَيْن للفريق الأوّل، والصّفتيْن الثّانيتَيْن الإيجابيّتَيْن مجتمعتيْن ـ أيضا ـ للفريق الثّاني .

وبوَضْعه «الأعمى» بجوار «الأصمّ»، و«البصير» بجوار «السّميع»، راعى تناسُبَ المجاورة[3]. وبهذا الجوار قدّم « البصير» على « السّميع »، خلافا للآيات القرآنيّة الأخرى التي تقدّم فيها «السّميع» على « البصير»، فراعى التّقابل[4]. فحقّق القرآن الكريم ـ بالتّالي ـ الأمْريْن معًا، وأَثْبت حِرْصَه على الجماليّة بعد استيفاء المعنى. يقول الزركشي:" أنّه لمّا ذكر انْسداد العين أتبعه بانْسداد السّمع، وبضدّ ذلك لمّا ذَكَر انْفتاحَ البصَرِ أعْقَبه بانفتاح السّمع ... وهو الأنسب في المقابلة والأتمّ في الإعجاز"[5].

فالكافر الذي يجْمع بيْن العمى والصّمم يقابل المؤمن الذي يجمع بيْن البصر والسّمع، وهو ما تريد الآية إثباته .

والتّعبير بالأصل يُوحي بوجود تقابليْن مُنْفصليْن؛ بين «الأعمى والبصير» من جهة، وبين « الأصمّ والسميع » منْ جهة أخرى. وبناء على ذلك قد يكون الكافر أعمى ولا يكون أصمّ أو

---

[1] . ينظر: في ظلال القرآن ، 4 / 1851 .

[2] . التّحرير والتنوير، 12 / 40 .

[3] . ينظر: أحمد أبو زيد ، التناسب البياني ، ص 145 .

[4] . ينظر: علي السيد يونس ، جماليات الصّوت اللّغوي دراسات لغويّة نقديّة ، دار غريب ، القاهرة ، 2002 ، ص 18 .

[5] . البرهـان ، 3 / 285 .

العكس، وأيضا المؤمن قد يكون بصيرا ولا يكون سميعا أو العكس، وهو ما لا تريده الآية،" لأنّ حال المؤمنين تشْبه حالةَ مجْموع صفتيْ« البصير، السّميع»، إذ الاهتداء يحصل بمجموع الصّفتيْن، فلوْ ثبْتت إحدى الصّفتيْن وانتفت الأخرى لم يحصل الاهتداء؛ إذْ الأمران المشبه بهما أمران وجوديان "[1].

فقَدْ اجتمع في الآية التّقابل واللّفّ والتّشبيه تحت مظلّة المثل في صورة فنّيّة واحدة متكاملة رغم إيجازها الشّديد، وناسَب التّعبير السّياق وما ترمي إليه الآية. يقول أحُدُهم عنه: " ويتميّز تصوير المثل بالدّقّة وصدق المشابهة بين المثل والممثّل له، وحسن التّنسيق والتّنظيم في التّقابل بيْن الصّورتيْن الأعمى، البصير والأصمّ والسّميع. ومن خلال هذا التّقابل بين الصّورتيْن تتّضح الفوارق الجوهريّة بين المؤمنين والكافرين، ومن ثمّ استحالة المساواة بينهما بأيّ شكل من الأشكال"[2]. ويكون التّنفير من الكفر والتّرغيب في الإيمان، لأنّ الكافر بحال منْ خُلق أعمى أصمّ لا تنفعه عبارة ولا إشارة، والمؤمن بحال منْ انتفع بسمعه وبصره اهتداء إلى الجنّة، وانكفاء عمّا كان فيه من ضلال الكفر[3].

وعلى هذا، ومنْ النّاحية البلاغيّة نال المثل حُظْوة ، باعتباره النّموذج الأمثل للإيجاز في اللّفظ والإصابة في المعنى وحُسْن التّشبيه وجودة الكناية [4].

- **المثال الثاني:**

يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ آل عمران: 105 – 107.

تُقابِل الآيات بين فريقيْن من النّاس يوم القيامة، لتُظهِر الفرق الشّاسع بينهما شساعة الفرْق بين البياض والسّواد؛ " البياض من النّور، والسّواد من الظّلمة، فمَنْ كان مِنْ أهْلِ نورْ الحقّ وَسِمَ بِبَيَاض اللّون وإسفاره وإشْراقه، وابيضّت صحيفته وأشرقت، وسعى النّور بين يديه وبيمينه. ومَن كان مِن أهل ظلمة الباطل وَسِم بِسَواد اللّون وكسوفه وكمده، واسودّت صحيفته وأظلمت،

---

[1] . التحرير والتنوير، 12 / 42 .

[2] . الراغب ، وظيفة الصّورة الفنيّة في القرآن الكريم ، ص 171 ، 172 .

[3] . ينظر: روح المعاني ، 12 / 34 .

[4] . ينظر: صالح بن رمضان ، الشّعر والأمثال في التّراث العربي ، ص 67 .

وأحاطت به الظّلمة من كلّ جانب"[1]. فيكون بياض الوجوه للمؤمنين، وهو عنوان الفرح والمسرّة ودليل السّعادة، وسوادها للكافرين، وهو عنوان الحزن والكآبة ودليل الشّقاء .

وقدْ جمَعت بين الإجمال والتّفصيل؛ حيث أشارت في البداية إجمالا إلى صفة اليوم الذي يجمع بين نوْعيْن مختلفيْن من الوجوه وهُما الأبيض والأسود؛" إنّ بياض الوجوه يشير إلى طمأنينة نفوس المؤمنين الصّالحين وما يتركه الإيمان من آثار الإشراق على وجوههم، كما إنّ سواد الوجوه يعبّر عنْ الفزع الذي استولى على قلوب الكافرين، وما خلّفته ظلمة الكفْر من آثار الكآبة والغمّ على وجوههم"[2]. ليأتي بعده تفصيلُ أحوالِ الفريقيْن المتقابليْن .

وما يُلاحظ أنّه خالَف بين ترتيبَيْ الجمْع والتّفصيل؛ ففي الجمْع بدأ ببياض الوجوه وأخّر سوادها، وفي التّفصيل عكَس ذلك. ما جعل التّقابلَ في الآيات يبدأ بحُسْن حال المؤمنين وينتهي بِهِمْ أيضا، وحال الكافرين يَرِدُ في وسطه، فوردَتْ بنية التّقابل ملفوفةً. وقدْ أطلق عليها ابنُ عاشور « النشَّر المعكوس»[3]، لأنّه عكَسَ التّرتيبين وخالَفَ بينهما. وفي هذه المخالفة لفٌّ الكلامِ بعضه في بعض، ومنْ ثمّ فقَدْ جمَعَتْ الآيات بين التّقابل واللّف والنّشر والإجمال والتّفصيل .

وفي هذا أسْرار جماليّة وبيانيّة تُجسِّدُ بلاغةَ الآيات وتظهر في ما يلي:

• ففي التّفصيل تَقدَّمَ بيانُ حالِ الكافرين لكونْهم موْضع اهتمامِها، والمقام مقام التّحذير من التّشبّه بهم[4]. حتّى أنّ الآية التي قبل التّقابل ذيّلت بمآلهم يوم القيامة ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ آل عمران: 105. فهو من جهة ناسَبَ سياقَ السّورة، ومن جهة أخرى راعى تناسب المجاورة، لأنّ الذين اسْودّت وجـوههم كـانت بجوار﴿ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ ﴾[5].

• فقدْ ورَدَتْ عناصر كلِّ طرف من طرفيْ التّقابل مجزّأة بين الجمْع والتّفصيل. وفي هذا التّجزيء تهويلٌ لأمْر اليوْم، وترهيب من أحد المتقابلين وترغيب في الآخر[6]. وهي بمثابة حُجَج،

---

[1] . الكشاف ، 1 / 399 .

[2] . صالح ملا عزيز، جماليات الإشارة النفسيّة في الخطاب القرآني ، ص 179 .

[3] . التحرير والتنوير، 4 / 44 .

[4] . ينظر: محمد صديق الحسيني ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن ، 2 / 307 .

[5] . ينظر: أحمد أبو زيد ، التناسب البياني في القرآن ، ص 145 .

[6] . التحرير والتنوير، 4 / 44 .

لأنّ من الآليات البلاغيّة للحجاج تقسيم الكلّ إلى أجزائه؛ فبعْد أنْ يذكر المخاطِب حجّته كليّا في أوّل الأمر يعود لتعداد أجزائها، وذلك ليحافظ على قوّتها الحجاجيّة، فكلّ جزء بمثابة دليل على دعواه [1]. إضافة إلى أنّ في طيِّ حُكمِ اللّفّ بدايةً، إعدادٌ للنّفوس لتلقّي ما سيأتي في النّشر، فتكون إليْه متطلّعة، ومن ثم يكون تأثيره شديدا [2]، بعد تحْضير ذهْن السّامع لاستقبال الفكرة، والتّشويق لما سَيَرِدُ من تفْصيل .

• ومن جهة أخْرى كانت بداية الجمْع بما هو إيجابيّ وهو بياض الوجوه، تشريفٌ لذلك اليوم وكونه شعارَ أهْلِ النَّعيم، ولأنّ رحمة الله سبقت غضبه، وكانت بداية النّشر بما هو سلْبيّ وهو سَوادُها، تعجيلاً بمساءة أصحابه وحسْرة لهُم[3]. ومن ثمّ فقدْ أعطى كلّ طرف حقّه في التّعبير، وعبّر به عمّا يريده، وفصّل البنية التّقابليّة على مقاس معانيه ومراميه، وسياق السّورة حتّى وإنْ خرَج عن مألوفها .

• استخدمت الآيات بياض الوجْه دليلا على السّعادة، وسواده دليلا على الشّقاء. والقرآن الكريم يستخدم اللّونيْن ـ على عادة العرب ـ بدلالتيْن إيجابيّة وسلبيّة؛ فكثيرا ما يستعيرهما للْهدْي والإيمان والفوز، والضّلال والكفر والخيبة، خاصّة في المواضع الأكثر إنكارا كموضوع الآخرة[4]. ولعلّ هذين الكنايتين زادتا التعبيرَ جمالا والمعنى ثراء وتأكيدا. بخروج اللّونيْن عن المعنى المعجمي، وإعطائهما دلالات أخرى مستمَدّة من البيئة العربيّة من جهة، وتقديم الفكرة والدّليل الماديّ عليها من جهة أخرى .

فالتّقابل باللّف أسلوب بيانيّ يجذب العقول، ذلك لأنّ عناصر طرفيْ التّقابل لا تكون فيه مرتّبةً ترتيبا مألوفا، بل تأتي متداخلة متشابكة تحتاج إلى تأمّل وإعْمال فكْر لفكّها وإعادة ترتيبها وفهْم معانيها في ثنايا البنية، والوصول إلى كُنْهها؛ لأنّ " الكلام الذي تحتجب فيه المعاني بِسِتار أسْلوبي رقيق، وتتراءى من خلاله بعيدة المنال هو الذي يجذب إليه العقول ويترك في

---

[1] . ينظر: عبد الهادي الشميري ، " آليات الحجاج وأدواته"، الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة ، الجزء الأول ، الحجاج حدود وتعريفات ، ص 136 .

[2] . ينظر: بسيوني عبد الفتاح فيود ، علم البديع دراسة تاريخيَة وفنيَة ، مؤسسة المختار، القاهرة ، دار المعالم الثقافية ، الأحساء ، العربيَة السعوديَة ، ط 2 ، 1998 ، ص 212 .

[3] . ينظر: التحرير والتنوير، 4 / 44 ، 45 .

[4] . ينظر: عبد الله صولة ، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة ، ص 535 .

النّفس، بعد اختراق أستاره لذّة وارتياحا"[1]. ومنْ ثمّ يكون الاعتماد على السّامع في إعادة هذا التّرتيب والرّبط بين أجزاء النّشر واللّفّ .

فإذا كان بين المعنى ومقابله تناسب كبير، والضّدّ يستدعي ضدّه عامّة ، فإنّ السّياق هو المحدّد لذلك والموجّه للتّعبير؛ فالثّنائيات المتقابلة ما هي إلا أشكال جوفاء إذا جُرّدت من سياق سورتها، لأنّ الأصل والتّناسب في اتّباع السّياق والتّعبير حسب مقتضاه ، وتبليغ ما يريده المتكلّم. وبالتّالي يصبح التّقابل عنصرا حيويّا وفعّالا في النّص لأنّه عنصر بديعي،" والقيمة البديعيّة قيمة حيويّة في تشييد شعريّة النّص باعتباره بناء لغويّا فنّيّا"[2].

[1] . ينظر: أحمد أبو زيد ، التناسب البياني ، ص 145 .

[2] . سعيد العوادي ، حركيَة البديع في الخطاب الشّعري ، ص 13 .

2 ـ التّقابل بالعكس والتّبديل:

العكْس لغة هو رَدّ آخِر الشّيء عَلَى أَوّله[1]. أمّا اصطلاحا فقد عرّفه أبو هلال العسكري (ت 395هـ) بقوله: " أنْ تعكس الكلام فتجْعل في الجزء الأخير منْه ما جعلته في الجزْء الأوّل، وبعضهم يسمّيه التّبديل"[2] .

ويقول عنه ابن سنان(ت466هـ):" وممّا يجري مجْرى المطابق:أنْ يقدّم في الكلام جزء ألفاظه منظومة نظاماً ويتلى بآخر يجعل فيه ما كان مقدّماً في الأوّل مؤخّراً في الثّاني وما كان مؤخّراً مقدّماً"[3].

ومن تعريفات المُحْدثين: " هو ردّ آخره على أوّله، فيصير آخره أوّله " [4].

ومنه يُمكن القول أنّ الكلامَ في العكْس والتّبديل يتضمّن قسميْن؛ ألفاظهما متشابهةٌ وبنْيتاهما مختلفة تقديمًا وتأخيرًا . ما يجْعل القسمين متقابليْن، وتسْمِيَتُه تدلّ على ذلك. ولهذا اعتبره ابن سنان يجري مجرى المطابقة أي الضّدّ، كما سمّاه بعضهم (المقابلة العكسيّة)[5].

ومن ثمّ ففي العكْس والتّبديل تتجلّى علاقةُ التّقابل والمفارقة، لذلك فمنْهم من جعل المفارقةَ ثلاثة أنواع؛ بالطباق، وبالمقابلة، وبالعكس والتّبديل[6]. كما يتضمّن التّكرار، وقد عدّه العلويّ مِنْ أضْـرُبِ التّجنـيس العشـرة، ويُسـمّى المعكـوس[7]، وسُـمّي (جنـاس عكْـس الجُمَـل)[8]، و(الجنـاس المقلوب)[9]. باعتبار أنّ تَماثُلَ الألفاظ واختلافِ بنيتَيْ الجزأيْن يُؤدّي إلى اختلاف المعْنييْن. وفيه أيضا التّقديم والتّأخير؛ فما يُقَدّم في جزء يؤخّر في الآخر.

---

[1] . لسان العرب ، 6 / 144 .

[2] . أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ص 371 .

[3] . ابن سنان ، سرّ الفصاحة ، ص 203 .

[4] . إنعام نوال عكاوي ، المعجم المفصّل في علوم البلاغة ، البديع والبيان والمعاني، مراجعة أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط2 ، 1417 ، 1996 ، ص486 .

[5] . ينظر: إنعام نوال عكالي ، المعجم المفصّل في علوم البلاغة ، ص 656 .

[6] . ينظر: مصطفى السعدني ، البناء اللفظي في لزوميات المعري دراسة تحليليّة بلاغيّة ، ص 100 وما بعدها .

[7] . العلويّ ، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، 2 / 185 .

[8] . بدوي طبانه ، معجم البلاغة العربيّة ، دار المنارة ، جدة ، دار الرفاعي ، الرياض ، ط3، 1988، ص 443 .

[9] . المعجم المفصّل في علوم البلاغة ، ص 486 .

ومن ثمّ فقدْ اجتمعت في العكْس والتّبديل ألوانٌ مختلفة استمدّ منها فاعليّتَه في التّعبير، وقيمته في التّأثير. لذلك فهو" في الكلام البليغ كثير، وله هدَف قاصد إلى تمكين المعاني وتقرير الأغراض"[1]. وقد ورَدَ ـ أيضا ـ كثيرا في القرآن الكريم .

وسنمثّل بهذه الآيات التي جمَعَتْ نموذجيْن :

يقول تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ آل عمران 26 ـ 27.

تضمّنَتْ الآية تقابُليْن بالعكْس والتّبديل، تمثّلا في قوله تعالى:﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾. وقد ورَدَا في سياق تبيين قدرة الله على المنْح والمنْع، والإعزاز والإذلال،وعلى جمْع المتناقضات والمتضادّات.وهو على كلّ شيء قدير، حتى أنّ قدْرةَ الخلْقِ هو سببُها. يقول الرّازي عن هذه القدرة: " فقوله:﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ مَعْنَاهُ الْقَادِرُ عَلَى الْقُدْرَةِ، وَالْمَعْنَى إِنَّ قُدْرَةَ الْخَلْقِ عَلَى كُلِّ ما يقدرون عليه ليست إِلّا بِإِقْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ الَّذِي يُقْدِرُ كُلَّ قَادِرٍ عَلَى مَقْدُورِهِ، وَيُمْلِكُ كُلَّ مَالِكٍ مَمْلُوكَهُ "[2].

وفي هذا السّياق جاءت قدْرتُه على إيلاج اللّيل في النّهار، وإيلاج النّهار في اللّيل، وإخراج الحيّ من الميّت، وإخراج الميّت من الحيّ .

والوُلُوجُ لغة هو الدّخولُ والزّيادة [3]. وقد فُسِّر إيلاج اللّيل في النّهار وإيلاج النّهار في اللّيل بـ" إيجاد كلّ واحد منْهما عقيب الآخر"[4]. ومنْ ثمّ فهي استعارة لتعاقُب ضوْء النّهار وظلمة اللّيل، فكأنّ أحدَهما يَدْخُل في الآخر. وبِدُخُول أحدِهما في الآخر تزْداد مدّته على مدّة الآخر والعكْس، عدا أيّام الاعتدال وهي لحظات قليلة[5]. وبناء على ذلك، فالمُدّة الزمّنيّة التي تنْقُصْ من اللّيل تدخل في النّهار، والمدّة الزّمنيّة التي تنقص من النّهار تدخل في اللّيل .

---

[1] . التكرير بين المثير والتأثير، ص 216 .

[2] . الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، 8 / 186 .

[3] . لسان العرب ، مادة (ولج) ، 2 / 399 .

[4] . الألوسي، روح المعاني ، 3 / 115 .

[5] . ينظر: التحرير والتنوير، 3 / 214 .

ولعلّ هذا ما جعَل الألوسي يقول في شرْحها: " فجعل بين اللّيل والنّهار نِكاحًا معْنويّا لأنّ الأشياء تتولّد منْهما معا. فكلّ منْهما مُولِج ومولَج فيه وكلّ واحد منْهما لصاحِبه أصْل وبعْل فكلّ ما تولّد في النّهار فأمُّه النّهار وأبُوه اللّيل، وكلّ ما تولّد في اللّيل فأمُّه اللّيل وأبُوه النّهار"[1].

فالغرض من الآيات هو تقرير وتأكيد القدْرة الإلهيّة وتصويرها في أوْسع معانيها وبيان السّلطان في أشمل مظاهره وأكمله. ولا يتمّ ذلك إلا بالجمْع بين الضّدّين، والتّعبير بالعكْس والتّبديل والحُكْم بأنّه يقْدر على الأمْريْن، لأنّه قدْ يقْدر الشّخص على شيْء ولا يقْدر على مُقابِله[2]. ومَنْ كان هذا شأنه فهو ليس بقادر. وهي في مجملها أفعالٌ عظيمة محيّرة للأفهام ــ كما يرى الزمخشري ــ [3]. وفي هذا دلالاتٌ منها: الإشارة إلى تقلّب أحوال الزّمان فقدْ يصير المغلوب غالبا ويصير ذلك الغالب مغلوبا والتّنبيه على تمام القدْرة. وفي هذا إدماج تشبيه الكفْر باللّيل، والإسلام بالنّهار[4].

ومنْ جهة أخرى فاللّون الجليّ في آيات العكْس والتّبديل هو التّكرار، والذي كان له وظيفة بارزة في الإيقاع والدّلالة .

فقد تكرّر في الآية ــ بكميّات منتظمة ــ الفِعْلان « تُولِجُ ، تُخْرِجُ » وحرفا الجرّ « مِنَ ، فِي » تَفْصِلُها الثّنائيّات المتقابلة الآتية:« اللّيل ، النّهار» و« الحيّ ، الميّت »، والمتكرّرة بترتيب متغاير؛ فمَا قُدّم أوّلا أُخّر ثانيا.

والعكْس والتّبديل نمَط تكراري يعتمد على تحويل الشّكل التّعبيري إلى بنية مغلقة، بدايتها هو نهايتها[5]. ما جعَل الألفاظَ والأصواتَ متماثلةً، والتّركيبيْن متقابليْن. والمعاني تنمو عن طريق المُماثلة والتّضادّ [6].

والتّجانس الجزْئيّ بين الصّوتين الأوّل والأخير « التّاء والجيم »، والوزن الصّرفي الواحد في الفعليْن « تُولِجُ ، تُخْرِجُ » أحْدَث تناغما جزئيّا في الآيات، جمَع إلى جانب التّخالف الدّلالي، التّماثلَ والتّنوّعَ. ولعلّ في هذا التّماثل تكْمن أهمّيّة هذا النّوع من المجانسة أكثر من

---

[1] . روح المعاني ، 3 / 116 .

[2] . ينظر: أحمد إبراهيم موسى، الصّبغ البديعي في اللغة العربية ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، 1969 ، وزارة الثقافة ، الجمهورية العربية المتحدة ، د ط ، ص 471 .

[3] . الكشاف ، 1 / 350 .

[4] . ينظر: التحرير والتنوير، 17 / 315 .

[5] . بناء الأسلوب في شعر الحداثة ، ص 381 .

[6] . محمد مفتاح ، مجهول البيان ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1990 ، ص 58 .

غيرها[1]. فتشَابُهُ الأصوات في الألفاظ المتَجانسة يُولّد نغما، وفي الوقت ذاته تُفاجِئ هذه الألفاظ ذهْنَ المتلقّي بما تَحْمله من معان متقابلة ، ومن تداخل و ثراء دلاليّ .

ومن جهة أخرى، فقدْ أحْدث التّجانُسُ بين الأفعال في أصواتها الأولى:« تُؤْتِي... تَنْزِعُ ... تُعِزُّ ... تُذِلُّ ... تُولِجُ ... تُخْرِجُ ...» تناغما عامّا بين الآيات، خاصّة أنّ جميعَها بَدأ بصوْت « التّاء » المضمومة باستثناء واحدة مفتوحة.

ومنْه يظهر السرّ في التّعبير بـ الفعل « تولج » بدلا من « تُدخل »، وذلك لتناغمه مع « تُخْرِجُ » صوتيّا ودلاليّا. إضافة إلى أنّ الوُلُوج يحمل معنى الدّخول والزّيادة. وهو ما يقع للّيل والنّهار؛ فبِدُخُول أحَدِهما في الآخر تزْداد مدّته على مدّة الآخر، وهو ما أشار إليْه المفسّرون[2]. وهذا لا يتحقّق بالتّعبير بالفعْل « تُدْخل » .

ومن جهة أخرى، فالذي يَلِجُ يُسمّى وليجة، وهوكلُّ شَيْءٍ أَولَجْته فِيهِ وَلَيْسَ مِنْهُ. وهي من قولهم: فلان وليجة في القوم: إذا لحق بهِمْ وليس منْهم إنسانا كان أو غيره[3]. والوَلِيجَةُ: الدَّخيلَةُ، وهو ولِيجَتُهُمْ أيْ: لَصِيقٌ بِهِمْ[4]. وهو ما نجده في العلاقة بين اللّيل والنّهار، فهُما مختلفان، ومتلاصقان في الوقت نفسه، ويلج أحدُهما في الآخر، وهو ليس منه. ولعلّ هذا ما أشار إليه الشّعراوي حين رأى أنّ ما في الآية " هو لفْت للانتباه إلى أنّ اللّيل والنّهار لا يفْصل بينهما حدٌّ قاطع بنسْبة متساوية لكلّ منْهما "[5].

ومن جهة ثالثة، فالفعل « تولج » يُفيد الانسيابيّة والسّلاسة، "لِأَنَّ تَقَلُّصَ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ يَحْصُلُ تَدْرِيجًا، وَكَذَلِكَ تَقَلُّصُ ضَوْءِ النَّهَارِ يَحْصُلُ تَدْرِيجًا، فَأَشْبَهَ ذَلِكَ إِيلَاجَ شَيْءٍ فِي شَيْءٍ إِذْ يَبْدُو دَاخِلًا فِيهِ شَيْئًا فَشَيْئًا "[6].

فكان طابعَ الآيات التّكرار والتّجانس والتّقابل بين الألفاظ والتّقديم والتّأخير، ومن ثمّ التّقابل بين التّراكيب. وتشابكَتْ هذه البنيات بأبْعادها الصّوتيّة وتداخلها الدّلالي، وجعلت الآيات مُتّسمَةً بالانتظام والجمال والتّناغم الإيقاعيّ والدّلاليّ، وعبّرت عن المعاني وساهَمت في التّأكيد عليها،

[1] . ينظر: محمد العمري ، تحليل الخطاب الشعري ، ص 160 .

[2] . ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، 2 / 29 .

[3] . لسان العرب ، مادة (ولج) ، 2 / 400 .

[4] . القاموس المحيط ، ص209 .

[5] . تفسير الشعراوي ، الخواطر ، 3 / 1403 .

[6] . التحرير والتنوير، 17 / 315 .

والتّنبيه إليها؛ " فالنّاتج الدّلالي لبنية العكس واسع ومتنوّع، والمهمّ كيفيّة توظيفه، إذ إنّ هذا التّوظيف يختلف من مبدع لآخر ممّا يجعل هذه البنْية من أخصب البنى التي كشف عنها التّفكير البديعي قديما "[1].

وهو ما استغلّه القرآن الكريم في هذه الآيات، فبيّن به معانيه بأوضح وأدقّ وصف. يقول سيّد قطب عن التّصوير في الآيات:"هذه الحركة الخفيّة المتداخلة . حركة الإيلاج وحركة الإخراج ... فإنّ القلب يكاد يبصر يدَ الله وهي تحرّك الأفلاك، وتلفّ هذه الكرة المعتمة أمام تلك الكرة المضيئة، وتُقلّب مواضع الظلمة ومواضع الضّياء. شيئاً فشيئاً يتسرّب غبش اللّيل إلى وضاءة النّهار. وشيئاً فشيئاً يتنفّس الصّبح في غيابة الظّلام. شيئاً فشيئاً يطول اللّيل وهو يأكل من النّهار في مقدّم الشّتاء. وشيئاً فشيئاً يطول النّهار وهو يسحب من اللّيل في مقدّم الصّيف. كذلك الحياة والموت، يدبّ أحدهما في الآخر في بطء وتدرّج. كلّ لحظة تمرّ على الحيّ يدبّ فيه الموت إلى جانب الحياة، ويأكل منه الموت وتبنى فيه الحياة! خلايا حيّة منه تموت وتذهب، وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل"[2].

لقدْ كان للتّقابل بالعكس والتّبديل دورٌ كبير في توْضيح هذه المعاني وإبرازها، فهُو أنْسب تعبير في هذا المقام، ذلك لأنّه يرسم الصّورة بدقّة، ويصفها كما هي؛ فالنّهار واللّيل موجودان دائماً في الوقت نفسه، فوُجُود الأوّل لا يعْني غياب الآخر في الأرض؛ لأنّ هذه الأخيرة كرويّة، والنّهار واللّيل متكوّران عليها ومنْقسمَة إلى قسْميْن؛ غروب الشّمس على أحدِ القِسْميْن يعْني شُرُوقها على الآخر. فنِصْف الأرض المُواجِه للشّمْس يكون نهارا، والنّصف الآخر يكون ليْلا. فعندما تدور الأرض حوْل نفْسها يُصبح النّهار ليْلا، ويُصبح اللّيل نهارا. ومن ثمّ فدُخُولُ اللّيلِ في النّهار في قسْم، يقابله دخُولُ النّهارِ في اللّيل في القسْم الآخر، فيكون التّبادلُ بينهما[3]. وما يُدعِّم هذه الآية، ويُثبِت هذه الفكرة قولُه تعالى:﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ ٥﴾الزمر: 5 . وهي الأخرى، آيةٌ تتَضمّن تقابُلا بالعكْس والتّبديل.

فهذا النّوع من التّقابل المبْنيّ على العكْس والتّبديل يقوم على بنْيتيْن ذات نمط بنائيّ واحد تقريبا مع المغايرة الأسلوبيّة عن طريق التّقديم والتّأخير، وذلك لإظهار المفارقة والاختلاف بين

[1]. بناء الأسلوب في شعر الحداثة ، ص 329 .

[2]. في ظلال القرآن ، 1 / 384 .

[3]. ينظر: مروان وحيد شعبان ، الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث دراسة تاريخيّة وتطبيقات معاصرة ، دار المعرفة ، بيروت ، ط1، 2006 ، ص251 .

الطّرفيْن من جهة، وهو ما يثير القارئ ويجعله منْتبِهًا من جهة أخرى. وفي الوقت نفسه تكشف عن العلاقة والارتباط بينهما؛ "ورغم أنّ عناصرَ بنْية العكْس قد تتوافق تمام الموافقة ... فإنّها تقدّم لنا شكْلا تعبيريّا فريدا يأتي فيه التّقابل من التّوافق، فهُو علامة على تداخل الدّلالات في وعْي المبْدع أوّلا، ثم تداخلها على مسْتوى الصّياغة ثانيا "[1].

ولعلّه يتّضح لنا هنا أنّ التّقابل بالعكْس والتّبديل يَكْثُر في أمثال هذه المعاني والإشارات الكونيّة الدّالة على قدرة الله تعالى على الخلْق، وعلى الجمْع بين المتقابليْن المترابطيْن المتكامليْن في هذا الكون، لتَصْويرهما والتّعبير عنْهما بدقّة .

[1] . محمد عبد المطّلب ، بناء الأسلوب في شعر الحداثة ، ص 322 .

3 ــ التّقابل بالجمْع والتّفريق والتّقسيم:

عَرّف القزويني مصطلحات؛ الجمْع والتّفريق والتّقسيم بقوْله في الأوّل:"هو أنْ يجمَع بين شيئين أو أشياء في حُكْم واحد"[1]. وقوله في التّفريق:"هو إيقاع تباين بين أمْريْن من نوْع واحد"[2].

أمّا التّقسيم فقد عرّفه بقوله: " هو ذكر متعدّد، ثم إضافة ما لكلّ إليه على التعيين"[3].

ومنه يظهر أنّ بين الجمْع والتّفريق ضدّيةً، وبين التّفريق والتّقسيم تشابها، وهُما العلاقتان اللّتان أباحتا للبلاغيين في تنظيرهم الجمعَ بينهما، معتمدين في ذلك على ما وجَدوه في كلام العرب. لذلك نجد عندهم إضافة إلى ما ذُكر مِن مصطلحات؛ «الجمْع مع التّفريق»،" وهو أنْ يُشبّه بشيء واحد ثم يُفّرق بينهما في وجه الشّبه"[4]، أي أنْ يشترك الشيئان أو أكثر في حكم واحد، ثم يفرّق بينها. و« الجمْع مع التّقسيم» وهو" أنْ تجْمَع أمُورا كثيرة تحت حُكْم ثم تُقسّم أو تُقسِّم ثم تجْمَع"[5]. وقدْ نجد هذه الألوان الثّلاثة في الكلام الواحد، فيجتمع الجمْع مع التّفريق والتّقسيم في بنية واحدة[6]. وقد جمع أحدُ المحدثين كلّ هذه الأنواع تحت التّركيب والتّحليل، لأنّه ــ كما يرى ــ اسمٌ مناسب لها، فثمّ صلة بينها؛ كوْنها جميعا تعتمد على طرفيْن أحدهما يبدو مركّبًا كلّيًّا، والآخر يُشكّل تحليلا لذلك المركّب[7].

ففي الجمْع نقاطُ التِقاءٍ، والمركّبُ يَجْمَع في الكلام عناصرَ ويذكرها إجمالا. وفي التّفريق والتّقسيم نقاطُ اختلاف، والتّحليلُ يُفَرّق ويُقسّم هذه العناصر ويذكرها تفصيلا .

وكما سبقنا القوْل في بداية الفصْل، فالجمْع والتّفريق والتّقسيم تلتقي بالتّقابل عندما تكون العناصر المفرّقة والمقسّمة فيها متقابلةً، يقول أحدهم:" نجد أنّ هناك تقارُبا بل تداخلا بين التّقسيم والمقابلة والتّفسير، فهي تلتقي في ذكر أطراف ومقابلتها بأطراف أخرى موافقة أو مخالفة مرادفة أو مفسّرة"[8]. وقد ركّز العلويّ في هذا التّقارب والالتقاء بين أطراف التّفريق على علاقة

---

[1] . القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ص303 .

[2] . نفســـه ، الصفحة نفسها .

[3] . نفســـه ، الصفحة نفسها .

[4] . العلويّ ، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، 3 / 78 .

[5] . فائز القرعان ، دراسة أسلوبيّة في النّص القرآني ، عالم الكتب الحديث ، أربد ، الأردن ، ط1، 2004 ، ص6 .

[6] . ينظر: المرجع نفســه ، ص7 .

[7] . ينظر: المرجع نفســه ، ص3 .

[8] . محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، ص455.

التضّاد، عندما عرّفه بقوله: " أنْ تعمد إلى نوعيْن يندرجان تحت جنس واحد فتُوقع بينهما تباينا في المدْح أو الذّمّ أو غيرهما"[1]. وهو ما وُجد في هذه الآيات:

يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ هود:105- 108 .

هذه الآيات تتناول الحديثَ عن يوم القيامة وحالة النّاس فيه، و يُمكن أنْ نقسّمها إلى ثلاثة أقسام هي:

أ – ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ .

ب – ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ .

ج – ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ .

فقدْ عمّم القسمُ الأوّل من الآيات جميعَ الأنفس الحاضرة يومَ القيامة دون أنْ يُفصّل فيها وفي حالتها. لذلك فقَد أطلق العلماء عليه « الجمْعَ » كونه جامعا عامّا لا يخصّ هنا نفْسا بعينها.

ثمّ خرَج في القسْم الثّاني من عُمُوم النّفس، ليُحدّد منْها اثنيْن متقابليْن دون التّفصيل فيهما؛ شقيّ وسعيد. وهو ما سمّاه العلماء «التّفريق» ، لكوْنه فرّق وميّز بين نوعيْن من النّفس.

ليأتي في القسم الثّالث والأخير التّفصيلُ في حالة النّوعين؛ لذلك فقد وردَتْ في بدايته « أمّا » الشّرطيّة التي تفصّل ما بعدها. وهو ما أُطلِق عليه « التّقسيم » .

يعلّق القزويني على هذه الآيات قائلا:" أمّا الجمْع ففي قوله:﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴿١٠٥﴾ ﴾ فإنّ قوْلَه (نفس) متعدّد معنى؛ لأنّ النّكرة في سياق النّفي تعمّ، وأمّا التّفريق ففي قوله:﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾. وأمّا التّقسيم ففي قوله:﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ ﴾ إلى آخر الآية"[2].

---

[1]. العلويّ ، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، 3 / 78.

[2]. القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة ، ص 305 . والتّحليل نفسُه لـ: الحسيني، فتح البيان في مقاصد القرآن ، 6 / 244.

أمّا (معجم البلاغة العربيّة) فيقول عنها:" جمَع الأنفس، ثم فرّق بينهم بأنّ بعْضهم شقيّ وبعضهم سعيد، ثم قسّم بأنْ أضاف ما إلى الأشقياء ما لَهُم من عذاب النّار وما إلى السّعداء ما لهم من نعيم الجنّة"[1]. وقدْ خالَف العلويُّ ذلك، فأطلق على القسْم الأخير التّفريق[2]. في حين أنّ البقاعي صنّف الآية ضمْن اللّفّ والنّشر[3]. ولعلّ هذا ما يُثبت عدم اتّفاق العلماء حول هذه الألوان البديعيّة.

ومنْه فقدْ اجتمع في الآية الجمْع والتّفريق والتّقسيم، وهو ما يبيّنه الشّكل الآتي:

شَقِيٌّ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ ...﴾

الجمْع﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ التّفريق التّقسيم

سَعِيدٌ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ ...﴾

فالآيات بدأتْ أوّلا بمقدّمة تتضمّن الإجْمال الأوّل «نَفْسٌ»، ثمّ الإجْمال الثّاني «شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ» وتبيّن حالة هؤلاء النّاس في هذا اليوم ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾. والمقدّمة المُجْملة ضروريّةٌ لتّشويق السّامع إلى الخبر والانتباه إلى تفاصيله. ثمّ انتقلت إلى تفصيل حالتيْ الفريقيْن. وهي" أبنية متشابهة من حيث الخصائص البنائيّة، إذْ إنّها تأخذ نمطا أسلوبيّا واحدا يعمد في الأصل إلى ذكر شيء في صورة إجماليّة ثم يُفصلّه إلى عناصر مختلفة"[4]ـ كما سبق ـ ؛ فقدْ تدرّجت الآيات بالسّامع إلى التوسّع والتّفاصيل شيئا فشيئا.

وفي هذا التّدرّج، والتّفصيل بعد الإجمال حِكمٌ وأسرار نفسيّة، ذلك لأنّ" في البيانِ، إذا ورَدَ بعدَ الإبهامِ وبعدَ التَّحريك له، أبداً لطفاً ونبلاً لا يكونُ إذا لم يتقدَّمْ ما يُحرِّكُ"[5]. ومن الوسائل التي تحقّق ذلك التفريقُ والجمْع والتقسيم المعتمدة على التّقابل، والتي يقول عنها العلويّ (ت745هـ): "هذه الأمور الثلاثة من عوارض البلاغة، وإذا وقعت في الكلام بلغ مبلغا عظيما في حسن التأليف وإعطاء الفصاحة حقّها"[6]. فالقرآن الكريم يعرف كيف يصل إلى سامعه ويؤثّر

[1] . بدوي طبانه ، معجم البلاغة العربيّة ، ص 131 .

[2] . ينظر: العلويّ ، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، 3 / 202 .

[3] . ينظر: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور ، 9 / 381 .

[4] . فايز القرعان ، دراسة أسلوبيّة في النّص القرآني ، ص 8 .

[5] . الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص 164 .

[6] . العلويّ ، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، 3 / 78 .

فيه، إضافة إلى" أنّ العقل يتحرّك مع التّركيب والتّحليل منطلقا من الفكرة الكلّيّة العامّة إلى عناصرهما"[1].

ولمّا كان موضوع الآيات هو يوم القيامة، وكان فيه النّاس صنفيْن، فإنّ التّقسيم فصّل في الحالتيْن المتقابلتين السّابقتيْن بدقّة، وهما" الشّقيّ الذي وجبت له النّار لإساءته، والسّعيد الذي وجبت له الجنّة لإحسانه"[2]. واختار لهُما الاسم المحدّد؛ لأنّه يدلّ على الثّبوت. ومن ثمّ فالشّقاء ثابت لِمَنْ نُعت بالشّقيّ، والسّعادة ثابتة لمَنْ نُعت بالسّعيد[3].

الحالة الأولى:﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾هود: 106- 107.

الحالة الثّانية:﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ هود: 108.

ويظهر الفرْق بينهما في الآتي:

• قدّم «الشّقيّ» على «السّعيد»؛ لأنّه سبق الكلام على الأشقياء من الأمم المعذبّة[4]، ولأنّ المقام مقام الإنذار والتّحذير[5]. يقول البقاعي:" ولمّا كان أكثر الخلق هالكاً مع أنّ المقام مقام تهديد وتهويل، بدأ تعالى بالأشقياء"[6]. حيث وردَتْ بين آيات (من 100 إلى 123 آخر السّورة) شكّلت خاتمةَ السّورة اشتملت على تعقيبات شديدة الاتصال بسياقها في أداء أهدافها. ومن هذه التعقيبات اتّخذ ممّا نزل بالقرى من عذاب موحيا بالخوف من عذاب الآخرة الذي يعرض في مشهد شاخص من مشاهد يوم القيامة[7]، بِذكْر العبرة من سرْد قصص المرسلين، وما حلَّ بأُمَمِهم من النّكال والدّمار، وهي أنْ تكُون شاهداً على تعجيل العقوبة للمكذّبين والانتقام العاجل منهم

[1] . ينظر: فايز القرعان ، دراسة أسلوبيّة في النّص القرآني ، ص 3 .

[2] . الكشاف ، 2 / 429 .

[3] . ينظر: تفسير الشعراوي ، الخواطر ، 1 / 4300 .

[4] . ينظر: السامرائي ، على طريق التفسير البياني ، 3 /319 .

[5] . روح المعاني ، 12 / 141 .

[6] . ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، 9 / 381 .

[7] . ينظر: في ظلال القرآن ، 4 / 1926 .

وبرهاناً على تأييد الله لأوليائه وأنبيائه[1]. فالتّعبير القرآني يلائم سياقه ويندمج معه، ويعطي الأولويّة إلى مِحْور السّورة .

• أسْند الشّقاء إلى الأشقياء ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾، ولم يقل: «أُشْقُوا»، ليدلّ على أنّ ذلك بما قدّمت أيديهم فهُم الذين أشقوا أنفسهم المعذّبة. أمّا في السّعداء فقال:﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾ بالبناء للمجهول ليدلّ على أنّ الله هو الذي أسعدهم برحمته وفضله[2]. وهذه عادة القرآن الكريم أنّه ينزّه الله تعالى عن أمثال هذه المعاني التي لا يُمكن أنْ تَصْدر عنه. يقول الألوسي:" وما ألطف الإشارة في – شقوا وسعدوا – على قراءة البناء للفاعل في الأوّل والبناء للمفعول في الثاني فمن وجد ذلك فليحمد الله تعالى ومن لم يجد فلا يلومنّ إلا نفسه"[3].ومن ثمّ فهُمْ الذين اختاروا الشّقاء؛ وأتوا به لأنفسهم؛ لأنّ الحقّ سبحانه ترك لعباده حقّ الاختيار؛ وأنزل لهُم المنْهج؛ ليَصُونوا أنفسهم؛ وأعان من اختار الإيمان على الطّاعة [4].

• بَايَنَ بيْن الفاصلتيْن رغم أنّ ما قبْلَهُما كان نفْسَه:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ ... خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ ... خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

والإيقاع انْعكاس للدّلالة وتعبير عنها، ومن ثمّ ورد التبايُنُ الدّلالي. فقد خُتمت آية السّعداء بالعطاء غير المقطوع ولا المكسور ولا المفصول...لأنّهم لو انْفكّوا من النّعيم لحظة لكان منقوصاً؛ وفي هذه الفاصلة جزمٌ بالدّوام طمأنينةً لأهل الجنّة زيادة في نعيمهم، عَكْس ما كان لأهل النّار من زفير وشهيق[5]. وهُما إخراج الأنفاس بدَفْع وشدّة بسبب ضغْط التنفّس، واجتلاب الهواء إلى الصّدر بشدّة لقوة الاحتياج إلى التّنفس؛ تنفيرا من أسباب النّار، وتخويفا من الألم[6]." ونحن نعلم أنّ الذي يتنفّس في النّار سيُخْرِج الهواء من صدره ساخناً مثلما يأخذ الشّهيق ساخناً"[7]. وهنا تظهر الفوارق ويتجلّى البُعْد بين الفريقين؛ الأشقياء والسّعداء، وتتّضح سمات كلّ

---

[1]. الصابوني ، صفوة التفاسير ، 2 / 29 .

[2]. ينظر: السامرائي ، على طريق التفسير البياني ، 3 / 324 .

[3]. روح المعاني ، 12 / 146 .

[4]. تفسير الشعراوي ، 1 / 4301 .

[5]. ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور ، 9 / 384 .

[6]. التحرير والتنوير، 12 / 165 .

[7]. تفسير الشعراوي ، 1 / 4301 .

فريق؛ لأنّ" خير أسباب الإيضاح هو التّعبير عن المعاني والأفكار عبر مقابلاتها ومماثلاتها، وإيرادها على نسق تقابلي ممْتع تتضاف إليه العبارة الأنيقة، والأسلوب الممتع"[1].

4 ــ التّقـابل بالحـذْف: الحذْف لغة من حذَفَ الشّـيءَ يَحْذِفُه قَطَعَه من طَرَفه ... والحِذْفةُ القِطْعة من الثّوب وحذَف رأْسه بالسّيف حَذْفاً ضربه فقطَع منه قِطْعة. والحَذْفُ الرَّمْيُ[2]، يقال: حذفته بالعصا أي رميْته بها، والحذَفٌ: بطّ ، وغنم بلا أذناب ولا آذان[3]. ومنه فالحذْف يحمل معاني القطْع والرّمْي .

أمّا اصطلاحا فهو إسقاط جزء الكلام أو كلّه لدليل[4]. ويكون هذا الإسقاط في حرف، أو كلمة مفردة، أو جملة .

وللْحذْف أهميّة كبرى في الكلام، وفيه لطائف ومحاسن وجماليّات كثيرة، لذلك عدّه البلاغيون من دقائق اللّغة، وعجيب سرّها، وأشاد البيانيون به كثيرا، وأفصحوا عن ملامحه الجماليّة فقعدوا له قواعده ووضعوا شروطه وأظهروا مزايا ه[5] . من ذلك اعتبره ابن جنّي(ت356ه) شجاعة العربيّة[6]. ويقول عنه الجرجاني (ت471ه):" هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسّحر، فإنّه ترى به ترك الذّكر أفصح من الذّكر، والصّمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجدك أنْطق ما تكون إذا لمْ تنطق وأتمّ ما يكون بيانا إذا لمْ تبن"[7]. فهو بذلك يرفع الكلام إلى مراتب عالية من البلاغة .

وقدْ توسّعت العربيّة في الحذْف وتناوله النّحاة والبلاغيون، وبيّنوا أنواعه وأغراضه. فالأصل في الكلام الذّكر، لكن المتكلّم يلجأ إلى الخروج عن هذا الأصل لدواع نحويّة أو بلاغيّة جماليّة متّصلة بالمعنى، فيحذف ما أصله أنْ يذكر.

---

[1] . محمد بازي ، " التقابل وبلاغة الحجاج في كتاب إحياء علوم الدّين للغزالي" ، الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة ، إعداد وتقديم : حافظ اسماعيل علوي ، الجزء الثاني: الحجاج مدارس وأعلام ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ط1 ، 1431 ، 2010 ، ص 136 .

[1] . لسان العرب ، 9 / 40 .

[2] . الفيروزبادي ، القاموس المحيط ، ص 799 .

[4] . البرهان ، 3 / 67 .

[5] . ينظر: خصائص التعبير القرآني ، 2 / 5 .

[6] . ابن جني ، الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب ، بيروت ، د ط ، د ت ، 2 / 360 .

[7] . الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص 146.

وقدْ ورَدَ الحذف في القرآن الكريم كثيرا، وفي مواضع متعدِّدة فاهتمّ العلماء بدراسة ما فيه من محذوفات، وعن طريقه ضبطوا شروط الحذف وأنواعه، وتبيين أسراره وفوائده؛ " فكلّ موضع حُذِف في القرآن منْه شيء فالحذْف فيه أبْلغ من الذّكر"[1]، ذلك لأنّ له وظيفة دلاليّة وجماليّة يؤدّيها محذوفا أفضل منْه مذكورا .

وقدْ اشْترط العلماء لصحّة الحذْف وُجُودَ دليلٍ مقاليّ أو مقامِيّ يختلّ به المعنى[2]. منْها أنْ يجتَمع في الكلام طرفان متقابلان، فيقَع الحذفُ في أحدِهما، ويدلّ عليه الآخر. وفي هذه الحالة تتَضمّن الآية تقابلا وحذْفا في الوقْت نفسه. والحذْف هنا نوعان، إمّا أنْ يقع جزئيّا، ويكون في (الاحتباك) أو كليّا ويكون في (الاكتفاء) . وسنتطرّق للنّوعيْن بالتّمثيل والتّحليل .

أ ـ **الاحتباك:** عرّفه البلاغيّون بقولهم: " وَهُوَ أَنْ يُحْذَفَ مِنَ الْأَوَّلِ مَا أُثْبِتَ نَظِيرُهُ فِي الثَّانِي وَمِنَ الثَّانِي مَا أُثْبِتَ نَظِيرُهُ فِي الْأَوَّلِ"[3]. وأطلق عليه الزّركشي اسمَ (الحذف المقابلي)، وعرّفه بقوله:" وهو أنْ يجتمع في الكلام متقابلان فيُحذف من واحد منْهما مقابله؛ لدلالة الآخر عليه"[4].

ومنه فالاحتباك هو حذفٌ يقع في التّقابل؛ حيث يُحذف جزءٌ من كلّ طرف ليكون الآخرُ دليلا عليه. وقد اعتبره عبد الله صوله عُدولا كميّا بالنّقصان، وذا أبْعاد حجاجيّة[5].

مِنْ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ الأنعام 17.

تضمّنت الآية شرطيْن متقابليْن تُبيّن فيهما سلطانَ الله تعالى وقدرته على الضّرّ والخير. ومنْ خلال المقارنة بين طرفيْ التّقابل في الآية نلاحظ أنّ « الخير» و« الضّرّ» لا يتقابلان معجميّا، فالتّقابل يكون بين « الضّرّ والنّفع » وبين « الخير والشّرّ». ومن ثمّ فالعنصران المحذوفان في الآية هُما « الشّر والنّفع »؛ فحذَف من الطّرف الأوّل ما كان في الثّاني دليلا عليه، وحذَف من الثّاني ما كان في الأوّل دليلا عليه. فيَكون التّقدير التّام للآية كالآتي:

وإنْ يمْسسْك الله بضرّ [وشرّ] فلا كاشف له إلّا هو وإنْ يمْسسْك بـ [نفع] وخير...

---

[1] . المطعي ، خصائص التعبير القرآني ، 77/2 .

[2] . ينظر: البرهان،71/3. البلاغة العربية،43/2. السامرائي، الجملة العربية، دار الفكر،عمان، الأردن، ط2002،1، ص81.

[3] . السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ط،1974، 204/3 .

[4] . البرهان ، 3 / 84 .

[5] . ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبية ، ص 387 .

يقول ابن عاشور:" فكأنّه قيل: إن يمْسسْك بضرّ وشرّ وإنْ يمْسسْك بنفْع وخيْر. ففي الآية احتباك"[1]، وتقابلٌ غير مُكْتَمل بسَبَب الحذْف، " وهذا من بدائع القرآن وإيجازه الرائع"[2]. فيُتيح هذا الحذْف للقارئ أنْ يتَدخّل بفكْرِه ويُشارِك في الكلام، ويملأ فراغاته، ويُكْمل نُقصَه." فيكون قدْ نقلَ السّامع منْ متلقّ حياديّ للخطاب إلى مشارك فيه ومُنْجز له. ومنْ ناحية أخرى يَفرض عليه الاهتمامَ بالعمليّة التّواصليّة بجميع أطرافها[3]، ويدعوه للتأمّل وفكّ خيوط هذا الكلام المحتبك، باستحضار العناصر الغائبة بفضل العناصر الحاضرة، وبناء على ما توفّر من معطيات السّياق. لأنّ المتلقّي يرى في العناصر الغائبة عن الكلام خروجًا عن أصْل التّعبير، وإخلالاً بتوازنه. وفي هذا الإخلال، ورحْلةِ البحْثِ عن الغائب إتاحةٌ للتّأويلات واستمدادٌ للذّة والمتْعةِ الجماليتيْن[4].وفي هذه الحالة" صار الحذْف ذكْرا بقراءة القارئ"[5]، ومصْدرا للتّفاعل مع الخطاب.

إضافة إلى ذلك فَعَدَمُ الاكتمال سبَبٌ للطّاقة الحجاجيّة؛ ذلك لأنّ كلمة «شرّ» المحذوفة في الطّرف الأوّل تأتي لبيان نوْع «الضّرّ» وتهويله فهُو ليس ضرّا هيّنا، وإنّما هو من قبيل الشّرّ. وأنّ كلمة « نفع » المحذوفة في الطّرف الثّاني تأتي لبيان النّتيجة اللّازمة من هذا الخير فهو نفع . فإذا الضّرُّ شرٌّ، والخيرُ نَفْعٌ. وهي خصوبة دلاليّة[6] لا توجد في غير الحذْف .

ومنْ جهة أخرى فالتّعبير تحاشى أنْ يَصدُر من الله الشّرّ، فلمْ يُصرّح بـ « يمْسسْك بشرّ»، خلافا للخيْر، فحقّقت الآية بالحذْف ما لا يتحقّق بالذّكر؛ من مراعاةٍ للسّياق والتّعبير المناسب، وإشْراك المتلقّي والتّكثيف الدّلاليّ والجماليّة... وهو ما يُساهم في التّرغيب والتّرهيب، والتّأثير والاقتناع. لذلك فإذا ظهر المحذوف زال ما في الكلام من بهجة وطلاوة وجمال فنيّ وإبداع[7]. ولعلّ هذا ما جعل السّيوطي يقول عن هذا النّوع من الحذف: "هو منْ ألْطف الأنواع وأبْدَعها

---

[1] . التحرير والتنوير، 7 / 163 .

[2] . الميداني ، البلاغة العربية ، 2 / 55 .

[3] . بلقاسم حمام ، آليات التواصل في الخطاب القرآني ، ص 214 .

[4] . ينظر: سلوى النجار، جماليات العلاقات النّحويّة في النص الفنّي ، مطبعة التسفير، صفاقص ، ط1، 2006 ، ص 62 .

[5] . محمد الأمين خلادي ، إعجاز اللغة السردية في القرآن الكريم ، مجلة مجمع اللغة العربية ، دمشق، محرم 1430هـ / كانون الثاني 2009 ، الجزء الأول ، المجلد: 84 ، ص 122 .

[6] . ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال خصائصه الأسلوبية ، ص 416 .

[7] . ينظر: الميداني ، البلاغة العربية ، 1 / 330 .

وقلّ مَنْ تَنبّه إليْه أو نبّه عليْه مِنْ أهْل فنّ البَلاغة"[1]. وجعَل أحَدَ المُحدثين يرى فيه قوّةً وزينة للكلام، ويرى في أسلوبه ميزانا دقيقا حسّاسا[2].

ب ـ الاكتفاء :

وهو" أنْ يقتضي المقام ذكْر شيئين بينهما تَلازُمٌ وارتباط ؛ فيُكتفى بأحَدِهما عن الآخر... ثم ليس المُراد الاكتفاء بأحَدِهما كيف اتّفق؛ بلْ لأنّ فيه نُكتة تقتضي الاقتصار عليه"[3]. فيُكتفى بالعامّ عن العنْصر الجزئي، وبالأبْعَد عن الأقْرب، وبمَا يَهمّ المُتلقّي عمّا لا يَهمّه، وبما يُرغّب عَمّا ينفّر، وبالمقابل عن مقابله...[4] ومن ثم فهُو أنْواع .

وتَتَعلّق هذه النّكتة التي تقْتضي الاقتصار على عنْصر الاكتفاء بأهميّة كلّ عنصر في الكلام، وغرض التّعبير وسياقه العام، والتّناسب والجماليّة... حتى" توجّه فهْمَ المتلقّي الوجْهَة التي يُريدُها الخطاب"[5].

ومن الأنواع التي تهمّنا في موضوعنا، هو النّوعُ الأخير، أيْ الذي يعتمد على التّقابل. وهو" أنْ يقتضي الكلام طرفيْن فيذكر طرف منه ويترك الطّرف الآخر لوُضُوح المعنى الذي يتعلّق به من ذكْر مقابله"[6]. وقد أطلق عليه أحدهم (التّقابل الضّمني)، لأنّه يكون في الكلام طرفٌ واحد، والآخر محذوفٌ يُفهم ضمنيّا. وعرّفه بقوله: "أنْ يذكر أحد المتقابليْن، ويفْهم المقابل الآخر بطريقة ضمنيّة والمعْيار في ذلك هو سياق الكلام"[7]، ووُجود قرائن لغويّة وأدلّة تبيّن أنْ هناك حذفا.

فاللّونان البديعيان؛ (الاحتباك)، وهذا النّوع من (الاكتفاء) أو التّقابل الضّمني يشْتركان في التّقابل وفي الحذْف، ويختلفان في نسْبة هذا الحذْف . فإذا كان اللّون الأوّل يُحذف فيه جزءٌ من طرف التّقابل ويبقى الجزْء الآخر، فإنّ في اللّون الثّاني يُحذف الطّرفُ كلُّه، ويبقى الطّرف الآخر دليلا عليه. "وهذا يعني أنّ الحذْف عارض تركيبي لا يُلغي المحْذوف تماما، بل يُغيّبه

---

[1] . السّيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، 3 / 204 .

[2] . ينظر: المطعي ، خصائص التعبير القرآني ، 2 / 73 ، 74 .

[3] . الزركشي ، البرهان ، 3 / 78 . وينظر أيضا : الميداني ، البلاغة العربية ، 2 / 48 .

[4] . ينظر: عبد الله صوله ، الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية ، ص 418 ، 419 .

[5] . المرجع نفسه ، ص 420 .

[6] . السامرائي ، الجملة العربية تأليفها وأقسامها ، ص 76.

[7] . أحمد أبو زيد ، التناسب البياني ، ص 147 .

في البناء الظاهريّ، ويتستّر عليه في ذهْن المتلقّي مؤقّتا لغايات جماليّة وفنيّة"[1] وأغراض دلاليّة لا تكون في النّكر. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾الحديد:10 .

هذه الآية من سورة (الحديد) تتضمّن حثّا على الإنفاق في سبيل الله، لأنّ المال عرضٌ زائل لا يبقى منه لصاحبه إلّا ثوابُ ما انفق منه في مرضاة الله[2]. ومن ثمّ فهناك فرْق بين المنفقين والمجاهدين قبل الفتْح وبعده؛ وذلك للفرْق الكبير بين الزمانيْن؛ فقدْ كان الزّمان الأوّل قبْل عزّ الإسلام وقوّة أهلِه ودخول النّاس في الدّين وقلّة الحاجة[3]. لذلك كان الإنفاق والجهاد وقتَها شاقّين على النّفوس. وبالمقابل كان أهل الكفر يتمتّعون بكل مظاهر القوّة. ومن ثمّ " فالذي يُنْفق ويُقاتل والعقيدةٌ مطاردةٌ، والأنصار قلّة، وليس في الأفق ظلّ منْفعة ولا سلطان ولا رخاء. غير الذي يُنفق ويُقاتل والعقيدة آمنة، والأنصار كثرة، والنّصر والغلبة والفوز قريبة المنال"[4]. فقدْ حذفت الآية الطّرفَ المقابل كلّه، واكتفت بطرف واحد فقط ، وتقديرها هو:

[﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ ﴿١٠﴾﴾ ومَنْ أنفَقَ مِنْ بعْده (الفتح) وقاتَلَ] .

فما أدِلّة الحذْف إذن ؟ وما السرّ في اكتفاء الآية بالطّرف الأوّل؟

بناء على ما سبَق وردَتْ الآية في سياق التّقابل بين الصّنفين؛ المنفقين والمقاتلين قبل الفتح وبعده، وذلك للمقارنة وإظهار المفاضلة بينهما، ودفْعا للتّوهّم من أنّهما متساويان في الأجر. وهو ما أرادت الآيات تبْيينه. فالمقام يقتضى ذكرَهما، لِما بيْنهما من التّلازم .

لا شكّ أنّ السّياق البعيد والقريب للآيات يُوضّح المحذوفَ، ويُرشِد إليه؛ لأنّ للْحذْف في الكلام سياقا يقع فيه، وأدلّةً يعتمد عليها، والمتكلّم عامّة لا يلجأ " إلى الحذْف ليحقّق خلَلا ما في النّص، بل العكس؛ إذْ إنّ للْحذْف جماليّات وأغراضا كثيرة "[5].

---

[1] . صالح ملا عزيز ، جماليات الإشارة النّفسيّة في الخطاب القرآني ، ص215 .

[2] . التّحرير والتّنوير، 27 / 355 .

[3] . الكشاف ، 4 / 474 .

[4] . في ظلال القرآن ، 6 / 3484 .

[5] . علم اللّغة النّصي ، 2 / 207 .

فسورة (الحديد) اعتنت بالتّشريع والتّربية والتّوجيه وبناء المجتمع الإسلامي السّليم، ومن ثمّ فهي مبنيّة على ثلاثة مواضيع رئيسة اثنان منْهما: وجوب التّضحية بالنّفْس والنّفيس، وتصوير حقيقة الدّنيا بما فيها من بهرج ومتاع خادع[1]. لذلك فقدْ وردَ في الآية:(7) حثٌّ على الإنفاق في قوله تعالى:﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ الحديد:7. وفي بداية الآية المدْروسة ورَدَ قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أمّا ما يُبيّن الحذْف ويدلّ على التّقابل فهو قوله تعالى:﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم﴾، "والاستواء يطلب اثْنيْن"[2]؛ مُنْفِقا ومُقاتِلا قبل الفتْح، ومُنْفِقا ومُقاتِلا بعْدَه." فحَذَفَ الطّرفَ الثّاني لوُضوح الدّلالة "[3]. زيادة على ذلك فآخِرُ الآيةِ وضّح المحذوف:﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ ۝١٠﴾. يقول البيضاوي:" وقَسيم مَنْ أنْفقَ محْذوف لوُضُوحه ودلالة ما بعده عليه"[4].

ففي الآية تصريحٌ بالأفْضل، وتقديمٌ له في الكلام، والإشارة إليه مرّة أخرى (أولئك) بعْد ذِكْرِه ... ما يدلّ على الرّفْع منْ شأنه. يقول الألوسي:" (أولئك) إشارةٌ إلى مَنْ أنفقَ ... وما فيهِ مِنْ مَعْنى البُعد مع قُربِ العهْدِ بالمشارِ إليهِ للإشعارِ ببُعدِ منْزلتِهم وعلوِّ طبقاتِهم في الفضْلِ"[5]. إضافة إلى أنّه أخبر عنهم بضمير المفرد﴿مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ ۝١٠﴾. وفي هذا دلالة على الأجْرِ العظيم والفضْل الكبير لكلٍّ منْهم على حدَة. ولعلّ ما يُثبت ذلك هو قوْلُ النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ فيهم: « لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي. فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً، ما أدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، ولا نَصِيفَهُ»[6].

وبالمقابل حذَف المنْفقين والمقاتلين بعْدَ الفتح كطرف مقابِل؛ فقاعدة الحذْف عند علماء النّصيّة تعْني أنّ أيّة معلومة قليلة الأهميّة وليْستْ جوْهريّة يُمكن أنْ تُحذف[7]. وأخْبَر عنْهم بأنّ لهُمْ فضْلا، لكنّه أقلّ من الطّرَف المذْكور﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ

---

[1] . ينظر: الصابوني ، صفوة التفاسير ، 3 / 300 .

[2] . ينظر: السامرائي ، الجملة العربية تأليفها وأقسامها ، ص81 .

[3] . الكشاف ، 4 / 474 .

[4] . البيضاوي ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، 5 / 186 .

[5] . أبو السعود ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د ط ، د ت ، 7 / 54 .

[6] . صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة ، ط1 ،1991، كتاب فضائل الصحابة ، 4 / 1968 .

[7] . ينظر: صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النّص ، ص 238 .

﴿ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ١٠﴾ الحديد:10، ومن ثمّ نستطيع القوْل أنّه لم يُغيّبْهم تغييبا كليًّا، وأنّه فضّل الطّرف الأوّل عنه دون أن يُنقص من قدره. لذلك فقدْ أعطى كلّ طرف قدره وحقّه في التّعبير، وناسَب معانيه، وعبّر عمّا يريده بدقّة .

وإذا كان الحذْفُ قدْ وسّع في الدّلالة وكثّفها، وفتَح الباب للتّأويلات، فإنّه أيضا أوجز الكلام واقتصد فيه بنسبة كبيرة، بأنْ غابَ شطرُه المُتمثّل في طرف التّقابل كلّه، فتكون الآيات قد جمعَتْ بالتّالي بين " التّضييق في اللّفظ والتّوسيع في الدّلالة "[1].

وهكذا" فالحذْف ظاهرة جماليّة وقدْرة إيحائيّة وصيَغ تعبيريّة تثير الاهتمام وتلفت النّظر وتبعث على التّفكير وإشْراك المتلقّي في الرّسالة الموجّهة إليه"[2]، وفي إنتاج الدّلالة وتكثيفها وتفعيلها... فالتّعبير يَفْرض على المتكلّم الحذْفَ لدَواع بيانيّة وأسْباب جماليّة، فيُناسب بالتّالي السّياق ويُعبّر حسْب مقتضى الحال، ويثير التّركيبُ القارئَ، ويُحقّق الخطابُ غرضَه... كلّ هذا ما كان أنْ يتحقّق بغير الحذْف، ومن ثمّ" فإنّ كلّ محْذوف في القرآن الكريم ما كان ينبغي إلّا أنّ يكون محذوفا"[3].

والخُلاصة أنّ الخطاب القرآني الْتقط هذه الأشكال التّقابليّة؛ اللّفّ والنّشْر، والعكْس والتّبديل، والجمْع والتّفريق والتّقسيم ، والاحتباك والاكتفاء ... ليحقّق المتْعة ويجني المنفعة[4] من خلال التّعبير عن معانيه بدقّة، وإثارة المتلقّي وإشراكه في الكلام . وتتحدّد هذه الأشكال اعتمادا على تغيير بنية التّقابل. وبناء على هذه البنية حَدّد البلاغيون المصطلحَ البديعي، فاختلفت بالتّالي عندهم المصطلحات وتعدّدت، لاختلاف وتعدّد الأشكال والعلاقات. فالتّغيير إمّا بإعادة ترتيبها عن طريق اللّفّ والنّشر أو تقديمها وتأخيرها عن طريق العكْس والتّبديل، أو بحذْفِ بعْضِ عناصرها عن طريق الاحتباك والاكتفاء، أو بتوزيعها عن طريق الجمْع والتّفريق والتّقسيم. والذي يُحدّد ذلك هو السّياق وغرضُ الآية وما تريد تبليغَه من معان، والإشارة إليْه من دلالات، وغرض السّورة عامّة . لكنّ جميعها يعتمد على التّقابل، وهو أساسها. ومن ثمّ نستطيع أن تُدرجها تحته، وهي في أصلها تقابل مُجزّأ العناصرِ أو مشوّشَ التّرتيب. ولعلّ وضْعَها تحت

---

[1] . صالح ملا عزيز، جماليات الإشارة النفسيّة في الخطاب القرآني ، ص 215 .

[2] . النسق القرآني دراسة أسلوبيّة ، ص 677 .

[3] . مصطفى عبد السلام ، الحذف البلاغي في القرآن الكريم ، مكتبة القرآن ، القاهرة ، د ط ، د ت ، ص39 .

[4] . ينظر: سعيد العوادي ، حركية البديع في الخطاب الشعري ، ص187 .

التّقابل يكون أكثر دقّة وضبطا، وأقلّ مصطلحات وتكرارا... ويُسمّى جميعُها أشْكال التّقابل أو علاقاته . وقدْ تفطّن القدماء إلى السّمة التّقابليّة لهذه الألوان، ولعلّ ما منَعَهم من توحيدها تحت مصطلح التّقابل هو اختلاف بنْياتِها، إضافة إلى التفّنن ــ كما سبق ــ والتّسابق في ابتكار المصطلحات والألوان البديعيّة .

الخـــــاتمة

تطرّقنا في هذه الدّراسة إلى ظاهرةٍ أسلوبيّة ودّلاليّة بارزةٍ في القرآن الكريم، ومنَ الأوْجه الفنّية في بلاغته. اعْتَمَد عليها اعتمادا كبيرا، وشغلت مساحةً واسعةً فيه، وجعَلها وسيلةً من وسائله الكثيرةِ لتوْضيح معانِيه، والتّأثير في النُّفُوس وإقْناع مُخاطِبيه، ومنْ ثمّ الوُصول إلى أهْدافه وغاياته ... وهي ظاهرة التّقابل بأنْواعه المختلفة، وعلاقاته المتشعّبة، وبِبُعْديْه؛ الجماليّ والدّلاليّ .

وقد خَلُصت الدّراسة إلى النّتائج الآتية:

• اسْتخْدم العرب القدماء في اللّغة والنّقد مصطلحاتٍ مختلفة تصبّ في معنى التّضاد، وتدور حوله منها:الطّباق، المقابلة، التكافؤ، والتناقض، والخلاف ... والذي كان له الانتشارُ الواسِع هما المصطلحان «الطّباق والمقابلة». ولا فرق بيْنَهما عند العلماء إلّا في عَدَد المتضادّات. ولم يتّفق بعضُ العلماء فيهِما على رأي واحد. و«الطّباق والمقابلة» من البديع الذي قصَره القدماء ـ عموما ـ على الزّخرف والتّحسين، وقسّموه إلى بديع لفظيّ وبديع معنويّ. وهو تقسيم يُنافي طبيعة اللّغة التي لا يُمكن فصْلُ عناصرها بعضها عن بعض. فلِلّون البديعيّ الواحدِ جانبٌ إيقاعيّ صوْتيّ، وآخر معْنويّ دلاليّ، لأنّه يمثّل اللّغة التي هي لفظ ومعنى، ولا يُمكن الاستغناء عن أحَدِهما في عمليّة التّواصل والتّبليغ .

• الجماليّة في الأدب هي صيَاغَة لُغَوِيَّة تستخدم أدوات التّعبير اللّغويّ ابتداءً بالأصْوات وتَرْتيبها ومُرورا بالألفاظ وتركيبها والجُمل وتناسقها، فتُحقّق الإيقاع العذب، والصّورة الجميلة، وتصل إلى المتلقّي وتؤثّر فيه، ويقتنع بما تريده. وهو ما استغلّه القرآن الكريم استغلالا كبيرا.

• القرآن الكريم كِتابُ دعْوة دِينيّة أنْزَله اللهُ ـ سبْحانه وتَعَالى ـ لهِدايَة البشَر وإسْعادِهم. ولإقْنَاع مُخاطِبِيه بِمَصْدَر رسالَتِه وبِصِدْق صاحِبها، والتّأثير فيهم، ومن ثمّ الإيمان به ... وظّف اللّغةَ توظيفا حجاجيّا، واستعْمل مُخْتَلِف الوسائِل. من ذلك أنّه اهتَمّ بالجماليّة، وجَعَلَها من أوْلَوِيَّاتِه التي اعتمدها. فهو نَصّ لُغَوِيً لكنّ الآليات اللّغويّة بَلْورَته في أرقى وسائل التّعبير، فهو مُشكّل بأعلى المُرْتَكزَات الجماليّة، وتجلّت فيه اللّغة في أرْقَى دَرَجَاتِهَا، وبأبْهى عناصرها. وفي الوقت نفسه لم تكن هذه الجماليّة غايتَه، بل وسيلةٌ لغاية أعظم، وهي المعنى. فجعل من الجماليّة بمختلف عناصرها من حركة وصَوْت ومفردة فصيحة وتركيب متناسق منسجم صوْتًا ومعْنًى، وموسيقى عذبة وإيقاع جذّاب، وصُوَر أنيقة ... وسيلة إلى غاية كبرى وهدَفٍ عظيم، وهو المعنى، فجمع بيْن الجماليّة والدّلاليّة .

• تَفَطُّنُ المحْدثين ـ عموماـ إلى أنّ البديع مُكَوّن بنائي، وقيمةٌ شعريّةٌ أساسيّة في بلاغة النّص. ومن ثمّ فالتّقابلَ لا يُمكن أنْ يكون مجرّدَ مُحَسّن في الكلام، وذيْلٍ في البلاغة، بل هو عُنْصُر فعّال في النّص الأدبيّ، وجَوْهريّ في تحقيق شعريته، وفي تماسُكه وانْسجَامه وتَرابُط أجزائه، وأسلوبٌ هامّ من أساليب التّعبير. وفيه جماليَاتٌ ومُسَاهَمَةٌ فعّالةٌ في إنْتاج الدّلالة وتفجير المعاني والإفصاح عنْها، ولهُ أثَرٌ في بلاغة أسلوبه، وتأثير على المتلقّي. فالتّقابل يقوم على فِكْرة التّضاد، التي فيها ربْطٌ بين المتناقضيْن،وتجْمِيعٌ المتنافِرَيْن، فيتفاعلان ويُحْدِثان المفاجأة والدّهشة ويُلقِيَان بأثَرِهما على المتلقّي. ومن جهة أخرى إحْداثُ وحَدَات صوْتيّة في الكلام تُقابِلُها وَحدَات صوتيّة أخرى، يتحقّق بها الإيقاع، وتتجلّى فيها الموسيقى والنّغمة. وتظهَر وظائفُه ـ أيضا ـ في اسْتِدعاءِ الضّدّ لضدّه، وفي ما يُضْفيه مِنْ تميُّز، فيظهر التّباعُد وتتجلّى الفوارق بيْنهما، فيكونان شاخِصَيْن أمَامَ المتلقّي، ويكون له أثرُه النّفسي عليه ... إضافة إلى أنّه محفّز على التّذكّر فتسْترْجعه الذاكرة بسهولة. كلّ هذا جعَلَ القرآنَ الكريمَ يستغلّه ويعتمد عليه ويجعَله من أولويّاته، فكان من الوسائل الأسلوبيّة والدّلاليّة البارزة فيه .

• بناءُ بعْضِ السُّوَرِ في القرآن الكريم على التّقابل؛ بناءً كليّا أو جزئيّا. فالبنَاء الكُلّي يكون على شكْل ثنائيّات؛ مفرداتٍ، أو جُمل قصيرة أو فقرات محْدودة الطّول، مثل سورة «الرّعد». أو تنقسم السّورة فيه إلى قسميْن متقابليْن، فيكون على شكْل فقرتيْن. وهُو ما يتلاءم مع سُور الرّبع الأخير المحْدودة الطّول، مثل سورة «المطفّفين». والبِنَاءُ الجزئيّ يكون فيه التّقابل في أوّل السّورة أو في وسطها،أو آخرها. وكثيرا ما يكون حجّةً أو نتيجةً وخلاصةً لِمَا سبَقه من أفكار ومعانٍ، أو حقائق ومواقف، أوْ أوَامر ونواه ... تطرّقت إليها السّورة وشرَحَتْها، وأرادت أنْ تصل من خلالها إلى غاية وهدف مركّزَيْن ترمي إليْهما وتؤثّر في النّاس وتُقْنِعهم في اختيار الطّريق الأمثل، والسّبيل الأسْلم من خلال الرّبط بين المتقابلَيْن وإظهار الفوارق بيْنهما .

• التّقابلُ من وسائل التّناسب والتّماسك النّصي في القرآن الكريم؛ فهُو يجْمع بين المعاني، وإن كانت مُتَخَالفَة، لأنّ بيْن المعنى ومقابِلِه علاقةً، والمعنى يستدعي ضدّه . ويكون التّقابل بين آيات السّورة الواحدة، وبيْن السّورتيْن المتجاورتيْن؛ في بعْض آياتِهما، أوْ فِي مَوْضوعَيْهما، وحتّى بين السّور المتباعدة. وهو ما يقدّم صُورةً عامّة عنْ تماسُكِ القرآن الكريم كلِّه، وتشابُكِ سُوَرِه، وتلاحُمِ أجزائه من أجْل غايةِ واحدةٍ. والتناسب مبدأ جماليّ، وفي التّماسُكِ تظهَر القيمة الجَماليّة، ويتجلّى المعنى.

• انْفرادُ القرآنِ الكريم بِنَوْع خاصّ من التّقابل، وهو ثلاثيّ الأطراف. ففي سّورة « محمد» أطْرَافٌ التّقابل هُمْ: « المؤمنون والكافرون والمنافقون». وقد فرَضَه ظهُورُ فئةٍ جديدةٍ منَ النّاس في المجتمع نتيجة موْقِفهم منَ الإسلام. أمّا في سورة«الواقعة» فالأطراف هُمْ:«السّابقون وأَصْحَابُ الْيَمِينِ، وأَصْحَابُ الشِّمَالِ »، وهي أصْناف تظهَر يومَ القيامة، نتيجة معتقدات وأعْمال النّاس في الحياة الدّنيا .

• اسْتعْمالُ القرآنِ الكريم الأمثال الطّويلة، والقصيرة السّريعة، والمركّبة، القائمة على التّقابل بين نموذجيْن أو حالتيْن متناقضتيْن، لإجْراء المقارنَة والمُوازنة وإيضاح الفَوارق الجَوْهريّة بين الاثنين. فضَرَبَ الأمثالَ للّذين كفروا والذين آمنوا ... والذين يُنفقون في سبيل الله والذين ينفقون رياءً... وللْكلمة الطيّبة والخبيثة... وللإنسان الموحِّد وللإنسان المشْرك... وهُو ما يَكُون له دوْر كبيرٌ في إبْراز القيمَة الإيجابيّة وتجْليَتها والتّرغيب فيها، وتعْرية القيمة السّلبيّة والتّنفير منها.

• تَجَسُّدُ التّقابُلِ في القصّة القرآنيّة من خلال التّقابُل بيْن الأفكار والشّخصيّات والمواقف والتّصرّفات والحالات النّفسيّة... ومن خلال الصّراع بين الإيمان والكفر،الخيْر والشرّ، الحقّ والباطل... بما تمثّله كلّ مجْموعة من إيجابيّة وسلْبيّة، تتفرّع عنْها قضايا كثيرةٌ متقابلة ومتّصلة بها مثل: الطّاعة والمعصية،الإخلاص والنّفاق، التّواضع والتكبّر، الفضيلة والرّذيلة، نصْرة المؤمنين وهزيمة الكافرين...

وقدْ وجدْنا ذلك في قصّة سيّدنا يوسف ـ عليه السّلام ـ التي تقابلَتْ فيها صفاتُ الطّهارة، والصّدق، والوفاء والعفّة والعلْم، والحِكْمة، والصّبر، وقوّة الإرادة والعفْو... بالخيانة والكذب والشّهوة والحسَد والمكْر وعدْم العلْم... وتقابلت حالات سيّدنا يوسف ـ عليه السّلام ـ في القصّة من الصِّبَى والعجْز والفِراق والبئْر والاتّهام والسّجن، إلى بُلُوغ الأشدّ والقوّة ورفاهيّة القصْر والزّعامة على الخزائن واللّقاء. وهو مصير المؤمنين والصّادقين المخْلصِين في كلّ زمان ومكان مهْما عانوا. كمَا بُنِيتْ القصّة على تعبيرات كثيرة متقابلة مثل: أعلم،لا تعلمون/ قُبُل ودُبُر/ صدَقَت وهو من الكاذبين وكذبت وهو من الصّادقين/ سِمان وعِجاف/ خضر ويابسات/ لا تدخلوا وادخلوا ... وقد ظهر ذلك ـ أيضا ـ في قصّة «ابْنيْ آدم»؛ فقد كان «هابيل» رمْزا للتّقوى، الإخلاص، الوداعة، التّسامح، الخوْف من الله، التبرّؤ التّام من القتل ... و«قابيل» رمْزا للمباهاة، والبطْش، والحسد، والانتقام،الاستعداد التّام للقتل ...

• مِنْ خلال هذا التّقابل في القصّة، وفي الأمثال يكْشف القرآن الكريم عمّا يُريد تبْليغَه، وعمّا يُريد الدّعْوةَ إليه، والتّرغيبَ فيه، وعمّا يُريد النّهْي عنْه، والتّرهيبَ منْه... وتمْتزج في كلّ هذا، جماليّاتُ القصّة والمثَلِ المركّب والتّشبيه بجماليّات التّقابل. وفي العناصر المركّبة تكون القيمة الجماليّة أوْضَحَ، والتّأثير أكثر، والمعنى أثْرى وأعْمق. ويكون في كلّ هذا جمْعٌ بيْن الهدف الدينيّ والهدف الفنّي.

• قدْ يُطيل التّعبيرُ في القرآن الكريم الحديثَ عن أحَدِ طرفَيْ التّقابل، ويهْتمّ به أكثر من الآخر؛ وذلك رِضًى عنْه، وإعجابًا به، وحثًّا على أعْمالِه وأخْلاقه ومواقِفِه... أو سُخْطا عليْه، وكرْهًا له، وتنْفيرًا منْ أعْمالِه وصفاتِه ومَوَاقِفِه... تماشيًا مع سياق السّورة ومُحْتواها وغايتها. ويُضْفِي هذا السّياق بظِلالِه على التّقابُل، فيُوضّحُه ويفْتح مغاليقَه، ويَكْشِف جماليّاته، ويُجْلي دوْرَه الدّلاليّ منْ خلال علاقاتِه بالآيات القريبة والجوّ العامّ للسّورة. ومن خلال هذا كلّه تظْهَر بلاغةُ التّقابلِ في القرآن الكريم .

• تضافُرُ التّقابلِ بما يُمثّله من ثَرَاءٍ دَلاليّ مع بعْضِ ألْوانِ البديع في القرآن الكريم، كالتّكرار والتّوازُن والتّجانُس والفَواصل... بِما تُمثّله من ثَراء صَوْتيّ إيقاعيّ. ما ينتُج عنْه تكثيفٌ وثراءٌ إيقاعيان ودلاليَان في السّورة، يزيدان من تأثيراتِها الإقناعيّة. ويَكْثر هذا في سُوَرِ أواخِر الرّبع الأخير، والتي تميّزت بكثرة الصّناعة الصّوتيّة الإيقاعيّة. فكثيرا ما يلْتقي التّقابلُ بهذه الألوان البديعيّة في آية منْها، تكون منْفردة عن مثيلاتها في السّورة؛ بنْيةً وإيقاعا ودلالةً، حتّى تَجْلِبَ الانْتباه، ويكون تأثيرُها أقْوى، لأنّها محَطّة رئيسة هامّة، وموْضع ارْتِكازٍ، وعليْها تُسلِيطُ الضّوْءِ في السّورة .

• تَجَلِّي علاقةِ التّقابلِ في بعْض الألوان البديعيّة الأخرى. فقدْ يَخْرُج التّقابلُ عن بنْيتِه الأصليّة المألوفة؛ إمّا بتغْيِيرِ ترْتيبِ عناصرِه في «اللّف والنّشر»، و«الجمْع والتّقسيم والتّفريق»، أو بتقْديمِ وتأْخيرِ بعْضِها عنْ بعْضٍ في« العكْس والتّبْديل»، أو بحذْفِ جُزْءٍ منْ كلّ طرف في «الاحتباك»، وبحذْفِ طرَفٍ بكامِلِه في«الاكتْفاء»... لكن يبْقى التّقابلُ أساسَها. والخروجُ عن أصْلِ بنْيةِ التّقابلِ ليْس إفْسادا للمعنى، أو خلَلا في الدّلالة، أو بُعْدًا عن الجماليّة... إنّما هو مراعاةٌ للسّياق وما يتطلّبُه التّعبير. وفي هذا تحقيقٌ لجمَال التّركيب، وضبْطٌ لحُدُود المعنى، وتعبيرٌ بدقّة عمّا تريد الآيةُ والسّورةُ عامّة تبليغَه .

• كثيرا ما يتصدّر طرفا التّقابل بـ « منْ » أو« أمّا» الشَرطيّتيْن، وفي هذا التّكرار مقدّمةٌ إيقاعيّة، وتقسيمٌ وتفصيلٌ للطّرفيْن المتقابليْن، وتثبيتٌ للدّلالة، وتحفيزٌ للذّهن على انتظار ما بَعْدَهما، وتشوّقٌ للنّتيجة .

ومنْ خلال هذا كلِّه؛ يظهر أنّ التّقابلَ منْ بلاغة القرآن الكريم، وتظهر طاقتُه الكبْرى في تحريك مشاعِر المتلقّي والتّأثير فيه، وقُدْرته العاليَة على الإقناع، ومنْ ثمّ دوْرُه الحجاجيّ الهامّ. فالتّقابلُ منْ أساليب التّبليغ، ومن آليات الحِجاج البلاغيّة، وهدفُ الخطابِ القرآنِ الكريم هو التأثيرُ في المتلقّي وإقناعُه، ومن ثمّ فهُو خطابٌ حجاجيّ. وفي التّقابل تظهر الجماليّة، وتنتج الدّلالة، ويَتَعانق الاثنان؛ للتّبليغ والإقناع، والتّأثير والاقتناع، والإيمان والاتّباع .

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع :

ـ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم .

أوّلا : الكتب العربية .

1. ابتسام أحمد حمدان، الأسس الجماليّة للإيقاع البلاغي في العصر العبّاسي، دار القلم العربي، حلب، سوريا، ط1 ، 1997 .
2. إبراهيم أنيس ، الأصوات اللّغويّة ، مكتب نهضة مصر، د ط ، د ت .
3. إبراهيم أنيس ، في اللّهجات العربيّة ، مكتبة الأنجلو المصريّة ، القاهرة ، د ط ، 2003 .
4. إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر، محمد النّجار، المعجم الوسيط، مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة ، دار الدّعوة ، د ط ، د ت .
5. إبراهيم مصطفى ، إحياء النّحو ، القاهرة ، دون دار نشر ، ط2 ، 1992 .
6. ابن أبي الأصبع ، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، د ط ، د ت . الجزء الثاني .
7. ابن الأثير أبو الفتح ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم وتعليق: أحمد الحوفي وبدوى طبانة ، دار نهضة مصر، الفجالة ، القاهرة ، د ط ، د ت .
8. ابن القيم محمد بن أبي بكر ، تفسير القرآن الكريم ، تحقيق: إبراهيم رمضان ، دار ومكتبة الهلال، بيروت ، ط1 ، 1410 .
9. ابن المعتز عبد الله ، البديع ، نشْر وتعليق المقدمة والفهارس: إغناطيوس كراتشقوفسكي ، دار المسيرة ، بيروت ، ط3 ، 1982 .
10. ابن المقفع عبد الله ، الأدب الصغير، قراءة وتعليق: وائل بن حافظ ، دار ابن القيم ، الإسكندرية ، مصر، ط1 ، د ت .
11. ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، د ط، د ت.
12. ابن رشيق أبو علي الحسن القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، 2004.
13. ابن سيده أبو الحسن علي بن إسماعيل، المخصّص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط1، 1996.
14. ابن طباطبا محمد بن أحمد أبو الحسن، عيار الشعر، تحقيق: عبد العزيز المانع ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د ط ، د ت .
15. ابن فارس أبو الحسن أحمد ، معجم المقاييس في اللّغة ، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو ، دار الفكر، بيروت ، د ط ، د ت .

16. ابن فارس أبو الحسن أحمد ، الصّاحبي في فقه اللّغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، نشر محمد علي بيضون ، ط1، 1418، 1997 .

17. ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ، تأويل مشكل القرآن ، تحقيق: أحمد صقر، المكتبة العلمية ، بيروت ، د ط ، د ت .

18. ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد المرعشلي، محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية ، منشورات محمد علي بيضون ، بيروت ، ط1، 1419هـ.

19. أبو الحسن سلام ، جماليات الفنون الأدبية . التشكيلية . المسرحية بين اللقطة الزمكانية، دار الوفاء، الإسكندرية ، مصر، ط1 ، 2011 .

20. ابن منظور أبو الفضل جمال الدين بن مكرم ، لسان العرب ، دار صادر، بيروت ، ط1، د ت .

21. أبو السعود العمادي محمد بن محمد ، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، دار إحياء التّراث العربي ، بيروت ، د ط ، د ت .

22. أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن الحسيني ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن ، تقديم ومراجعة: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري ، المَكتبة العصريَّة ، صَيدَا ، بَيروت ، دط ، 1992 .

23. أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي ، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: عادل عبد الموجود، علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 2001 م .

24. أحمد إبراهيم موسى، الصّبغ البديعيّ في اللّغة العربيّة، دار الكاتب العربي، القاهرة ، د ط ، 1969 ، وزارة الثقافة ، الجمهورية العربية المتحدة .

25. أحمد أبو زيد ، التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنويّ والصّوتي، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1992 .

26. أحمد بدوي ، من بلاغة القرآن ، مكتبة نهضة مصر، ط3 ، 1950.

27. أحمد جمال المرازيق، جماليّات النقد الثقافي نحو رؤية للاتّساق الثقافيّة في الشعر الأندلسي، المؤسسة العربيّة ، بيروت ، ط1، 2009 .

28. أحمد محمد قدور ، مبادئ اللّسانيات ، دار الفكر، دمشق ، ط2 ، 1999 .

29. أحمد محمود خليل، في النّقد الجمالي رؤية في الشّعر الجاهلي، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت ، ط1، 1996 .

30. أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط7 ، 2009 .

31. أحمد مطلوب ، البلاغة العربيّة المعاني والبيان والبديع، وزارة التّعليم العالي والبّحث العلمي، بغداد، د ط ، 1980 .

32. أحمد مطلوب، معجم النقد العربي القديم، دار الشؤون الثقافيّة العامة ، بغداد ، ط1 ، 1989.

33. أحمد يوسوف ، جماليّات المفردة القرآنية ، دار المكتبي ، دمشق ، ط2 ، 1999 .

34. أحمد يوسوف ، دراسات فنيّة في القرآن الكريم ، دار المكتبي ، دمشق ، ط1 ، 2006 .

35. الأب جبرائيل ربّاط، بحث في الجمال والفنّ، دراسة وتحليل: سعد الدّين كليب، دار المركز الثقافي، دمشق ، ط1، 2007 .

36. الألوسي شهاب الدين محمود بن عبد الله ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1، 1415هـ.

37. البغوي أبو محمد أحمد بن مصطفى، معالم التنزيل في تفسير القرآن ، تحقيق: محمد النمر، عثمان جمعة، سليمان الحرش ، دار طيبة ، ط4 ، 1997 م .

38. البقاعي برهان الدين، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، د ط، د ت .

39. البيضاوي ناصر الدين أبو سعيد، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التّراث العربي ، بيروت ، ط1 ، 1418هـ .

40. التّوحيدي أبو حيان علي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق : محمد حسين إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط1 ، 2003 .

41. الثعالبي أبو منصور، فقه اللغة وسرّ العربيّة ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي ، إحياء التراث العربي، ط1، 1422هـ ، 2002 .

42. الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، كتاب الحيوان، تحقيق : عبد السلام هارون ، دون دار نشر، ط2 ، 1965.

43. الجرجاني أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، أسرار البلاغة، تعليق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المنى بجدة ، د ط ، د ت .

44. الجرجاني أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي، الوَسَاطة بين المتنبي وخُصَومِه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، د ط ، د ت .

45. الجرجاني علي بن محمد بن علي الشريف، التعريفات، ضبْط وتصْحيح جماعة من العلماء بإشراف النّاشر، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط1 ، 1983م .

46. الجوهري أبو نصر اسماعيل بن حماد ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق: أحمد عبد الغفار عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط4 ، 1987م .

47. الخفاجي عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، ط1، 1982.

48. الرازي فخر الدّين أبو عبد الله محمد ، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3 ، 1420هـ .

49. الرّاغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الدّاودي ، دار القلم ، الدّار الشّاميّة ، دمشق ، بيروت ، ط1، 1412 هـ.

50. الرّماني علي بن عيسى أبو الحسن ، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، جمْع وتحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف ، مصر، ط2، 1996.

51. الزبيدي مرتضى أبو الفيض محمد، تاج العروس، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دط ، دت.

52. الزركشي بدر الدين مُحمَّد بن عَبد اللَّهِ، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ط1 ، 2004.

53. الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمرو جار الله ، أساس البلاغة ، تحقيق: محمد باسل عيون، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1998.

54. الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمرو جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط3 ، 1407هـ .

55. السّكاكي أبو يعقوب يوسف، مفتاح العلوم، تحقيق وتعليق:عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلميّة، بيروت ، ط1 ، 2000 .

56. السّيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدّين، معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1، 1408 ، 1988م .

57. السّيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدّين ، أسرار ترتيب القرآن، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا ، مرزوق علي إبراهيم ، دار الفضيلة ، القاهرة ، د ط ، د ت .

58. السّيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدّين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط ، 1974م .

59. الشّوكاني محمد بن علي، فتح القدير، دار ابن كثير،دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت،ط1، 1414.

60. الصديق بن محمد ،الأمثال في القرآن الكريم ، دراسة موضوعيّة وأسلوبيّة ، دار أبي رقراق ، الرّباط، ط1، 2008 .

61. العسقلاني أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ترقيمُ كتبِه وأبوابِه وأحاديثِه: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار المعرفة ، بيروت ، د ط ، 1379هـ.

62. العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ، كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، 2004 .

63. العُلْوِيّ يَحْي بن حمزة بن علي ، الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العنصرية، بيروت ، ط1، 1423هـ.

64. الفراهيدي الخليل بن أحمد ، كتاب العين ، تحقيق مهدي المخزومي ، إبراهيم السامرائي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ، لبنان ، ط1، 1408هـ/ 1988م .

65. الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تح : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، إشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط8 ، 2005 .

66. القرطاجني أبو الحسن حازم ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي ، ط2 ، 1981 .

67. القرطبي أبو عبد الله محمد شمس الدّين، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط2 ، 1964 .

68. القزويني الخطيب ، الإيضـاح في علوم البلاغة ، حقّقه وعلّق عليه وفهرسه عبد الحميد هنداوي ، مؤسسة المختار، القاهرة ، ط2 ، 2004 .

69. المراغي أحمد ، تفسيـر المراغـي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1 ، 1946 .

70. أماني سليمان داود، الأمثال العربيّة القديمة دراسة أسلوبيّة سرديّة حضاريّة، المؤسّسة العربيّة للدراسات ، بيروت ، ط1 ، 2009 .

71. إنعام نوال عكاوي، المعجم المفصّل في علوم البلاغة، البديع والبيان والمعاني، مراجعة أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط2 ، 1417 ، 1996 .

72. بدوي طبانه ، معجم البلاغة العربيّة ، دار المنارة ، جدّة ، دار الرّفاعي ، الرّياض، ط3 ، 1988.

73. بسيوني عبد الفتاح فيود، علم البديع دراسة تاريخيّة وفنيّة ، مؤسّسة المختار، القاهرة ، دار المعالم الثقافيّة ، الأحساء ، العربيّة السعوديّة ، ط2، 1998.

74. بكري شيخ أمين، التعبير الفنّي في القرآن الكريم ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط4 ، 1980.

75. بلقاس بغدادي ، المعجزة القرآنيّة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، ط2 ، 1992.

76. تمام حسّان ، البيان في روائع القرآن ، دراسة لغوية وأسلوبيّة للنّص القرآني، عالم الكتب ، القاهرة، ط1 ، 1993.

77. توفيق الحكيم ، فنّ الأدب ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط2 ، 1973 .

78. جابر عصفور، النقد الأدبي، مفهوم الشعر، دراسة في التّراث النّقدي، دار الكتاب المصري، القاهرة ، دار الكتاب اللّبناني ، بيروت ، ط1 ، 2003 .

79. جمال مباركي، التّناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، دار هومة ، إصدارات إبداع للثقافة ، الجزائر، 2003 .

80. جمعان بن عبد الكريم ، إشكالات النّص ، دراسة لسانيّة نصيّة ، النادي الأدبي بالرّياض ، والمركز الثقافي العربي ، الدّار البيضاء ، بيروت ، ط1، 2009 .

81. جميل عبد المجيد،البديع بين البلاغة العربيّة واللّسانيات النّصيّة، الهيئة المصريّة للكتاب، دط، دت.

82. حسن ناظم ، البنى الأسلوبيّة ، دراسة في أنشودة المطر للسّياب، المركز الثّقافي ، الدّار البيضاء، بيروت ، ط1 ، 2002 .

83. حسين الواد ، اللغة الشعر في ديوان أبي تمام ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1، 2005 .

84. حسين الواد ، المتنبي والتّجربة الجماليّة عند العرب (تلقّي القدماء لشعره) ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط2 ، 2004 .

85. حسين جمعة ، جماليّة الخبر والإنشاء ، (دراسة بلاغية جماليّة نقديّة) اتّحاد الكتاب العرب ، دمشق، د ط ، 2005 .

86. حسين جمعة ، التقابل الجمالي في النّص القرآني (دراسة فكرية وأسلوبيّة) ، منشورات دار النمير، دمشق ، ط1 ، 2005 .

87. حمادي صمود ، من تجليات الخطاب البلاغي ، تحديث دار قرطاج ، تونس ، ط1 ، 1999.

88. خالد أبو جندي ، الجانب الفنّي في القصة القرآنية منهجها وأسس بنائها (نظريّة بناء القصة الفنيّة في القرآن الكريم) ، دار الشهاب ، باتنة ، دط ، دت .

89. خولة طالب الإبراهيمي ، مبادئ في اللسانيات ، دار القصبة للنشر ، الجزائر، ط2 ، 2006 .

90. راضي حكيم ، فلسفة الفنّ عند سوزان لانجر، دارالشؤون الثّقافيّة العامّة ، بغداد ، دط ، 1986.

91. راوية يحياوي ، شعر أدونيس البنية والدلالة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، سلسلة(1)، 2008 .

92. رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطوّر، منشأة المعارف، الإسكندرية ، مصر، دط ، دت .

93. رمضان كريب ، فلسفة الجمال في النقد الأدبي ، مصطفى ناصف نموذجا ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، دط ، 2009 .

94. روز غريب ، النّقد الجمالي وأثره في النقد العربي ، دار الفكر العربي ، بيروت ، دط ، دت .

95. سامي شهاب أحمد ، النّقد الأدبي الحديث قضايا واتجاهات ، دار غيداء ، الأردن ، ط1، 2013 .

96. سامي محمد عبابنة ، التفكير الأسلوبي، رؤية معاصرة في التراث النقدي والبلاغي في ضوء علم الأسلوب الحديث ، جامعة إربد الأهليّة ، عالم الكتب الحديث ، إربد، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن ، ط1 ، 2007 .

97. سعيد العوادي ، حركيّة البديع في الخطاب الشّعري من التّحسين إلى التّكوين ، دار كنوز المعرفة، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2013 .

98. سعيد جبر محمد أبو خضر، التّقابلات الدّلالية في العربيّة والإنجليزيّة تحليل لُغويّ تقابليّ ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ط1، 2008 .

99. سعيد حسن ، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، مكتبة الآداب، القاهرة ، ط1، 2005 .

100. سلامي العماري ، الإعجاز البياني والحداثة ، كليّة الآداب والعلوم الإنسانية ، سوسة ، تونس ، دط ،2007 .

101. سلوى النّجار، جماليّات العلاقات النّحويّة في النّص الفنّي ، مطبعة التّسفير، صفاقص ، ط1، 2006 .

102. سميح عاطف الزين ، معجم الأمثال في القرآن الكريم ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط2 ، 2009 .

103. سيبويه أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب ، تحقيق: عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط3 ، 1988 .

104. سيد قطب ، التّصوير الفنّي في القرآن الكريم ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط8 ،1983.

105. سيد قطب ، في النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، دار الشروق، القاهرة ، بيروت ، ط6 ، 1990.

106. سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط17 ، 1412هـ .

107. شفيع السيد، البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم، دار الفكر العربي، القاهرة ، دط ، دت.

108. شلتاغ عبـود، أسرار التشابه الأسلوبي في القرآن الكريـم، دار المحجة البيضاء ، دار الرسول الأكرم ، بيروت ، ط1، 2003 .

109. صالح بن رمضان ، الشّعر والأمثال في التّراث العربي، أعمال ندوة (قراءات في النّص الشّعري القديم) منشورات دار المعلّمين العليا ، جامعة تونس ، 2004 ، المجلّد: 8 .

110. صالح ملا عزيز،جماليّات الإشارة النفسيّة في الخطاب القرآني، دار الزمان، دمشق، ط2010،1.

111. صبحي إبراهيم الفقي ، علم اللّغة النّصي دراسة تطبيقية على السور المكيّة ، دار قباء ، القاهرة ، ط1، 2000 .

112. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص ، عالم المعرفة 164 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، أغسطس 1992 .

113. طالب محمد الزوبعي ، من أساليب التّعبير القرآني ، دراسة لغويّة وأسلوبيّة في ضوء النّص القرآني ، دار النّهضة العربيّة ، بيروت ، ط1 ، 1996 .

114. طالب محمد الزوبعي وحملاوي ناصر، البلاغة العربية البيان والبديع ، لطلبة قسم اللغة العربية، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط1 ، 1996 .

115. طه حسين ، من حديث الشّعر والنّثر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط12 ، د ت .

116. عاصم محمد أمين، لغة التضاد في شعر أمل دنقل، دار صفاء ، عمان، الأردن، ط1، 2005.

117. عاطف فاضل محمد ، مقدمة في اللسانيات ، دار المسيرة ، عمان الأردن ، ط1 ، 2011 .

118. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنيّة لغويّة وبيانيّة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط3 ، د ت .

119. عبد الرحمن حنبكة الميداني ، البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها ، دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية ، بيروت ، ط1 ، 1996.

120. عبد الرزاق نوفل ، الإعجاز العَدَدي للقرآن الكريم، ديوان المطبوعات الجامعيّة ، بن عكنون ، الجزائر، ط3 ، 1989 .

121. عبد السّلام أحمد الرّاغب،وظيفة الصّورة الفنيّة في القرآن الكريم ، فصّلت للدّراسات ، حلب ، ط1 ،2001 .

122. عبد العزيز عتيق ، علم البديع ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط1 ، 2006 .

123. عبد العزيز عتيق ، في النقد الأدبي ، جدار النهضة العربية ، بيروت ، ط2 ، 1972 .

124. عبد العظيم المطعي ، خصائص التّعبير القرآني وسماته البلاغيّة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط1، 1992 .

125. عبد الفتاح قلعه جي، مدخل إلى علم الجمال الإسلامي، دار قتيبة، بيروت، دمشق،ط1991،1.

126. عبد القادر حسين ، فن البديع ، دار الشروق ، ط1 ، 1983 .

127. عبد القادر هنّي، نظريّة الإبداع في النّقد العربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط ، 1999.

128. عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، دار المعرفة، بيروت، دط ، دت.

129. عبد الله النّقراط ، بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم دلالة التّصريف القرآني أَوْلى من دلالة ولفظ التكرار، دار قتيبة ، ط1 ، 2002 .

130. عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبيّة، عن منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات ، تونس ، منوبة ، الجمهوريّة التّونسيّة ، دار الفرابي، بيروت ، ط2، 2007.

131. عبد المجيد قطامش، الأمثال العربيّة، دراسة تاريخيّة تحليليّة ، دار الفكر، دمشق ، ط1، 1988.

132. عبد الملك مرتاض، نظام الخطاب القرآني تحليل سيميائيّ مركّب لسّورة الرحمن، دار هومة، الجزائر، 2001 .

133. عبد الهادي عبد الرحمن ، سلطة النّص قراءات في توظيف النّص الدّيني، سينا ، الانتشار العربي ، لندن ، بيروت ، القاهرة ، ط2 ، دت .

134. عبد الهادي ين ظافر الشميري، آليات الحجاج وأدواته، مقال ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، الجزء الأول: الحجاج حدود وتعريفات، إعداد وتقديم: حافظ اسماعيل علوي ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ط1، 2010 .

135. عبد الواحد حسن الشيخ ، البديع والتوازي ، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنيّة ، ط1، 1999.

136. عبد الوهاب النّجار، قصص الأنبياء، تحقيق: عبد الله بدران وعلي عبد الحميد أبو الخير، دار الخير، دمشق ، ط1، 1995 .

137. عبود شلتاغ ، أسرار التشابه الأسلوبي في القرآن الكريم ، دار المحجة البيضاء ، دار الرسول الأكرم ، بيروت ، ط1 ، 2003 .

138. عثمان حشلاف، التّراث والتّجديد في شعر السّياب، دراسة تحليليّة جماليّة في مواده صوره موسيقاه ولغته ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، د ط ، 1986 .

139. عدنان قاسم حسين ، التّصوير الشعري لبلاغتنا العربية ، الدّار العربيّة ، د ط ، 2000 .

140. عزّ الدين إسماعيل ، الأسس الجماليّة في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة ، دار الفكر العربي، القاهرة ، د ط ، 1992 .

141. عشتار محمد داود، الإشارة الجماليّة في المثل القرآني، اتحاد كتاب العرب، دمشق، د ط ، د ت.

142. عفيف البهنسي ، علم الجمال وقراءات النص الفنّي، دار الشرق للنشر، دمشق ، ط1، 2004 .

143. عفيف عبد الفتاح طبارة، مع الأنبياء في القرآن الكريم قصص ودروس وعبر من حياتهم، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط26 ، 2010 .

144. علي السّيد عز الدين ، التّكرير بين المثير والتّأثير، عالم الكتب ، بيروت ، ط2 ، 1986.

145. علي السيد يونس ، جماليّات الصّوت اللّغوي دراسات لغويّة نقديّة ، دار غريب ، القاهرة ، د ط، 2002 .

146. علي جواد الطاهر، مقدمة في النقد الأدبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، د ط، 1979 .

147. علي زايد عشري، عن بناء القصيدة العربية الحديثة ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط5 ، 2008 .

148. علي عبد الحليم محمود، التربية الجماليّة الإسلاميّة ، دار التّوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة ، ط1، 2003 .

149. عيد سعد يونس ، التّصوير الجماليّ في القرآني الكريم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط1 ، 2006.

150. عيسى علي العاكوب ، علي أسعد الشّتيوى ، الكافي في علوم البلاغة العربيّة (الكتاب الأوّل: المعاني) ، منشورات الجامعة المفتوحة ، 1993 .

151. غالب فاضل المطلبي، في الأصوات اللّغويّة دراسة في أصوات المدّ العربيّة ، منشورات وزارة الثّقافة ، والإعلام ، الجمهوريّة العراقيّة ، 1984 .

152. فاضل صالح السامرائي ، التّعبير القرآني ، دار عمار، عمان ، الأردن ، ط3 ، 2004 .

153. فاضل صالح السامرائي،الجملة العربيّة تأليفها وأقسامها، دار الفكر، عمان، الأردن، ط2002،1.

154. فاضل صالح السامرائي، على طريق التفسير البياني، دار الفكر،عمان، الأردن، ط1، 2011.

155. فاضل صالح السامرائي ، معاني النحو، شركة العاتك ، القاهرة ، د ط ، د ت .

156. فائز القرعان، تقنيات الخطاب البلاغيّ، دراسة نصيّة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2004 .

157. فائز القرعان، دراسة أسلوبيّة في النّص القرآني، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ط1، 2004.
158. فتحي أحمد عامر، المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، منشأة المعارف، الاسكندرية، دط ، دت.
159. فؤاد علي رضا ، من علوم القرآن ، دار اقرأ ، بيروت ، ط1 ، 1982 .
160. قدامة بن جعفر أبو الفرج ، نقد الشعر، مطبعة الجوائب ، قسطنطينية ، ط1، 1302.
161. كوليزار كاكل عزيز ، دلالات أصوات اللين في العربية ، دار دجلة ، ط1، 2009 .
162. مازن موفق الخيرو، بلاغة الخطاب ومرايا اللّغة دراسة نصيّة، عالم الكتب الحديث ، إربد، الأردن ، ط1 ، 2015 .
163. محمد أبو موسى ، التّصوير البياني ، منشورات جامعة قار يونس ، بنغازي ، ط1، 1978.
164. محمد إقبال عروي، اطرادات أسلوبيّة في الخطاب القرآني رصد واستدراك، دار الأمان، الرباط ، المغرب ، ط1 ، 1417 ، 1996.
165. محمد الخطابي ، لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، بيروت ، ط2 ، 2006 .
166. محمد الدّالي ، الوحدة الفنّية في القصة القرآنية ، دون دار نشر، ط1 ، 1993 .
167. محمد الصادق عرجون ، القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، دار القلم، دمشق، الدار الشاميّة ، بيروت ، ط2 ، 1989 .
168. محمد الطّاهر بن عاشور، التحرير والتنوير « تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد » ، الدار التّونسية للنّشر، تونس ، دط ، 1984هـ .
169. محمد العمري ، البلاغة العربيّة أصولها وامتداداتها ، أفريقيا الشرق، المغرب ، الدار البيضاء، بيروت ، د ط ، 1999 .
170. محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي ، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربيّة، الخطابة في القرن الأول أنموذجا،إفرقيا الشرق، الدّار البيضاء، المغرب، بيروت،لبنان، ط2 ،2002.
171. محمد العمري ، تحليل الخطاب الشعري ، البنية الصوتيّة في الشعر. الكثافة الفضاء التفاعل، الدار العالميّة للكتاب ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ط1، 1990 .
172. محمد الغزالي ، المحاور الخمسة للقرآن الكريم ، دار الهدى ، دط ، دت .
173. محمد المبارك ، استقبال النص عند العرب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1999.
174. محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشّوقيات، منشورات الجامعة التّونسية ، دط، 1981 .
175. محمد الهادي عيّاد، الكلمة دراسة في اللسانيات المقارنة، مركز النشر الجامعي، دار سحر للنشر، تونس ، د ط ، 2010 .

176. محمد الواسطي ، ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين ، دراسة بلاغيّة نقديّة ، دار نشر المعرفة، الرباط ، المغرب ، ط1 ، 2003 .

177. محمد بازي ، التّقابل وبلاغة الحجاج في كتاب إحياء علوم الدّين للغزالي، مقال ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته ؛ دراسات نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة ، الجزء الثّاني: الحجاج مدارس وأعلام، إعداد وتقديم: حافظ اسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 1431 ، 2010 .

178. محمد بركات، بلاغتنا اليوم بين الجماليّة والوظيفة،دار وائل للنّشر، عمان، الأردن، ط1، 2004.

179. محمد حسين آل ياسين ، الأضداد في اللغة ، مطبعة المعارف ، بغداد ، دط ، 1974 .

180. محمد ديب الجاجي ، النسق القرآني دراسة أسلوبيّة، شركة دار القبلة، جدة ، السعوديّة ، مؤسسة علوم القرآن ، بيروت ، ط1 ، 2010 .

181. محمد رجب بيومي ، البيان القرآني ، الدار المصريّة اللبنانيّة ، القاهرة ، ط2 ، 2005 .

182. محمد سالم الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، ط1 ، 2008 .

183. محمد سعيد رمضان البوطي ، من روائع القرآن ، تأملات علميّة وأدبيّة في كتاب الله ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، 1999م .

184. محمد صالح الضّالع ، الأسلوبيّة الصّوتيّة ، دار غريب ، القاهرة ، دت ، دط .

185. محمد عبد الباسط، النّص والخطاب قراءة في علوم القرآن، مكتبة الآداب، القاهرة ، ط1 ،2009.

186. محمد عبد المطلب ، البلاغة والأسلوبيّة ، مكتبة لبنان، بيروت، الشركة المصرية العالمية، الجيزة ، ط1، 1994 .

187. محمد عبد المطلب ، بناء الأسلوب في شعر الحداثة ، التّكوين البديعيّ ، دار المعارف ، القاهرة، ط2 ، 1995.

188. محمد علي الصّابوني ، الإبداع البياني في القرآن العظيم ، المكتبة العصريّة ، صيدا ، لبنان، ط1 ، 2006.

189. محمد علي الصّابوني ، صفوة التفاسير، دار الصابوني ، القاهرة ، ط1 ، 1417هـ ، 1997.

190. محمد قطب ، دراسات قرآنية ، دار الشروق ، القاهرة ، ط8 ، 2004 .

191. محمد قطب ، منهج الفنّ الإسلامي ، دار الشّروق ، بيروت ، ط6 ، 1983 .

192. محمد كريم الكواز، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، منشورات جمعيّة الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ليبيا ، ط2 ، 2008 .

193. محمد كريم الكواز، كلام الله ، الجانب الشفاهي من الظاهرة القرآنية، دار الساقي ، بيروت ، ط1، 2002 .

194. محمد متولّي الشعراوي ، تفسير الشعراوي ، الخواطر، مطابع أخبار اليوم ، دط ، 1997.
195. محمد متولّي الشعراوي ، معجزة القرآن ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، د ط ، د ت .
196. محمد متولّي الشعراوي ، أمثال القرآن الكريم، إشراف: أحمد الزّعبي، دار القلم، بيروت، دط، دت.
197. محمد مفتاح ، مجهول البيان ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1990 .
198. محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب ، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ، د ط ، د ت .
199. محمود البستاني ، قصص القرآن دلاليّا وجماليّا ، مؤسسة السّبطين العالميّة ، قم ، إيران ، ط2، 1428هـ.
200. محمود السّعران ، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية ، بيروت ، د ط ، د ت .
201. محمود المصفار، سيميائية القرآن بين الحجاج والإعجاز، شركة منى، صفاقص، تونس، دط، دت.
202. محمود سليمان ياقوت ، علم الجمال اللّغويّ المعاني البيان البديع(1)، دار المعرفة الجامعية ، قناة السويس ، د ط ، 1995.
203. محمود سيد شقير ، مع الأمثال القرآنيّة ، المؤسسّة الوطنيّة الحديثة ، القاهرة ، دط ، دت .
204. محمود عسران، البنْية الإيقاعيّة في شعر شوقي، مكتبة بستان المعرفة ، كفر الدوار، دط،2006.
205. مروان وحيد شعبان، الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلميّ الحديث دراسة تاريخيّة وتطبيقات معاصرة ، دار المعرفة ، بيروت ، ط1، 2006.
206. مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسبوري، صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، تحقيق وتصحيح وترقيم وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة ، ط1، 1991.
207. مصطفى السّعدني ، البناء اللّفظي في لزوميات المعرّي دراسة تحليليّة بلاغيّة ، منشأة المعارف، الإسكندرية ، دط ، دت .
208. مصطفى الصاوي الجويني، البلاغة العربية تأصيل وتجديد،منشأة المعارف بالإسكندرية،دط، دت.
209. مصطفى عبد السلام ، الحذف البلاغي في القرآن الكريم ، مكتبة القرآن ، القاهرة ، د ط ، د ت .
210. مصطفى مسلم ، مباحث في التّفسير الموضوعي ، دار القلم ، دمشق ، ط4 ، 2005 .
211. منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، حلب ، دار المحبّة ، دمشق، د ط ، 1429 ، 2009 .
212. منير سلطان ، الإيقاع في شعر شوقي الغنائي الجملة والخصائص، منشأة المعارف، الإسكندرية، د ط ، د ت .
213. موسى شاهين لاشين ، اللآلئ الحسان في علوم القرآن ، دار الشروق، القاهرة ، ط1، 2002 .
214. ميشال عاصي، مفاهيم الجماليّة والنّقد في أدب الجاحظ ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، د ط، 1979.
215. نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت ، ط5 ، د ت .

216. نعيم اليافي ، أوهاج الحداثة ، منشورات اتّحاد الكتاب العرب ، دمشق، سوريا ، 1993.
217. هديل بسام زكارنة، المدخل في علم الجمال، إهداءات 1998،المعهد الدبلوماسي الأردني،الأردن.
218. يادكار لطيف الشهرزوري، جماليّات التلقّي في السّرد القرآني ، دار الزّمان، دمشق، ط1،2010.
219. يوسف أبو العدوس ، الأسلوبية الرؤية والتطبيق ، دار المسيرة ، عمان ، الأردن ، ط1 ،2007.

ثانيا: الكتب الأجنبيّة المترجمة .

1. إيتان سوريو، الجماليّة عبر العصور تر: ميشال عاصي، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1974.
2. بنفينست إميل، اللغة والخطاب الأدبي، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء ، ط1، 1993.
3. بيير جيرو، علم الدلالة ، ترجمة: منذر عياشي ، طلاس للدّراسات ، ط1 ، 1988 .
4. جون أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، دط ،1991.
5. جون لا ينز، علم الدلالة ، ترجمة: مجيد عبد الحليم الماشطة ، حليم حسين فالح ، كاظم حسين باقر، كليّة الآداب ، جامعة البصرة ، دط ، 1980 .
6. جيروم ستولينتز، النّقد الفنّي دراسة فنّيّة وفلسفيّة ، ترجمة: فؤاد زكريا ، مطبعة جامعة عين شمس، ط2 ، 1974 .
7. رودلف زلهايم ، الأمثال العربية القديمة ، تر: رمضان عبد التواب ، مؤسسة الرسالة ، دط ، دت .
8. ستيفن أولمان ، دور الكلمة في اللغة ، ترجمة وتقديم : كمال بشر، دار غريب ، ط12 ، دت .
9. شارل لالو، مبادئ علم الجمال ، ترجمة: خليل شطا ، دار دمشق ، دمشق ، دط ، 1982 .
10. مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنيّة ، ترجمة: عبد الصّبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط4، 2004.

ثالثا: الرّسائل الجامعيّة .

1. بلقاسم حمام، آليات التواصل في الخطاب القرآني، مخطوط دكتوراه ، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة ، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة الحاج لخضر، باتنة ، السنة الجامعية: 2005/2004 .
2. سامية آجقو، البنية السّرديّة في رواية " مواكب الأحرار" لنجيب الكيلاني ، دراسة سيميائيّة ، رسالة ماجستير في النقد الأدبي، قسم اللّغة والأدب العربي، كليّة الآداب والعلوم الاجتماعيّة، جامعة محمد خيضر بسكرة ، السنة الجامعية: 2005/2004.
3. عادل محلو، الصّوت والدّلالة في شعر الصعاليك، (تائيّة الشّنفرى أنموذجا) ، مخطوط دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة الحاج لخضر، باتنة ، السنة الجامعية: 2007/2006 .
4. منى علي سليمان السّاحلي ، التّضاد في النّقد الأدبي مع دراسة تطبيقيّة من شعر أبي تمام، مخطوط الإجازة العالية في الأدب العربي ، السنة: 1993، قسم اللغة العربيّة ، كليّة الآداب والتربيّة ، جامعة قاريونس ، الجماهيريّة العربيّة الليبيّة .

رابعا: الدّوريات .

1. إبراهيم رمّاني، الرّمز في الشّعر العربي الحديث، مجلّة اللّغة والأدب، معهد اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة الجزائر، العدد: 02 ، دت .

2. بلقاسم دفّة، نماذج من الإعجاز الصّوتي في القرآن الكريم، دراسة دلاليّة ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة محمد خيضر، بسكرة ، العدد: 5، جوان 2009.

3. جمال مقابلة، اللّحظة الجماليّة محاولة فهْم نقديّة،عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ، العدد:1 ، المجلّد: 35 ، يوليو ، سبتمبر2006 .

4. حسين بوحسون ، أسلوب التّقابل ودلالته في المقال الأدبي الإصلاحي في الجزائر، مجلّة دراسات جزائريّة ، يصدرها مخبر الخطاب الأدبي في الجزائر، جامعة وهران، العدد: 5/4، السنة: 2007.

5. سعيد صبح خلدون ، البنية الجماليّة للتّشبيه في معلقة امرئ القيس ، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، ربيع الثاني 1430هـ ، نيسان 2009 ، الجزء: 2 ، المجلّد: 84 .

6. طه عبد الرحمن، مراتب الحجاج وقياس التّمثيل، مجلّة كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله ، فاس ، المغرب ، العدد: 9 ، السنة: 1987 .

7. عبد الجليل مرتاض ، الدّلالة والمعنى لسانيا ، مجلّة الممارسات اللّغويّة في الجزائر، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو، العدد:01 ، السّنة: 2010 .

8. محمد الأمين خلادي ، إعجاز اللّغة السّرديّة في القرآن الكريم، مجلة مجمع اللغة العربيّة ، دمشق، محرّم 1430هـ/ كانون الثاني 2009 ، الجزء:1، المجلّد: 84.

9. محمد الهادي الطرابلسي، في مفهوم الإيقاع، حوليات الجامعة التونسيّة، العدد:32 ، السنة: 1991.

10. نعمان بوقرة ، قراءة لسانيّة نصيّة في مجموعة (تراتيل الغربة) ، مجلة الأثر، جامعة ورقلة ، العدد: 2 ، ماي 2003 .

خامسا: الكتُب باللّغة الأجنبيّة .

1. Darmesteter Arsène la vie des mots étudiée dans leurs significations paris ed delagrave1946

2. De saussure Ferdinand cours de linguistique generale editions talantikit bedjaia 2002

فهرس الموضوعات

المقدمة..... أ ـ ب ـ ج ـ د ـ هـ

مدخل: تحديد المفاهيم .

أوّلا: التّقابل..... **8**

1 ـ تعريف التقابل..... **8**

2 ـ التّقابل بين القدماء والمحدثين..... **9**

أ ـ التّقابل عند القدماء..... **9**

ب ـ التّقابل عند المحدثين..... **13**

ثانيا: الجماليّة..... **22**

1 ـ الجماليّة وعلم الجمال الأدبي..... **22**

2 ـ القرآن الكريم والجماليّة..... **29**

ثالثا: الدلاليّة..... **34**

1 ـ تعريف الدلالّة..... **34**

2 ـ لمحة عامّة عن الدلالّة والمعنى..... **35**

الفصل الأوّل: بلاغة التّقابل وأبعاده في القرآن الكريم .

تمهيد(التّقابل وسيلة تأثير وإقناع)..... **41**

أوّلا:أهميّة التّقابل وأبعاده في القرآن الكريم..... **43**

ثانيا:التّقابل والتّماسك النّصي..... **48**

1 ـ التّقابل والتّناسب..... **48**

2 ـ التّقابل في السّورة الواحدة..... **50**

3 ـ التقابل بين السّور..... **53**

ثالثا: بناء السّور على التّقابل..... **58**

1 ـ بناء جزئيّ..... **58**

أ ـ تقابل في وسط السّورة..... **58**

ب ـ تقابل في آخر السّورة..... **64**

2 ـ بناء كلّي..... **70**

أ ـ على شكْل ثنائيّات..... **70**

ب ـ على شكل فقرات..... **76**
رابعا: تقابل ثلاثيّ الأطراف..... **84**
1 ـ سورة « محمد »..... **84**
2 ـ سورة « الواقعة »..... **88**

الفصل الثّاني: التّقابل في الأمثال والقصص في القرآن الكريم .

أوّلا: التّقابل في الأمثال في القرآن الكريم **94**
1 ـ لمحة عامة عن المثل **94**
2 ـ الأمثال في القرآن الكريم..... **97**
3 ـ الأمثال المتقابلة في القرآن الكريم..... **101**
تمهيد **101**
أ ـ الأمثال الطويلة..... **103**
ب ـ الأمثال السريعة..... **116**
ثانيا: التّقابل في القصص في القرآن الكريم **124**
1 ـ لمحة عامة عن القصّة **124**
2 ـ التقابل في القصص في القرآن الكريم..... **126**
3 ـ التقابل في قصة سيّدنا يوسف ـ عليه السلام ـ **130**
أ ـ التقابل في الشّخصيات **130**
• سيّدنا يوسف ويعقوب ـ عليهما السلام ـ..... **131**
• امرأة العزيز..... **133**
• إخوة سيّدنا يوسف..... **134**
ب ـ بناء السّورة على التقابل..... **136**
• تقابلات بين العلم والجهل **136**
• تقابلات مختلفة..... **137**
4 ـ التقابل في قصّة قابيل وهابيل..... **140**
ثالثا: التّقابل في الأمثال القصصيّة في القرآن الكريم **145**

الفصل الثّالث: التّقابل وألوان البديع في القرآن الكريم.

مدخل: **150**
أوّلا: التّقابل وألوان البديع الإيقاعيّة **153**
تمهيد: **153**
1 ـ اهْتِمام القرآن الكريم بالإيقاع **154**
2 ـ التّقابل والتّكرار **157**
3 ـ التّقابل والتّوازن **168**
4 ـ التّقابل والتّجانس والفاصلة **181**
ثانيا: التّقابل وألوان البديع الدلاليّة **191**
تمهيد **191**
1 ـ التّقابل باللّف والنّشر **192**
2 ـ التّقابل بالعكْس والتّبديل **199**
3 ـ التّقابل بالجمْع والتّفريق والتّقسيم **205**
4 ـ التّقابل بالحذْف **211**
أ ـ الاحْتِباك **212**
ب ـ الاكْتِفاء **214**
الخاتمة **219**
قائمة المصادر والمراجع **225**
فهرس الموضوعات **240**
الملّخص باللغة الأجنبيّة **244**

الملخّص باللّغة الأجنبيّة

Le titre:L'antithèse dans le Coran entre l'esthétique et l'indication.

RÉSUMÉ

Le saint Coran est un livre de sollicitation religieuse créé par Dieu, le Tout-Puissant, pour orienter l'humanité vers le droit chemin. Et afin de convaincre et persuader ses interlocuteurs de la justesse de son message, le Livre saint mesure parfaitement ses propos en accordant une importance particulière aussi bien sur le plan esthétique que sur celui du fond.

L'antithèse est un élément esthétique et indicatif très efficace pour soutenir la poéticité du texte littéraire et pour en assurer la cohésion et la corrélation entre ses différentes parties. Cette figure de rhétorique constitue également une importante forme d'expression qui rend le texte littéraire plus expressif et du coup plus convaincant. Elle porte sur le rapprochement dans le même énoncé, entre deux idées opposées pour mettre en valeur un contraste fort susceptible de créer la surprise et l'étonnement chez le destinataire et grâce à laquelle le texte réussit à trouver son rythme, sa musicalité et son ton.

Les fonctions de l'antithèse apparaissent également dans la confrontation qui va naître lorsque le rival convoque son antagoniste. Cette rencontre inattendue met en lumière la spécificité et fait apparaître l'éloignement et les différences entre les deux pôles. Elle constitue aussi un bonstimulant pour la mémoire.

L'antithèse est donc un discours indicatif et un moyen argumentatif qui œuvre à l'indication et à la persuasion. Il va de soi que cela a un impact sur les destinataires pour qu'ils choisissent le bon chemin à

travers la confrontation de deux axes et la révélation minutieuse de leurs différences.

Tout ceci a fait que l'antithèse acquiert une importance capitale au sein du Coran. En effet, elle est omniprésente dans la quasi-totalité de ses sourates pour en faire une priorité et un de ses principaux moyens stylistiques et indicatifs. Et de cela on cite :

- Le Coran est le premier à utiliser un nouveau type d'antithèse à savoir l'antithèse triangulaire.
- L'antithèse se manifeste à travers dans l'exemple et le récit dans le Coran à travers la confrontation entre les idées, les positions, les comportements et les états d'âme, et à travers le conflit entre la foi et l'incrédulité, entre le bien et le mal. Elle est visible également à travers l'attitude des protagonistes et l'opposition de leurs positions et de leurs caractères selon les deux axes : la foi et l'incrédulité.
- La symbiose de l'antithèse à travers la richesse de sa dimension indicative avec quelques figures de rhétorique telles que l'accumulation, le parallélisme et l'asyndète à travers leur diversité sonore et rythmique, accroît la dimension persuasive de la sourateet sa force argumentative ;ceci est perceptible surtout dans les dernières sourates du dernier quart.
- La transfiguration de l'antithèse dans d'autres figures de rhétorique pourrait le sortir de sa structure de base habituelle, mais l'antithèse demeure toujours leur principale source puisque le fait de sortir de la structure de base de l'antithèse ne constitue aucunement une altération au sens ou un éloignement de la poéticité, mais par respect du conteste et de la parole.